

تأليف

الدكتور علي أحمد مدكور

عميد معهد الدراسات التربوية

جامعة القاهرة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢١٠,٧ على أحمد مدكور.
ع ل م ن منهجية تدريس المواد الشرعية/ على أحمد مدكور. -
القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٩.
٢٦٤ ص؛ ٢٤سم.
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.
تدمك: ٧ ـ ١١٠٨ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
١ ـ التربية الإسلامية ـ طرق التدريس. أ ـ العنوان.

دار المصرى للطباعة
ت: ٣٨٣٦٥١٦ ــ الهرم


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة :

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين . تبلغ تربية الإنسان كمالها ـ في التصور الإسلامي ـ حين يصير قادرًا على تحقيق العبادة لله ، والقيام بحق الخلافة في الأرض وفق منهج الله . وهذا يقتضي من التربية إيصال كل إنسان إلى درجة كماله البشرى التي هيأه الله لها ، وبذلك يسهم بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله .

وما سبق يقتضي تربية الإنسان المسلم الذي يفهم التصور الإسلامي لحقائق الألوهية والكون والإنسان والحياة وما بينها جميعًا من علاقات وارتباطات . ويفهم دوره الفاعل في هذا التصور.. فهو يفكر ويحس ويعمل على عهد الله وشرطه .

ويقتضي إخراج الأمة المسلمة التي وظيفتها أن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتحتكم إليه في كل صغيرة وكبيرة : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » (آل عمران : ١١٠) .

« **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما** » (آل عمران : ٦٥) .

فالإسلام رسالة حضارية تحملها أمة الإسلام إلى العالم. وهي بذلك تحقق وسطيتها وشهادتها على الناس. فالوسطية هي «صفة» أمة الإسلام. وإذا كان بقاء «خيرية» أمة الإسلام موهون بأدائها لوظيفتها، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن بقاء «الوسطية» التي هي صفة الأمة مرهون باستمرار هذه الوظيفة والجهاد في سبيل تنفيذها: «**كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة، يبذلون أموالهم وأنفسهم للجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق، والخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»(١).

ويقتضي ذلك العمل على توحيد إرادة الأمة حول الإيمان بالله، والأخوة في الله. لأنه بدون الإيمان بالله فلا عقيدة ولا منهج. وبدون الأخوة في الله لا توجد الأمة القوية المتحدة. وبدون الاعتصام بحبل الله المتين، لا «خيرية» لأمة الإسلام ولا وظيفة، ولا «وسطية» لها ولا صفة، إنه ــ عندئذ ــ التنازع، والتشتت، والفشل، وذهاب الريح..

وتحقيق الأهداف السابقة إنما يكون من خلال تكامل العلوم الشرعية والعلوم الكونية أو العقلية في مناهج التربية. فهذه العلوم جميعها مظهر للكلمات الإلهية. فإذا كانت العلوم الشرعية هي علوم المقاصد والغايات ــ كما يقول ابن خلدون ــ فإن العلوم الكونية أو العقلية هي علوم الوسائل والأدوات.

وقد نعى ابن تيمية على الفلاسفة والمذهبيون عدم فهمهم لوظيفة كل نوع من النوعين السابقين للعلوم. فقد أدى انشقاقهم وتعصبهم إلى إشاعة الجبرية والكسل، وركود العلم والإنتاج، وتفرق الناس في ميادين العقيدة والشريعة. وإنطلاقاً من فكرة التكامل هذه يمكن القول إلى أن محتوى منهج التربية الإسلامية الذي تتحقق من خلاله الأهداف السابقة يشتمل على أربعة مجالات:

١ ــ مجال علوم العقيدة والشريعة. وهو يشتمل على علوم إجبارية وعلوم إختيارية. فالإجبارية والضرورية لكل فرد هي ما تعلقت بالعقيدة

(١) ابن تيمية: الفتاوى، علم السلوك، مجلد ١٠، ص ٥١٩.

والأصول، والأخلاق والقيم والمعايير الثابتة. والإختيارية ما تعلقت بالتشريعات والتنظيمات التشريعية في مختلف المجالات.

٢ ــ مجال العلوم الحربية والعسكرية. وهذه إجبارية لإرتباطها بالجهاد. وهي تتشكل وتتنوع حسب مهارات العصر وأدواته ووسائله.

ويعلل ابن تيمية التكامل بين العلوم العقيدية والشرعية وعلوم الحرب والجهاد فيقول: «ودين الإسلام أن يكون السيف تابعاً للكتاب. فإذا ظهر العلم بالكتاب والسنة، وكان السيف تابعاً لذلك، كان أمر الإسلام قائماً.. أما إذا كان العلم بالكتاب فيه تقصير، وكان السيف تارة يوافق الكتاب وتارة يخالفه، كان دين الله من هو كذلك بحسب ذلك» (٢).

ويسوى ابن تيمية بين المتخصصين في العلوم العسكرية والمتخصصين في علوم القرآن، فيقول: «وتعلم هذه الصناعات من الأعمال الصالحة لمن يبتغي بذلك وجه الله عز وجل. فمن علم غيره ذلك كان شريكه في كل جهاد يجاهد به، لا ينتقص أحدهما من الأجر شيئاً. كالذي يقرأ القرآن ويعلم العلم» (٣).

٣ ــ مجال العلوم الكونية والعقلية. مثل العلوم الرياضية، والطب، والفلك، والعلوم الحيوية، والفيزيائية والكيماوية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية عموماً. وثمرة هذه العلوم الكشف عن آيات الله في الأنفس وفي الآفاق: **«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»** (فصلت: ٥٣).

٤ ــ مجال المهن والصناعات المختلفة والمتنوعة. وأفضل الصناعات هي الصناعات الحربية والعسكرية، لأنها وسيلة الجهاد وعدته. والجهاد أفضل ما تطوع به الإنسان. ومصداق ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: **«إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به، والممد له»** (٤) (رواه أبو داود).

---

(٢) ابن تيمية: الفتاوى: أصول الفقه، مجلد ٢٠، ص٣٩٣.

(٣) الفتاوى. الفقه، مجلد ٢٨، ص١٣.

(٤) رواه أبو داود بلفظ ومنبله.

والمهن والصناعات كالعلوم الكونية والعقلية، إجبارية واختيارية. فما كان مفقودًا في المجتمع وسببًا في ضعفه وتدهوره صار إجباريًا وفرض عين. فإذا وجد إلى الحد الذي يكفي حاجة المجتمع صار اختياريًا وفرض كفاية.

لكن الأزمة الحقيقية في المجتمعات الإسلامية الآن هي أن نظم التربية الحديثة فيها قدمت المهم على الأهم، وحولت ما كان إجباريًا وفرض عين، إلى اختياري وفرض كفاية. فتضخمت بذلك مناهج العلوم العقلية والكونية، واحتلت المرتبة الأولى في المناهج والجداول الدراسية، وأزيحت علوم العقيدة والشريعة إلى المراتب المتأخرة. وأصبحنا لا نرى للقرآن والحديث والفقه إلا حصة واحدة في الأسبوع. في حين تحتفظ الرياضيات غالبًا بسبع حصص والفيزياء بأربعة، والكيمياء بأربعة، واللغة الإنجليزية بمثل ذلك. أما العلوم العسكرية والتدريب على فنون الحرب والجهاد فقد رفعت من الجداول المدرسية تمامًا!

وهذا — في الغالب — أثر من آثار تحول الأمة عن منهج الله إلى المناهج الدخيلة الأخرى، وتبني شرائع غير شريعة الله لحكم الحياة. وبذلك تم زحزحة الشريعة الإسلامية من مناهج التربية لتحل محلها دراسة الفلسفات الوضعية التي تأخذ مكانها الحاكم في توجيه كيان الأمة. فأقسام الفلسفة ومقرراتها تحتل مكانًا مرموقًا في معظم كليات علوم الإنسان، وخاصة كليات إعداد المعلمين.

والأمر المثير إلى حد الإبكاء هو أن وجدان الأجيال الحالية من الشباب والكهول قد تربي على عادة دراسة الفلسفات والمناهج الغربية على أساس أنها أمر طبيعي وحاجة ضرورية، فإذا ما فاتحت أحدهم أو بعضهم في أمر دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كبديل لهذه المناهج والفلسفات فإن الدهشة تعلو الوجوه، والغرابة تحاصرك من كل جانب إلى حد أنك قد تحس أنك قد أتيت أمرًا نكرًا!

إن الأمة لن تقوم بوظيفتها المنوطة بها من قبل الله وهي منحرفة عن هدفها الأكبر في تربية أجيالها. لقد تحولت الأمة عن الهدف الأكبر لوجودها

وهو تحقيق معني العبودية لله، عن طريق إعداد أبنائها للقيام بحق الخلافة في الأرض، وتحقيق منهج الله فيها بإعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق هذا المنهج.. تحولت عن هذا الهدف إلى هدف آخر هو التربية بالنمو للنمو، وعن طريق النمو، والتربية بالخبرة، وعن طريق الخبرة!

والذي لاشك فيه أن الانحراف عن الهدف كان مراده الانحراف عن التصور. لقد انحرف المسلمون عن التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون والإنسان والحياة، وحقيقة العلاقات والارتباطات بينها. ولقد أدى الانحراف عن هذا التصور إلى فساد حياة الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، والأمة الإسلامية.

أما بالنسبة لدول العالم المتقدمة مادياً، فهي تقف اليوم هي الأخرى على حافة الهاوية، وذلك بسبب إفلاسها في عالم «القيم» التي يمكن أن تنمو الحياة في ظلها نمواً سليماً، وتترقي ترقياً صحيحاً، خاصة بعد أن انتهت «الفلسفات» فيها و«الديمقراطيات» إلى ما يشبه الإفلاس.

إننا جميعاً في حاجة إلى منقذ، إلى مخلص.. والإسلام هو المنقذ، وهو المخلص.. لابد ــ إذن ــ من العودة الكاملة الشاملة إلى الله.

إن منهج الله، وتطبيقه تطبيقاً صحيحاً في واقع الحياة هو البداية التي يجب أن ننطلق منها في كل اتجاه، في السياسة، والاقتصاد والاجتماع والتربية. فالإسلام هو المنهج الوحيد الذي يستطيع إنقاذنا من التردي الذي نحن فيه نتيجة السير وفق «فلسفات» و«أيديولوجيات» مختلفة ومتناقضة، أقل ما يمكن أن يقال فيها: إنها أزياء فصلت وطرزت لمجتمعات تختلف في عقائدها، وقيمها، وأنماط حياتها اختلافاً جذرياً عن مجتمعاتنا. وأننا منذ انفتحنا عليها نعب منها عباً دون مناقشة، لم نصل إلا إلى هذه الفوضى الثقافية والتربوية التي هي طابع حياتنا المعاصرة!

إن لكل نظام من نظم التربية والتعليم روحه الخاصة وضميره الخاص النابعان من تصور أهله للكون والإنسان والحياة، فتربية الأجيال المسلمة في ظل نظم التربية غير الإسلامية يؤدي إلى صراع العقل والضمير، وإلى الردة

الفكرية والدينية : يقول الأستاذ أبوالحسن الندوي : «ولا يخفي علي المطلع الخبير أن لنظام التعليم روح وضمير كالكائن الحي له روح وضمير. إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم ، وغايتهم من العلم ، ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ، ومظهر لأخلاقهم . وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحا وضميرًا يشعرها بذاتها . إن هذه الروح هي التي تسرى فى هيكله تماما ، إنها تسري في جميع العلوم . في الأدب والفلسفة ، والتاريخ والفنون ، والعلوم العمرانية ، حتي في علمي الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح . وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها ، وإنما يتيسر ذلك لرجل أوتي من قوة الاجتهاد ، وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز الجزء النافع من الجزء الضار، فيكون عاملاً بمبدأ: «خذ ما صفا ودع ما كدر» (٥) .

فإذا طبقنا النظم التربوية غير الإسلامية في بلاد مسلمة ، أو مجتمع إسلامي ، فإنه يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي ، ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة ، والردة الفكرية ، وأخيرًا إلى الردة الدينية .. إلا من عصم ربك .

ولكي تتخلص الأمة الإسلامية من كل ألوان الفوضي الفكرية والتربوية التي هي طابع حياتها المعاصرة ، وتعالج كل صنوف العورات وعوامل الضعف والتفكك ، ومن ثم تسترد مركز القيادة في هذا العالم ، لكل هذا لابد من تصحيح مناهج التلقي والتربية وبناء الإنسان . وتصحيح منهج التلقي من أجل بناء الإنسان المسلم المعاصر الذي يقود الحياة فى عالمه علي عهد الله وشرطه ، يقتضي مجموعة من الأمور أهمها ما يلي :

أولاً : بيان طبيعة التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة ، وطبيعة مركز الإنسان في الكون ووظيفته في الحياة . وهو التصور الذي يعتبر المصدر الوحيد الموجه لكل نظم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية .

---

(٥) أبو الحسن الندوي : نحو التربية الإسلامية الحرة ، ص٢٨–٢٩ .

ثانياً: تحديد الأهداف العامة النابعة من التصور الإسلامي، التي يجب على المناهج التربوية عامة ومناهج العلوم الشرعية خاصة تحقيقها في شخصية المسلم المعاصر، حتى يستطيع القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية وفاعلية في إعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

ثالثاً: التركيز على إيضاح المفاهيم الرئيسية التي تساهم في فهم طبيعة التصور الإسلامي في مجال التربية والمناهج وطرائق التدريس. وهنا قد يكون من الضروري فك الاشتباك بين المسميات المختلطة في هذا المجال مثل: «التربية الإسلامية» التي تطلق ويراد قصرها خطأ على العلوم الشرعية، ومثل إيضاح العلاقة بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية، ودور كل منها داخل إطار منهج التربية الإسلامية.

رابعاً: بيان كيفية بناء مناهج العلوم الشرعية على مستوى مناهج إعداد المعلمين في كليات التربية وعلى مستوى مناهج التعليم العام في مراحله المختلفة، مع التركيز على كيفية اختيار المحتوى ومعايير ذلك.

خامساً: إيضاح كيفية إعداد الدروس، وأساليب تحضيرها في دفاتر التحضير، وطرائق التدريس المناسبة لكل علم من هذه العلوم. وهذه الأمور الخمسة هي مهمة هذا الكتاب.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

علي أحمد مدكور





■ محتويات الكتاب ■

■ الفصل الثاني ■

مفهوما التربية والمنهج في التصور الإسلامي

■ الفصل الثالث ■

أهداف منهج تدريس العلوم الشرعية

■ الفصل الرابع ■

محتوى منهج العلوم الشرعية

■ الفصل الخامس ■

منهج دراسة القرآن الكريم

■ الفصل السادس ■
منهج دراسة الحديث الشريف

■ الفصل السابع ■
منهج تدريس التوحيد

■ الفصل الثامن ■
منهج دراسة الفقه

■ الفصل التاسع ■
منهج دراسة السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي

الفصل الأوّل

طبيعة التصور الإسلامى ومقوماته

طبيعة التصور الإسلامي:

سبق أن قلنا إن مفهوم التربية ومفهوم منهج التربية ينبعان من التصور الإسلامي لحقائق الألوهية، والكون، والإنسان، والحياة.

إذن لكي نفهم منهج التربية، لابد أن نفهم طبيعة التصور الإسلامي لأسباب كثيرة أهمها ما يلي:

أولاً: إنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود. فلابد من أن يفهم حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان وما بينها جميعاً من ارتباطات(1).

ثانياً: لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان فى هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني وحدود اختصاصاته، وعلاقاته بخالقه وخالق الكون جميعاً.

ثالثاً: إنه بناء على فهم الإنسان لذلك التفسير الشامل، وعلى فهمه لحقيقة مركزه في الوجود الكوني ولغاية وجوده الإنساني، يتحدد منهج حياته

---

(1) انظر: سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الطبعة الشرعية السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م، ص٥ــ٦.

ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، والفرق بينه وبين المناهج الأرضية الأخرى .

رابعًا: لابد للمسلم من أن يعرف أن الإسلام إنما جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متفرد، وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية . وتحقيق منهج الله في الأرض. وإدراك المسلم لكل هذا هو الذي يكفل له أن يكون عاملاً إيجابيـًا صالحًا في بناء هذه الأمة، وقائدًا وموجهًا في عملية البناء والترقية .

وباختصار فإنه لابد للإنسان كي يستقر على قرار في أمر هذا الكون وفي أمر نفسه وفي غاية وجوده وفي منهج حياته من فهم حقيقتين أساسيتين متلازمتين للحياة البشرية وللنفس الإنسانية في كل حال وزمان .

الحقيقة الأولى:

هي أن الإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرة تائهة ضائعة . فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يحدد له مكانه، **ويضمن له الاستقرار فيه، لابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، فهي ضرورة فطرية وشعورية .**

الحقيقة الثانية:

هي أن هناك تلازمـًا وثيقًا بين طبيعة التصور الإعتقادي الإسلامي وبين طبيعة النظام الاجتماعي الإسلامي. فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ولمركز الانسان ووظيفته فيه، ولغاية الوجود الانساني كله. وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير، هو

نظام مصطنع لا يعيش. وإذا عاش فترة شقى به الإنسان، ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتماً، كما حدث أخيرًا لبلاد الكتلة الشرقية.

فالتلازم الوثيق بين طبيعة التصور الاعتقادى الإسلامي، وبين النظام الاجتماعي هو إذن ضرورة تنظيمية، كما أنه ضرورة شعورية (٢).

وإذا كان المجتمع الإسلامي، لا يمكن أن يكون إسلامياً حقاً إلا إذا سار هذا التصور الاعتقادي فيه كسريان الدم في شرايين الجسم، والروح في الجسد، فإن هذا ينطبق بالتالي علي مناهج تربية الصغار والكبار في هذا المجتمع. بل و يتحقق بواسطتها.

إننا عندما نبني منهج التربية على أساس التصور الإسلامي الذي تحدده طبيعة التصور الاعتقادي الإسلامي وطبيعة التصور الاجتماعي الإسلامي المنبثق عنه، فإننا نهدف إلي تثبيت الخصائص والمقومات التي تحدد الملامح الربانية لهذا المنهج، وتميزه عن غيره من المناهج البشرية المحيطة به، وبذلك يحافظ منهج التربية الإسلامية على المجتمع الإسلامي من الذوبان في المجتمعات الأخرى التي جاء هو أصلاً لهديها وقيادتها.

مفهوم التصور الإسلامي:

مما سبق يمكن القول بأن التصور الإسلامي هو التفسير الإسلامي الشامل للوجود، الذي يتعامل الإنسان على أساسه مع هذا الوجود. وهو يتمثل — إجرائياً — في المقومات الجوهرية الأربعة التالية:

(١) حقيقة الألوهية والفرق بينها وبين حقيقة العبودية.
(٢) حقيقة الكون غيبه وشهوده.

---

(٢) المرجع السابق، ص٢٣.

(٣) حقيقة الحياة غيبها وشهودها ونظمها وتكاليفها المتنوعة.
(٤) حقيقة الإنسان من حيث مركزه في الكون ووظيفته في الحياة.

إن هذه الحقائق الأربع والعلاقات والارتباطات بينها تمثل أساس التصور الاعتقادي الإسلامي وأساس التصور الاجتماعي المنبثق عنه. إن الإنسان لا يملك أن يعيش حياة إسلامية صحيحة دون فهم هذا التصور والإيمان به، والعمل بمقتضاه.

مقومات التصور الإسلامي

قلنا فيما سبق إنه لابد للإنسان من أن يفهم حقيقة الألوهية وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، وما بينهم جميعاً من ارتباطات. وبذلك يتعرف على مركزه في هذا الوجود الكوني، وعلى غاية وجوده الإنساني، وحدود اختصاصاته، وعلاقاته بخالقه وخالق الكون جميعاً، وبذلك يتحدد أيضاً منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، والفرق بينه وبين المناهج البشرية أو الأرضية.

إن التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون والإنسان والحياة هو أكمل وأشمل تصور عرفته البشرية، لأنه صادر عن رسالة الإسلام العالمية الخاتمة. إنه التصور الذي لا يأخذ جانباً من الوجود ويدع جانباً آخر.. وإنما يأخذ الوجود كله بمادياته وروحانياته، بشهوده وغيبياته، وكل كائناته، لذلك فإن هذا التصور ــ بشعبه الأربع: الله، والكون، والإنسان، والحياة ــ هو القاعدة والأساس الذي يبني عليه منهج التربية الإسلامية.
(انظر الشكل المرفق)

حقيقة الألوهية في التصور الإسلامي:

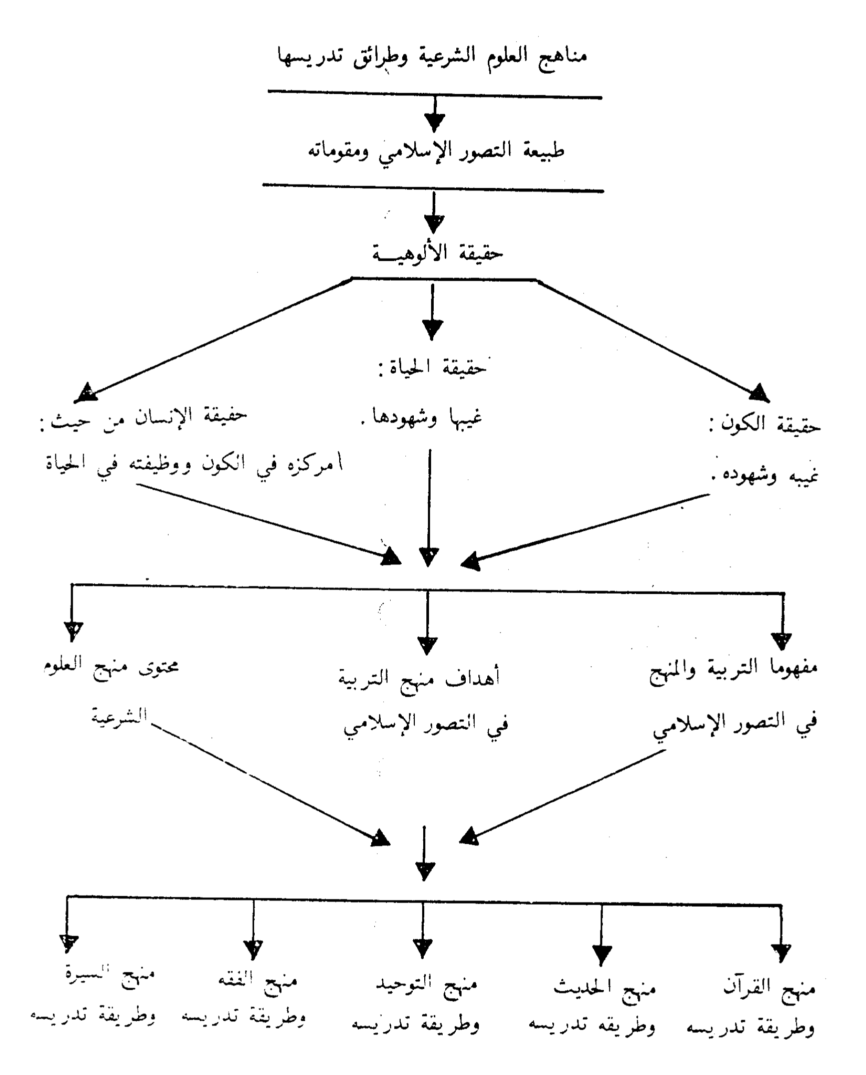
الحقيقة الأولى، والحقيقة الكبرى، والحقيقة الأساسية، والحقيقة الفاعلة، والحقيقة العميقة في التصور الإسلامي هي.. حقيقة الألوهية.

«فالتصور الإسلامي يبدأ من الحقيقة الإلهية التي يصدر عنها الوجود كله، ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته، ويعني عناية خاصة بالإنسان ــ خليفة الله في الأرض ــ فيعطيه مساحة واسعة من الصورة، ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلٰهية التي صدر عنها وإليها يعود».

«وهو في هذه الجولة الواسعة من الله وإليه، يشمل كل دقائق الكون، لا يغادر منها شيئاً يقع في محيطه، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه، وما يدركه العقل بوعيه، وما تدركه الروح فيما وراء الوعي، ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته. سواء نشاطه المادي ونشاطه الروحي. وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وسواء عمله في الحياة الدنيا، وفيما وراء هذه الحياة»(٣).

---

(٣) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ط ٦، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ، ص١٦.



والآن ندع القرآن الكريم يقرر حقيقة الألوهية بأسلوبه المشرق العجيب ، يملأ شعور القراء وحياتهم بالوجود الإلهي . ولكننا نريد منهم أن يتمهلوا وهم يتابعون السياق القرآني ، وأن يحاولوا تذوقه ، وأن يعقدوا الألفة بينه وبين

هذا المصدر الذى لا يغني مصدر آخر غناءه وحتى الذين يحفظون القرآن من قبل، نراهم فى حاجة إلى هذه الصحبة الجديدة لهذا القرآن. ليسمعوا الله سبحانه يقول فيه ما لا يملك أحد من عباده أن يقول:

• «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. هو الذي خلقكم من طين. ثم قضى أجلاً. وأجل مسمى عنده. ثم أنتم تمترون. وهو الله في السموات وفي الأرض. يعلم سركم وجهركم. ويعلم ما تكسبون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. فقد كذبوا بالحق لما جاءهم. فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون. ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن[٤] مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين؟ ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين. وقالوا: لولا أنزل عليه ملك! ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر ثم لا ينظرون[٥] ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً، وللبسنا عليهم ما يلبسون[٦]. ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون. قل: سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين. قل لمن ما في السموات والأرض. قل: الله، كتب على نفسه الرحمة، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. وله ما سكن في الليل والنهار، وهو السميع العليم، قل: أغير الله أتخذ وليًا فاطر السموات والأرض، وهو يطعم ولا يطعم؟ قل: إني أمرت أن أكون أول من أسلم، ولا تكونن من المشركين. قل: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو. وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير. وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. قل: أي شيء أكبر

---

(٤) القرن: الجيل من الناس.

(٥) من سنة الله أن يرسل الملائكة ــ إذا أرسلهم للمكذبين بالرسل ــ للأخذ والتدمير. فلو أجابهم لما يطلبون لقضي الأمر دون أن يمهلوا.

(٦) لو أرسل الله ملكًا جاءهم في صورة رجل. وإذن لالتبس الأمر عليهم واختلط. وحسبوه رجلاً ولم يكن في حجية لهم ما يخرجهم من هذا اللبس الذي هم فيه!

شهادة؟ قل: الله شهيد بيني وبينكم، وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل: لا أشهد، قل: إنما هو إلٰه واحد، وإنني بريء مما تشركون».. (الأنعام: ١ــ١٩).

• «قل: إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله. قل: لا أتبع أهواءكم. قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين. قل: إني على بينة من ربي، وكذبتم به، ما عندي ماتستعجلون به، إن الحكم إلا لله، يقص الحق، وهو خير الفاصلين. قل: لو أن عندي ماتستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم، والله أعلم بالظالمين، وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو، ويعلم مافي البر والبحر، وماتسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس، إلا في كتاب مبين. وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ماجرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى، ثم إليه مرجعكم، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون. وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا، وهم لا يفرطون. ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم، وهو أسرع الحاسبين. قل: من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعًا وخفية: لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل: الله ينجيكم منها ومن كل كرب، ثم أنتم تشركون. قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض[٧]. انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون». (الأنعام: ٥٦ــ٦٥).

• «إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله، فأنى تؤفكون. فالق الإصباح، وجعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو

---

(٧) كما أن عذاب المخالفين عن أمر الله قد يكون بالصواعق والزلازل ونحوها، فهو قد يكون بتسليط بعض هؤلاء المخالفين على بعض، ليذيق بعضهم بعضًا العذاب! كما هو مشهود في أحوال كثيرة.

الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع(٨) . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًا متراكبًا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب، والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون. وجعلوا لله شركاء الجن ــ وخلقهم ــ وخرقوا(٩) له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون، بديع السموات والأرض، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة(١٠) . وخلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير» (الأنعام: ٩٥ــ١٠٣).

• «الله يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول ومن جهر به. ومن هو مستخف بالليل وسارب(١١) بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه ــ يحفظونه ــ من أمر الله.. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال. هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا، وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال(١٢) . له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء. إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال. ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعًا وكرهًا. وظلالهم، بالغدو والآصال. قل: من رب السموات والأرض؟ قل:

---

(٨) ربما كانت هذه الآية تشير إلى مستودع الحيوانات المنوية في صلب الذكر. ومستقرها في رحم الأنثى حيث تتخلق مع البويضة. والتأويل هكذا على سبيل الترجيح لا الجزم هو الأليق بجلال القرآن، وبأدب المسلم مع الله.

(٩) خرقوا أي افتروا على الله الفرية الخارقة بنسبة البنين والبنات إليه سبحانه.

(١٠) ليست له ــ سبحانه ــ زوجة فهو «ليس كمثله شيء» خلق الأشياء والأحياء كلها أزواجًا وهو واحد متفرد.

(١١) سارب بالنهار: ظاهر غير مستخف.

(١٢) المحال: الحول والقوة.

الله، قل: أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا؟ قل: هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل: الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار» (الرعد: ٨ــ١٦).

• «سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها[١٣]. وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. له ملك السموات والأرض، وإلى الله ترجع الأمور، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهو عليم بذات الصدور» (الحديد: ١ــ٦).

وفي هذه النماذج يتمثل ــ على وجه الإجمال ــ وجود الله ــ سبحانه ــ وحضوره، وقدرته. وآثار هذه القدرة في صفحات الكون، وفي أغوار النفس، وفي أحداث الحياة. وفيها تتنوع مقومات التصور الإسلامي وتتوزع، ثم تتضام بعد ذلك وتتجمع، لتكون «الكل» الذي يشخّص ويمثّل ذلك التصور.. هذا «الكل» هو: العبودية لله وحده بلا شريك، والدينونة لله وحده بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شيء ولكل حي في هذا الوجود، في عالم الغيب وفي عالم الشهادة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في نظام الكون وفي حياة الناس، وتفرد هذه الألوهية الواحدة بخصائصها، وتجرد هذه العبودية من هذه الخصائص.

هذه هي قاعدة التصور الإسلامي الأساسية، فالتصور الإسلامي «يفصل فصلاً تامـًا بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية، فهما لا يتماثلان ولا يتداخلان، كذلك يبين التصور الإسلامي بيانـًا حاسمـًا: من هو «الله» صاحب الألوهية ومن هم «العبيد» الذين تتمثل فيهم العبودية»[١٤].

---

(١٣) يعرج: يصعد.
(١٤) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م، ص٨١.

عن مشيئة الله الواحد سبحانه صدرت كل الخلائق ، و بقدر الله تقوم وتتحرك ، لا شريك في هذه الألوهية .. لا في حقيقتها ولا في خصائصها ، ولا في سلطانها .

« إن المنهج القرآني يجلي هذه الحقيقة بآثارها الفاعلة في هذا الوجود .. في الخلق والتدبير، في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه ، في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم في إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ، في إرسال الرياح لواقح ، وإنزال الماء من السماء . في انبثاق الحياة من الموات وانبثاق الصبح من الظلام . في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ، في بدء الخلق وإعادته ، في القبض والبسط ، في البعث والنشور، في النعمة والنقمة ، في الجزاء والحساب ، في النعيم والثواب .. في كل حركة وكل انبثاقة ، وكل تغير وكل تحور في عالم الغيب أو في عالم الشهادة ، في هذا الوجود الكبير» (١٥) .

وهكذا .. فنادرًا ما يتحدث المنهج القرآني عن الذات الإلٰهية والصفات الإلٰهية في الصورة التجريدية كما يفعل الفلاسفة وعلماء اللاهوت وعلماء الكلام . والحقيقة الإلٰهية « هي في طبيعتها الكلية المطلقة الأزلية الأبدية أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة الحادثة الفانية . ولكن حسب « الإنسان » منها ما يصح به تصوره ، وما يستقيم به فكره ، وما يصلح به ضميره ، وما تنتظم به حياته ، وما يعرف به حقيقة مركزه ، ودائرة سلطانه ، ومقتضيات عبوديته لهذه الألوهية .. وهو قادر على إدراك هذا القدر عن تلك الحقيقة الكلية المطلقة الأزلية الأبدية .. القدر الذي لا يصح له تصور ولا يستقيم له فكر، ولا يصلح له ضمير، ولا تنتظم له حياة ، ولا يتحدد له اتجاه ، ولا يفلح له سعي ، ولا يقبل منه عمل ، إلا ، حين يصح إدراكه له . لا إدراك « الفكرة » أو « النظرية » ببرودتها الساكنة ! ولكن إدراك « العقيدة » بحيويتها الدافعة ، وإلا حين يقوم خلقه وسلوكه ، وتقوم حياته

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

وأوضاعه، وتقوم شرائعه وقوانينه، وتقوم قيمه وموازينه، وتقوم معرفته وثقافته، و يقوم نشاطه في الحياة كله على أساس هذه «العقيدة»(١٦).

حقيقة الكون فى التصور الإسلامى

إن «حقيقة الألوهية» ــ كما يجلوها المنهج القرآني ــ ذات أثر إيجابي في الكون، وفي ضمائر المؤمنين، وعقولهم، وفي واقع حياتهم، بقدر ما هي في ذاتها حق، و بقدر ما هي ذات بهاء وجمال وكمال.

إن الكون لا يستقيم بغير هذه الحقيقة، والضمير البشري لا يستقيم بغير هذه الحقيقة، والعقل البشري لا يستقيم بغير هذه الحقيقة، والحياة البشرية كلها لا تستقيم بغير هذه الحقيقة، لذلك فإن مناهج التربية لا تستقيم على طريق الإسلام، ولا تحقق أهدافها المرجوة منها بغير ترسيخ هذه الحقيقة في عقول المتعلمين وضمائرهم.

حقيقة الكون:

إن العقيدة الإسلامية من شأنها أن تنشئ في إدراك المؤمن تصورًا واضحًا لحقيقة الكون، ولعلاقته بربه، وعلاقته بالحياة والأحياء ــ بما فى ذلك الإنسان ــ وأن تقر في عقله وضميره الطمأنينة لذلك التصور.

والكون في التصور الإسلامي هو آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة، المبهرة، أراده الله فكان، وقدره تقديرًا محكمًا، وجعل كل شيء فيه خاضعًا لإرادته وتدبيره:

«وخلق كل شيء فقدره تقديرًا» (الفرقان: ٢).
«وكل شيء عنده بمقدار» (الرعد: ٨).
«إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له: كن. فيكون» (النحل: ٤).

---

(١٦) المرجع السابق، ص ١٨٧.

« إن هذا الكون — كما يقرر المنهج القرآني — كون مخلوق حادث، وليس بالقديم الأزلي. كما أنه لم ينشأ من ذات نفسه، لقد خلقه الله سبحانه، خلقًا، وأنشأه إنشاء، بعد أن لم يكن. سواء في ذلك مادة بنائه الأساسية، أو الصورة التي ظهرت فيها. ولم يشارك الله — سبحانه — أحد في خلق هذا الكون، ولا في خلق شيء منه، سواء في ذلك مادته أو صورته. إن الله — سبحانه — هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وأعطى كل شيء صورته، وأعطى كل شيء وظيفته (١٧).

« **خلق السماوات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون** » (النحل: ٣).

« **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل** » (الزمر: ٦٢).

« **ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدًا** » (الكهف: ٥١).

وإذا كان القرآن قد أشار إلى بعض الحقائق الكونية، فإن هذا ليس مبررًا لأن نتلمس الموافقات بين النصوص القرآنية التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية وبين النظريات والكشوف العلمية الحديثة، لأن هذا خطأ من الناحية الاعتقادية، ومن الناحية المنهجية العلمية أيضًا. أما من الناحية الإعتقادية، فالنصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهادة من خارجها عليها.. والمؤمن بها لا يجوز أن تدركه الهزيمة أمام علم البشر، فيستشهد به على صدقها وصحتها.

ثم إن ما تعارف البشر على أنه « نظريات علمية » و « حقائق علمية »، كلاهما ليس قطعي الدلالة، ولا مطلق الدلالة.. فهو علم ظني في أحسن الأحوال.. إن من المعروف أن « النظريات العلمية » ليست سوى « فروض راجحة » لتفسير ظاهرة أو ظواهر كونية، وهي عرضة للتبدل والتغير والتعديل والإلغاء، فأين يذهب النص القرآني إذا نحن علقناه بنظرية أو بعض الفروض المتغيرة، هل نحمله ونجري به وراء نظرية أخرى لعلها تتوافق معه؟!

---

(١٧) المرجع السابق، ص ٣٢.

إن الحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله ـــ سبحانه ـــ بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون كله ، أما « الحقائق العلمية » فهي ـــ كما يقرر العلماء ـــ مجرد احتمالات راجحة ، لا قطعية الدلالة ولا مطلقة الدلالة ، وطبيعة المنهج العلمي التجريبي لا تسمح بغير هذا ، فالإنسان هو الذي يقوم بالتجربة ، ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية (بمعني استقرائية) ، وإنما يعتمد على نتائج قياسية . فهو يجري تجاربه على عدد محدود ـــ مهما كثر ـــ من المادة التي هي موضوع التجربة ، ثم يقيس ما لم تتناوله تجاربه على ما تناولته هذه التجارب .

إن الحقائق الإلهية القطعية المطلقة لا تحتاج إلى برهان خارج عنها ، ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشيء من الحقائق الظنية المقيدة ، لا من الناحية الإعتقادية فقط ، ولكن من الناحية المنهجية العلمية أيضاً .

ومع ذلك ، فإن هذا لا يمنع من الإنتفاع بما يثبت من « الحقائق العلمية » ـــ وليس « النظريات العلمية » فقط ـــ في توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية .

الكون المادي :

والكون المادي في التصور الإسلامي قسمان : كون محسوس ، وكون غير محسوس .. شهادة وغيب . ولقد تناول الإسلام الكون المادي المتطور ، وعرض لكثير من ظواهره ، كالشمس ، والقمر ، والسماء ، والأرض ، والمطر ، والنبات ، والبحار ، والأنهار ، والجبال ، والشجر ، والدواب ... إلى آخره . وقد تكلم الإسلام عنها في بدء خلقها ، وتكلم عنها في عوارض وجودها وتكلم عنها في بعض نهاياتها ، وقد عرض لهذه النواحي لا ليعالج أمرها علاجاً فنياً تحليلياً ، فيكون كتاب هيئة ، أو كتاب حيوان . ولكن عرض لها لأنها دلائل قدرة الله تبارك وتعالى ، وعلائم صنعه الدقيق الحكيم ، ولتكون نبراساً يهدي الناس لمعرفة الله .

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم

بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مد الأرض، وجعل فيها رواسى وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفى الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» (الرعد: ٣ــ٤).

«قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين .. وتجعلون له أندادًا، ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخان، فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم» (فصلت: ٩ــ١٢).

«إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين» (الأعراف: ٥٤).

«وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون» (يس: ٣٧ــ٤٠).

وهكذا نرى أن القرآن لم يتناول الكون المشهود من الناحية الفنية، لأن القرآن كتاب للتوجيه، يصل الإنسان بالله، ولو تعرض لهذه النواحي لما انتهى أمره. ومن ناحية أخرى يدرك ضرورة ترك الحرية للعقل الإنساني كي ينمو ويتقدم حتى يدرك مكونات الكون، ويدرك صورها بسبب تدرجه في قوته واكتماله .. فكلما ارتقى العقل الإنساني اكتشف ناحية من نواحي الدقة، وجانبًا من جوانب القدرة، التي يصعب أن تتجلي للإنسان في طور واحد من أطوار حياته.

وواجب المنهج أن يتناول هذا الجانب من الكون بالدراسة والتفكير والتدبر، واكتشاف قوانين الله فيه عن طريق الملاحظة والتجربة، كما أن

هذا الجانب من الكون لا يمكن قهره ــ كما يقال ــ وإنما يمكن التلطف معه واستثمار خيراته لخير الناس جميعًا .

الكون المغيب :

أما القسم الآخر من الكون ، فهو الكون المغيب ، أو غير المحسوس ، وهو الذي يسمى «عالم الغيب» ، فهو عالم لا يدخل في حدود الكون المادي ، الذي يمكن أن ندرك مكوناته بالحواس ومن هذا العالم الروح ، والملائكة ، والجن ، والملأ الأعلى ، والتخاطر عن بعد ، وتأويل الأحلام ... إلخ ([18]) .

فهناك شيء اسمه الروح ، وهو مكون من مكونات الإنسان ، وهو من أمر الله تبارك وتعالى : « **ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** » (الإسراء : ٨٥) .

« **وإذ قال ربك للملائكة: إني خالق بشرًا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** » (الحجر : ٢٩) .

ومن الكون غير المرئي الملائكة : « **جعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى ، وثلاث ، ورباع** » (فاطر : ١) .

وهم يقومون بأعمال ... فهم يسبحون و يستغفرون ، ثم إنهم مكلفون ببعض أعمال الجزاء : « **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** » (المدثر : ٢١) .

ثم إنهم يحيون أهل الجنة : « **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** » (الرعد : ٢٤) .

ثم إنهم يقومون ببعض المهام الروحية ، مثل تسلم الأرواح : « **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم عن آياته تستكبرون** » (الأنعام : ٩٣) .

---

(١٨) حسن البنا : حديث الثلاثاء ، القاهرة ، مكتبة القرآن ، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور ، بدون تاريخ ، ص ٣٤ــ٤٥ .

ثم إنهم يستخدمهم ربهم في تأييد عباده المؤمنين: «**إذ تقول للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين**» (آل عمران: ١٢٤).

وهناك من عالم الغيب، الجن، وقد وصفوا بأنهم كانوا يسترقون السمع، وأن فيهم القدرة على تصريف الأمور أكثر من قدرة البشر: «**وقال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين**» (النمل: ٣٩).

ومن الجن صنفاً من الشياطين، وأنهم الذين يزينون للناس الأعمال الضارة، والمعاصي المهلكة، وعلاقة الجن بإبليس قوية، فإنه كبيرهم، وأنهم كانوا يعلمون الكتب المقدسة، وكانوا يوازنون بينها موازنة دقيقة:

«**قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد، فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدًا، وأنه تعالى جد ربنا، ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدًا، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديدًا وشهبا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا، وأنا لاندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا، وأنا منا الصالحون، ومنا دون ذلك، كنا طرائق قددا**» (الجن: ١ـ١١).

ومن الكون المغيب، الملأ الأعلى، ومن عوالم الملأ الأعلى: سدرة المنتهى، والعرش، والكرسي، واللوح المحفوظ، والبيت المعمور.. وغيرها مما لا يعلمه إلا الله.

«**ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون**» (ص: ٦٩).

«**والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى،**

ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى » (النجم : ١ ــ ٧) .

واجب المنهج :

وهكذا تناول القرآن الكريم هذا الكون غير المرئي بإيجاز بليغ ، دون تعرض لحقائقه ، وإن كان قد تعرض فقط لبعض خواصه . فلم يذكر ــ مثلاً ــ كيف خلق الله الملائكة ، ولم يذكر شيئاً عن أصل الروح ، ولا عن هياكل الملأ الأعلى .

وواجب الباحثين أن يتأدبوا بأدب القرآن ، وأن يقفوا من حد ما جاء به ، ولا يتركوا العقل يسبح فيها : « **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤولاً** » (الإسراء : ٣٦) .

إن القرآن لم يتناول هذا الجانب المغيب من الكون بالتفصيل ، لأن القرآن جاء للفائدة ، ولا فائدة تعود على البشر من الخوض في هذا العالم ، إننا نتخاطب بلغتنا ، وبحسب ما نعرف ، وما نفهم ، واللغة عندنا لا تتناول إلا ما يقع في دائرة المتكلمين بها حساً ومعنى . فاللغة تصور جوانب هذا العالم المغيب وتفصيلاته ؟! إن الفيض في هذه النواحي لن يوصل إلى شيء سوى الفرقة والجدل !

والخلاصة أن على منهج التربية في التصور الإسلامي أن يوطد كل صلاة الوحدة وعلاقات الترابط بين الإنسان والكون والحياة . « فالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، خلق الكون والإنسان والحياة في انسجام كامل ، فالكون صديق للإنسان إذا عرف نواميسه (عن طريق التعلم والمعرفة) . وفى عناصر الكون ما يناسب استمرار الحياة ما شاء الله لها أن تستمر. إذا عرف الإنسان ذلك وتعلم كيف ، يكيف بيئته لتناسب هذه الحياة . فبين الكون والإنسان والحياة صداقة طبيعية ، وانسجام أصيل ، وليس عراك مستمر وصراع مخيف »(١٩) .

---

(١٩) اسحق أحمد فرحان : التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ، ص١٨ .

حقيقة الإنسان في التصور الإسلامي

الإنســان :

الإنسان جزء من الكون ، وهو مخلوق من طين الأرض ، وفيه نفخة علوية من روح الله ، فالإنسان في التصور الإسلامي هو هذان العنصران المختلفان ، مترابطين ممتزجين في كيان كلي واحد :

« وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (الحجر: ٢٨، ٢٩) .

وهو كائن من كائنات الملأ الأعلى ، لأن إنسانيته لم تتكون ولم تتشكل إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه . فقد نشأ في الملأ الأعلى .. ثم هبط على الأرض اختيارًا : **« قلنا اهبطوا منها جميعًا ، فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »** (البقرة : ٣٨) .

وقد عقدت له الخلافة فى الأرض ليعمرها و يرقيها وفق منهج الله : **« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة »** (البقرة: ٣٠) .

وهو معان من الله على القيام بحق الملائكة ، فالكون كله مسخر له :

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه » (الجاثية : ١٣) .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات ، وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان: ٣٠) .

وهو أكرم خلق الله على الله :

« ولقد كرمنا بني آدم وحلمناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً » (الإسراء: ٧٠) .

ولأن الإنسان كريم على الله ، ومعقودة له خلافة الأرض ، فهو محسوب حسابه في تصميم الكون قبل أن يكون : **« وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارًا وسبلاً لعلكم تهتدون »** (النحل: ١٥) .. **« ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم »** (الحج: ٦٥) .

« إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض **لآيات لقوم يعقلون »** (البقرة : ١٦٤) .

« إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون، فالق الإصباح وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » (الأنعام : ٩٥ــ٩٧) .

والإنسان مزود بخصائص الخلافة . وأولى هذه الخصائص : الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة . وهو مجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها ، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب ، والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته .. وهو مستعد للتعامل مع الكون كله بمن فيه وما فيه . فهو يتعامل مع ربه ، وهو يتعامل مع مخلوقات الملأ الأعلى من الملائكة ، و يتعامل مع الجن والشياطين ، و يتعامل مع نفسه ومع استعداداته وطاقاته ، ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية .. يتعامل مع كل هذا على عهد الله وشرطه .

« والإنسان ــ كما أسلفنا ــ يكون في أرفع مقاماته ، وفي خير حالاته ، حين يحقق مقام العبودية لله ، إذ إنه ــ في هذه الحالة ــ يكون في أقوم حالات فطرته ، وأحسن حالات كماله ، وأصدق حالات وجوده »(٢٠) .

والبشر جميعاً من أصل واحد : **« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء »** (النساء : ١) .

ولقد خلق الله البشر أمماً ، وقبائل ، وشعوباً ، ليتعارفوا ، و يتعاونوا ،

---

(٢٠) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، بيروت ، دار الشروق ، الطبعة الشرعية السابعة ، ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ، ص ٤٨ .

لا ليتنافروا و يتناحروا «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» (الحجرات: ١٣).

والكون مصمم على قاعدة الزوجية، التي هي خاصية كونية وحيوية وعلى قاعدة التكامل بين الزوجين، لا التماثل، وهذه كذلك خاصية كونية وحيوية.

والعقل الإنساني هو مناط التكليف، وهو شرف الإنسان وامتيازه، وقدرة الإنسان على التفكير والاختيار، هي التي أهلته لهذا الاستخلاف، ولحمل مسؤولية تنفيذ منهج الله في الأرض، فالعقل هو مناط التكليف والمسؤولية.

والعقيدة هي رابطة التجمع الإنساني الرئيسية في نظر الإسلام، وليس الجنس، ولا القوم، ولا اللغة، ولا الأرض، ولا اللون، ولا الطبقة الاجتماعية أو المصالح السياسية أو الاقتصادية. وذلك لأن العقبدة مرتبطة بحرية الإنسان واختياره وإرادته، أما روابط القوم، والأرض أو اللحم، والدم، والطين، فلا إرادة للإنسان فيها. فالإنسان ليس حرًا في اختيار بلده أو أهله وقومه، ولكنه حر تمامًا في اختيار عقيدته وفكرته ومنهجه.

الحرية الإنسانية:

والإنسان حر لأنه مسؤول، فالحرية والمسؤولية وجهان لعملة واحدة، فالحرية تستلزم المسؤولية، والمسؤولية تتطلب الحرية.

وحرية الإنسان ليست حقًا من حقوقه، يمكن أن يمنح له أو يمنع عنه، وإنما هي فطرة في طبيعته، وجزء من إنسانيته، بها يصير إنسانًا مسؤولاً، وبدونها يهبط إلى درجات أدنى بكثير من الحيوان. فهو حر حتى في العقيدة التي يؤمن بها: «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**» (الكهف: ٢٩). «**كل امرئ بما كسب رهين**» (الطور: ٢١). (**ولا تزر وازرة وزر أخرى**» (**فاطر: ١٨**).

وقد عبر سيدنا عمربن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ عن فطرة الحرية في

الطبيعة الإنسانية ، عندما قال لولد عمرو بن العاص : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟ ! » .

إن الحرية هى من أثمن ما جاء به الإسلام ، فالتوحيد قرين التحرير ، وشهادة «لا إله إلا الله» ، هي إعلان عن ميلاد الإنسان الحر في هذا الكون الذي يسجد لله وحده ، ويخشى الله وحده . ومن هذا المنطلق فإن الاستبداد يصبح قرين الشرك ، لأنه يحيل الناس عبيدًا لآلهة من البشر ، و يدفعهم إلى السجود لغير الله !

وشعور الإنسان بألوهية الله ، و بوجود الله الواحد الأحد ، هو شعور فطري ، مستقر فى أساس تكوينه ، فالإنسان في تكوينه نفخة من روح الله ، وعلاقته بخالقه ، هي علاقة المخلوق بخالقه الرحمن الرحيم ، وهي علاقة لا يستطيع أي مخلوق دفعها أو الحياد عنها »[٢١] .

فشعور الإنسان بوجود الله خالقه ، هو قانون من قوانين وجوده الروحي ، وضرورة من ضروراته التى لا يستطيع أن يتخلى عنها . فحاجة الإنسان إلى الإيمان بالله كحاجته إلى التنفس ، وإلى الطعام والشراب ، والراحة ، فإذا كانت حاجاته هذه قانون من قوانين وجوده المادي . فإن إيمانه بالله الخالق ، الرحمن ، الرحيم ، هو قانون من قوانين وجوده الروحي ، وضرورة من ضروراته .

إذن ، فشعور الإنسان بوجود الله فطرة في الطبيعة الإنسانية : « **فأقم وجهك للدين حنيفًا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (الروم : ٣٠) .

فالإيمان بالله ، والشعور بوجود الله ، فطرة مستكنة في الطبيعة الإنسانية ، أصلها الروح التي هي جزء في كل تكوينه ، وهي شيء من روح الله .

ولذلك لا غرابة أن تجد الإنسان يلجأ إلى الله حين ييأس من كل الأسباب الظاهرة ، وحين يمسه الضر ، وحين ييأس من حوله وقوته ، ومن

---

(٢١) حسن البنا ، مرجع سابق ، ص٤٨ .

حول الناس وقوتهم. فهذا اللجوء هو هتاف تهتف به الفطرة الإنسانية من جوانب نفسه أن يلجأ إلى الله:

« وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » (الإسراء: ٦٧).

« حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » (يونس: ٢٢).

والإنسان مستخلف من قبل الله في الأرض على عهد الله وشرطه، لذلك فالإنسان قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض وليس عاملاً سلبيًا في نظامها. والإسلام يمد الإنسان بدوافع الحركة الإيجابية، إذ يعلمه أن قدر الله ينفذ فيه وفي الأرض من حوله عن طريق حركته هو ذاته:

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد: ١١). **« ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »** (الأنفال: ٥٣).

وأنه «يرتقي حتى يصبح قدرًا من قدر الله، يحقق مشيئة الله ــ من خلال حركته الذاتية ــ في نفسه وفيمن حوله وفيما حوله. وفي هذه الحالة تتجلى على يديه مظاهر من قدرة الله ــ سبحانه ــ وليست هذه وقفًا على معجزات الرسل. إنما هي درجة يرتقي إليها المسلم، ويتهيأ بها لحياة الجنة.. وما يظهر من خوارق التحول في النفس أو في الحياة الإنسانية العامة منشؤه هو هذا الارتقاء، أو هذه الصلاحية لتقمص قدر الله» (٢٢).

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (الأعراف: ٩٦).

---

(٢٢) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص٣٦٧.

الحياة في التصور الإسلامي

الحيـــاة:

والحياة في التصور الإسلامي دنيا وآخرة، شهود وغياب. والحياة الدنيا هي مجموع أنشطة الكائنات والطاقات التي خلقها الله خلال أعمارها الزمنية وعمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها إنما يكون باستثمار ما أودعه الله في الكائنات من طاقات استثمارًا صالحًا وتوجيه ألوان النشاط البشري لإستخدام تلك الطاقات بالرفق واللطف وفق منهج الله. وبذلك يتحقق التناسق والتكامل بين أنشطة الكائنات من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد في أعمارها الزمنية، من أجل إعمار الحياة.

وفيما يلي فقرات كتبها الشهيد سيد قطب عن الحياة في التصور الإسلامي:

الحياة ليست إلهًا! ليست قوة مدبرة فى ذاتها تنشأ وتنشىء وفق إرادتها المستقلة! كذلك هي ليست تلقائية. وجدت مصادفة وتمضى خبط عشواء! إنما هي خليقة أنشأها الله ــ سبحانه ــ بقدر. وتمضي كذلك وفق قدر. وهي مودعة خصائصها الذاتية التي تفرقها من الموات. أعطاها هذه الخصائص الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. والذي يخرج الحي من الميت. ويخرج الميت من الحي. والذي يتوفى الأنفس حين موتها. والذي خلق الموت والحياة والذي يبدأ الخلق ثم يعيده.

كذلك الطبيعة ليست إلهًا. وليست هي التي خلقت الحياة. كما أنها ليست هي التي خلقت نفسها! إنما الله ــ سبحانه ــ هو خالق كل شيء. هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. هو الذي خلق الطبيعة وجعلها مناسبة لظهور الحياة، وهيأ الأرض لهذا النوع من الحياة الذي نشأ فيها. وجعل التناسق بين الطبيعة والحياة. وبين الأحياء بعضها وبعض، هو الأصل والقاعدة. وأودع في الأرض أقواتها وأرزاقها، وجعل الكون كله مسخرًا ومساعدًا. وهذه الموافقات التي لا تحصى ما كانت لتجيء مصادفة، وما كانت لتنشئها قوة غير واعية مريدة مدبرة حكيمة.

«كما أن الحياة صادرة عن إرادة واحدة ــ إرادة الله سبحانه ــ حادثة بقدره، كذلك هي ناشئة ــ بتلك الإرادة وهذا القدر ــ من أصل واحد.. الماء.. «وجعلنا من الماء كل شيء حي».. «والله خلق كل دابة من ماء» أما كيف تسلسلت، وهل تطورت أم نشأت هكذا أنواعاً، فهو مما لم يتعرض القرآن له.. فمجال الدراسة فيه مفتوح. غير أن افتراضات العلم ذاته توحي بأنها لم تكن على النحو الذي يجزم به دارون، ذلك أن تعاون عالم النبات وعالم الحيوان، ووجودهما في وقت واحد يبدو ضرورياً لبقاء الحياة، على الأقل في مثل جو الأرض الذي نعرفه بتركيباته التي نعرفها. حيث يقوم النبات بفصل الأكسجين من ثاني أكسد الكربون، وأخذ الكربون ليتغذى به، وإطلاق الأكسوجين ليتنفس به الحيوان. ثم يقوم الحيوان برد هذا الجميل فيتنفس الأكسوجين و يطلق ثاني أكسيد الكربون. ولو انفرد أحدهما لهلك بعد استنفاد غذائه الذي لا يتجدد إلا بوجود الآخر.. ذلك إلى أن اكتشاف الجينات التي تكمن فيها الصفات الوراثية يضع عقبة أمام افتراض دارون تطور الأنواع. ثم ظاهرة تفرد الإنسان التي تواجه النظرية الآن بأكبر اعتراض!

هذه الحياة مقدرة أقواتها في بنية الأرض، وفي نظام الكون.. وهي حقيقة واقعة تكذب كل ادعاء آخر، وتسخر من نظريات المتشائمين والداعين إلى تحديد النسل (نظرية مالتوس..) **فهناك موافقات في كيان الحياة ذاته، وفي الظروف المحيطة بها،** تجعل حقيقة تقدير **الأقوات أوسع من مادة الأقوات ذاتها.. وتمد محيطها إلى ما في بنية الكون من طاقات ومدخرات،** وما في تكامل الأحياء من عمليات تعويض، وما في ضوابط الحياة من ضمانات للتناسق بين بعض الأحياء وبعض، و بين الأحياء جميعاً والأقوات المدخرة.

كل ما يدب على الأرض من أحياء، أمم ذات تنظيمات كأمة الإنسان. فهي كلها من أصل واحد، وهي كلها تخضع لتنظيمات.. والخالق المدبر هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وهو الذي أودع هذه الأمم فطرتها وضوابطها. والإنسان هو قمة هذه الدواب، وهي مسخرة له: الحيوان والطير

والنحل .. ولكنه إنما يرتفع إلى مقامه هذا باحتفاظه بسبب امتيازه . وهو إتصال روحه بمصدر امتيازه . فإذا فارق هذا المقام صار أضل من الحيوان !

كما تقوم الحياة على قاعدة النشأة من الماء ، وعلى قاعدة الأمة المنظمة ، كذلك تقوم على قاعدة الزوجية ، التى لا تشمل الأحياء فقط ، ولكنها كذلك تشمل الأشياء : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .. وتقدير الزوجية هذا ، واشتمال الحياة على الضمانات التي تجددها وتكثرها عن طريق هذه الزوجية ، وتوافر الجنسين في كل نوع بالنسبة الكافية للبقاء والتكاثر دليل على القصد والتدبير، يكرر القرآن ذكره . وهو دليل لا يواجهه المنكرون إلا بالتمحل أو الهروب في كل حال .

« الأحياء مكفولون برزق الله : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » .. محاطون بعلم الله ورعايته : « و يعلم مستقرها ومستودعها » .. خاضعة لسلطان الله : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .

« الأحياء كلهم في عبادة .. « ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » .

« هنالك عوالم أخرى من الأحياء ــ غير دواب الأرض التي تشمل الإنسان ــ وهي عوالم أخبرنا الله بوجودها ، وليس لنا من مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبر الله عنها ، هي الملائكة والجن . ومن الجن الشياطين ، وإبليس على رأس الشياطين ! والإنسان يتعامل مع هذين الخلقين . و يتأثر بهما في الدنيا والآخرة .

وقد وصف الله هذين الخلقين ، وأخبرنا عن طبيعتها . وعن علاقتها بالإنسان . بالقدر الذي يهدي الإنسان إلى منهج التعامل القويم مع كليهما . وجعل الإيمان بالملائكة قاعدة من قواعد الإيمان لما للملائكة من علاقة بالوحي والرسالة . وإخبار الله عن وجود الجن والشياطين يجعل الاعتقاد بوجود هذا الخلق على النحو الذي وصفه الله به ضرورة إعتقادية . وإنكار وجودهم هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة وتكذيب للقرآن .. معناه الكفر طبعاً !

والملائكة والجن . والشياطين وإبليس ، من عالم الغيب الذي أخبرنا الله به . فالتصديق بها ينشأ ابتداء من هذا الإخبار. أما إنكار المنكرين لهذين الخلقين فعجيب! إذ أنه إلام يستند؟ هل يستند مثلاً إلى أن علم الناس بوسائلهم وأدواتهم لايتمكن من رؤية هذين الخلقين أو إلى معرفتها؟ ولكن! هل وصل علمهم إلى معرفة كل حي أو كل موجود في العالم المشهود؟ وما الذي يعلمونه من الأحياء والأشياء؟ أم أنه يستند إلى عدم استطاعة الإدراك البشرى أن يتصور كيف يتعامل الإنسان مع هذين الخلقين ، وكيف يؤثران فيه وهما ليسا من جنسه؟ ولكن! هل وصل هذا الإدراك إلى معرفة كيف يؤثر إنسان على إنسان في التنويم المغناطيسي؟ أو في التخاطر عن بعد . وهي حقائق واقعة؟ .. فلماذا فقط يستبعد تأثير ملك أو شيطان في إنسان؟ ألأنه قول الله ، وهم هاربون من الله؟!(٢٣) .

والخلاصة أن كل شأن من شؤون الحياة ينبغي أن يسير وفق منهج الله . فسياسة الاقتصاد والمال ، ونظام السياسة ، ونظام الأسرة ، وجميع ألوان التشريعات المدنية والإدارية ، يجب أن تسير وفق هذا المنهج حتى تكون الحياة إسلامية حقـًا . إن الضابط الوحيد للحركة البشرية ، والتطورات الحيوية ، حتى لاتمضي شاردة على غير هدى ، هو أن تسير كل هذه الأوضاع وفق الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة . ومع إعتبار الخبرات الإنسانية المتغيرة تبعـًا لمقتضيات الزمان والمكان وحاجات الناس : « **وأن هذا صراطي مستقيمـًا فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** » (الأنعام: ١٥٣) .

ويسود الحياة الإنسانية ــ عمومـًا ــ نظامان متكاملان : نظام اجتماعي ونظام معرفي ، ولاتكتمل الحياة في التصور الإسلامي إلا ببيان طبيعة المجتمع الإسلامي ، وطبيعة المعرفة في التصور الإسلامي . فالنظام الاجتماعي في الإسلام يقوم على : العلم ، والعدل ، والحرية ، والشورى ، والإحسان في العمل . والعلم والمعرفة ــ في هذا النظام ــ من عند الله . فالعلم هو معرفة قوانين الله في الكون ، والسير في اتساق مع هذه القوانين . والعلم والمعرفة

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص٣٥٧ــ٣٥٩ .

والخبرة والملاحظة والتجربة هي وسائل الإنسان في التعليم والتربية. والعلم والمعرفة لابد لها من تطبيق عملي في واقع الأرض، وإلا انهدمت قيمة العلم، وانهدرت قيمة المعرفة. وكل واحد من هذين النظامين يحتاج إلى بحث خاص (٢٤).

وتختلف غاية الحياة لدى الناس باختلاف مناهجهم فيها «فالذين كفروا زينت لهم الحياة الدنيا، بأعراضها الزهيدة واهتماماتها الصغيرة. زينت لهم فوقفوا عندها لا يتجاوزونها ولا يمدون بأبصارهم إلى شيء وراءها، ولا يعرفون قيماً أخرى غير قيمتها. والذي يقف عند حدود هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن يسموا تصوره إلى تلك الاهتمامات الرفيعة التي يحفل بها المؤمن، ويمد إليها بصره في آفاقها البعيدة.. إن المؤمن قد يحتقر أعراض الحياة كلها، لا لأنه أصغر منها همة، أو أضعف منها طاقة، ولا لأنه سلبي لا ينمي الحياة ولا يرقيها.. ولكن لأنه ينظر إليها من موقع قيامه بالخلافة فيها وإنشائه للعمران والحضارة، وعنايته بالنماء والإكثار ــ فينشد من حياته ما هو أكبر من هذه الأعراض وأغلى. ينشد منها أن يقر في الأرض منهجاً، وأن يقود البشرية إلى ما هو أرفع وأكمل، وأن يركز راية الله فوق هامات الأرض والناس، ليتطلع إليها البشر في مكانها الرفيع، وليمدوا بأبصارهم وراء الواقع الزهيد المحدود، الذي يحيا له من لم يهبه الإيمان رفعة الهدف، وضخامة الاهتمام، وشمول النظرة» (٢٥).

هذا هو الإنسان الذي يجب على منهج التربية بناءه وإعداده، للقيام بواجبات الخلافة في الأرض.

حقائق عن التصور الإسلامي:

وهناك جملة حقائق ينبغي أن تكون واضحة ومفهومة:

أولاً: أن في النفس الإنسانية وفي الحياة الإنسانية أصولاً ثابتة ــ على

---

(٢٤) انظر للمؤلف في بيان طبيعة المجتمع الإسلامي، وطبيعة المعرفة في الإسلام في كتاب «منهج التربية في التصور الإسلامي». بيروت، دار النهضة العربية، ١٤١١هـ ــ ١٩٩٠م.

(٢٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٢١٤.

الرغم من جميع الأوضاع والأشكال المتغيرة ــ إنما ينل التجدد والنمو والتغير والتعقد والتركب «أشكال» الحياة، لا أصول الفطرة الإنسانية ولا سنن الحياة البشرية.. ومن ثم فإن التصور الإسلامي الثابت المقومات. يقابل الفطرة الإنسانية الثابتة المقومات، والحياة الإنسانية الثابتة السنن.. كما أنه يقابل كذلك ــ بما فيه من طبيعة الحركة وأجهزتها من نمو وتجدد وتغير وتعقد في الحياة البشرية.

ثانيـًا: أن التصور الإسلامي ــ بما أنه رباني ــ جاء كاملاً. وشاملاً، ومطابقـًا للفطرة البشرية السوية. وملبيـًا لحاجتها الحقيقية، غير مقيدة في هذه التلبية بمكان ولا زمان، ولا بمستوى معين من النمو، ولا بمرحلة خاصة من مراحل هذا النمو، لأن صانعه العليم الحكيم، يعلم من أمر البشرية كله يوم أنزله، ما يعلمه من أمرها كله اليوم وغدًا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. يعلم طبيعتها كلها، ويعلم كيف يمكن أن تلبي هذه الحاجات المتجددة في ظل هذا المنهج الذي لم يوقته ــ سبحانه ــ بوقت. ولم يخصصه بمكان.

ثالثـًا: أن هذا التصور إنما جاء ابتداء لينشئ «واقعـًا» جديدًا للبشرية غير الواقع الجاهلي الذي وجده. ثم لينمي الواقع الجديد الذي جاء لينشئه في حركة دائبة. ولكن حول محور ثابت وفي إطار كذلك ثابت، يسع نمو الحياة الإنسانية شكلاً وحجمـًا. كمـًا وكيفـًا. ولكن يحفظها في الوقت نفسه من نكسات الجاهلية في كل صورها وأشكالها.. وموقفه من التصورات الجاهلية ومن الواقع الجاهلي ــ المتمثل في عبودية البشر للبشر ــ هو موقف لا يتبدل: رفض الإعتراف بشرعية وجوده أصلاً، لأنه صادر من غير الجهة التي تملك شرعـًا حق إصداره ــ وهي جهة الألوهية الواحدة التي لا يشاركها في خصائصها أحد من العبيد ــ ولأنه مهدر لشهادة أن لا إله إلا الله التي يقوم الإسلام عليها، ويستهدف إقرارها في حياة الناس بعد إقرارها في ضمائرهم.

رابعـًا: أن هذا التصور يتضمن في تركيبه الذاتي وسيلته الخاصة لمواجهة الأحوال المتغيرة والأوضاع المتجددة في الحياة البشرية النامية.. فنمو الحياة

وتجدد أشكالها هو أحد النواميس الإلهية . وهو ــ من ثم ــ مرعي في التصور الذي قرره . والمنهج الذي وضعه الله ــ خالق الحياة ــ لتنمو وتتجدد في إطاره الثابت ، مشدودة إلى محوره الثابت ، فلا تعارض بين ثبات مقومات هذا التصور ــ التي تقابل ثبات الفطرة الإنسانية وثبات السنن الحيوية ــ وبين تجدد أوضاع الحياة في إطاره . لأنه بطبيعة تكوينه مهيأ لهذه الحركة ! متضمن وسيلته الذاتية التي يواجه بها هذه الحركة ، وهو في هذا لا يستعير من الواقع الجاهلي ، ولا من التصور الجاهلي ــ لا فكرة ولا وسيلة ــ إنما هو يعمل بمنهجه الخاص ، وبوسيلته الخاصة في حرص تام على إبعاد المؤثرات الجاهلية إبعادًا تامًا :

« **إن الدين عند الله الإسلام** » (آل عمران : ١٩) .

« **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه** » (آل عمران : ٨٥) .

« **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** » (المائدة : ٤٤) .

« **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** » (النساء : ٦٥) .

« **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** » (النساء : ٥٩) .

والآية الأولى تحدد المنهج الذي يرضاه الله ويعتبره هو « الدين » . والدين هو المنهج الذي تسير عليه جماعة من الناس . فإن كانت حياتهم تسير على منهج الله فهم في دين الله . وإن كانت حياتهم تسير على منهج من صنع غير الله فهم على غير دين الله(٢٦) .

والآية الثانية تقرر أن الله لا يقبل من أحد دينًا ــ أي منهج حياة ــ إلا الإسلام . فمن ابتغى غير منهج الله منهجًا ، وغير نظام الله نظامًا ، وغير شريعة الله شريعة ، فلن يقبل منه هذا الدين ، ولن يكون بحال في دين الله .

---

(٢٦) يراجع الفصلان الأول والثاني من كتاب « المستقبل لهذا الدين » لسيد قطب . كما يراجع فصل « الدين » في كتاب « المصطلحات الأربعة في القرآن » للسيد أبي الأعلى المودودي .

والآية الثالثة والآية الرابعة مدلولها هو مقتضى مدلول الآيتين الأولى والثانية. فمن لم يحكم بما أنزل الله كافر. ومن لم يرضى حكم الله لم يدخل في الإيمان. لأن حكم الله هو دينه وهو منهجه الذي ارتضاه للحياة، وهو «الإسلام» الذي لا يقبل الله من الناس «دينًا» سواه.

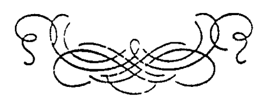
وهذه الآيات الأربع تتضمن الأصول الثابتة، الكفيلة بإبقاء الحياة البشرية دائمًا في إطار المنهج الإلهي وحول محوره، أما الآية الخامسة فتتضمن وسيلة هذا المنهج الذاتية لمواجهة نمو الحياة وتجددها، و بروز الحاجات الجديدة المتجددة أبدًا:

«فردوه إلى الله والرسول»..

أي فردوه إلى أصول التصور الإسلامي الذي جاءكم من عند الله، وإلى أصول الشريعة الإلهية التي جاءكم بها رسول الله.. لا إلى أي أصل آخر، ولا إلى أي تصور آخر، ولا إلى أي ميزان آخر.. فرد أي شأن من شئون الحياة الإنسانية إلى غير الله والرسول هو إقامة إلٰه آخر، له حق الحاكمية، وله حق تعبيد الناس لما يشرعه لهم فى أمور الحياة المتجددة بغير إذن الله:

«أم لهم شركاء[27] شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟» (الشورى: ٢١).

وهنا، وفي هذه الحدود البينة، يجيء دور الاجتهاد لاستنباط الأحكام الفرعية وتطبيقاتها المتجددة في واقع الحياة البشرية.



(٢٧) شركاء: أي آلهة شركاء لله!

الفصل الثاني

مفهوما التربية والمنهج في التصور الإسلامي

مفهوم التربية فى التصور الإسلامى

الإسلام هو شريعة إلهية، ونظام مشتق منها لحكم الحياة. والإنسان في هذا النظام هو خليفة الله في الأرض، فهو مستخلف من الله فيها للعبادة. ومقتضي العبادة أن يساهم الإنسان ــ بإيجابية وفاعلية ــ في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. ولكي يقوم الإنسان بواجبات الخلافة على نحو رباني وإيجابي وواقعي، فلابد من تربيته تربية إسلامية.

التربية عملية متشعبة، ذات نظم وأساليب متكاملة، تنبع من التصور الإسلامي لحقائق الألوهية والكون والإنسان والحياة، وتهدف إلى إعداد الإنسان للقيام بحق الخلافة عن الله في الأرض، عن طريق إيصاله إلى درجة كماله التي هيأه الله لها.

وبالرجوع إلى الأصول اللغوية نجد أن لكلمة «التربية» أصولاً لغوية ثلاثة:

أ ــ ربا يَرْبُو بمعني زاد ونما: «**وما أوتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس، فلا يربوا عند الله**» (الروم: ٣٩).

ب ــ ربا يُربي، بمعني: نشأ وترعرع.

ج ــ ربَّ يَربُّ: بمعني أصلحه وتولي أمره، وساسه وقام على رعايته.

وقد اشتق بعض المفكرين المسلمين من هذه الأصول اللغوية تعريفاً اصطلاحياً للتربية قال الإمام البيضاوي في تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، الربُّ: في الأصل بمعني التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً. ثم وصف به تعالى للمبالغة.

وفي كتاب مفردات الراغب الأصفهاني: «الربُّ: في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام».

وقد استنبط الأستاذ الباني(1) من هذه الأصول اللغوية، ومما قاله البيضاوي والأصفهاني، أن التربية تتكون من مجموعة من العناصر، أهمها ما يلي:

١ـ **المحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها.**

٢ـ **تنمية مواهبه واستعداداته كلها، وهي كثيرة ومتنوعة.**

٣ـ **إيصال كل مربىٍّ إلى درجة كماله الخاصة التي هيأه الله لها.**

٤ـ توجيه هذه الفطرة وهذه المواهب للعمل في الأرض والقيام بحق الخلافة فيها عن الله.

٥ـ التدرج في هذه العملية، وهو ما يشير إليه البيضاوى بقوله: «شيئاً فشيئاً» والراغب الأصفهاني بقوله: «حالاً فحالاً..».

ثم يستخلص من هذه العناصر مجموعة من النتائج الأساسية في فهم عملية التربية أهمها ما يأتي:

النتيجة الأولي: أن التربية عملية هادفة، فهي تهدف إلى تحقيق أغراض الإسلام ومقاصده في المتعلم، وفي مجتمعه.

النتيجة الثانية: أن المربي الحق علي الإطلاق هو الله الخالق، خالق **الفطرة، وواهب المواهب، الذي سن سنناً وقوانين لنموها، وتدرجها، وتفاعلها.. وشرع شرعاً لتحقيق كمالها وصلاحها وسعادتها.**

النتيجة الثالثة: أن عمل المربي تال وتابع لخلق الله وإيجاده، كما أنه تابع لمنهج الله وشريعته(2).

النتيجة الرابعة: أن «التربية» هي حيثية إيماننا بالله، فنحن آمنا بالله

---

(1) عبد الرحمن الباني: مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص٧ـ١٤.

(2) عبد الرحمن النحلاوى: أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص١٢ـ١٤.

معبودًا لأننا آمنا به ربًا . فنحن نوجه الحمد لصاحب النعمة قائلين « الحمد لله » ، وحيثية ذلك أنه « رب العالمين » .

النتيجة الخامسة: أن التربية تقتضي خططًا متدرجة ، تسير فيها الأعمال التربوية ، وفق منهج منظم صاعد ، ينتقل مع الناشيء من طور إلى طور ، ومن مرحلة إلى أخرى ، حتي يصل كل إلى درجة كماله الخاصة به .

التربية الإسلامية علم ، وفن ، وصناعة :

وإذا كانت التربية الإسلامية هي إيصال المربىّ إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها ، عن طريق مراعاة فطرته ، وتنمية مواهبه وقدراته وطاقاته ــ بطرق متدرجة ــ وتوجيهها للعمل في إعمار الحياة على عهد الله وشرطه ، فإن ذلك كله يتم وفق وسائل وغايات العلم ، والفن ، والصناعة حسب مفهوم كل منها في التصور الإسلامي .

فالتربية علم « إخبار » ، من حيث إنها إخبار عن الحقائق الكلية ، والمعايير والقيم الإلٰهية الثابتة ، التي يتلقاها الإنسان ، فيؤمن بها إيمان تسليم ويتكيف معها . وهي علم إخبار ــ أيضًا ــ من حيث إنها معرفة بقوانين الله في الكون التي تم اكتشافها في الزمن الماضي .

والتربية علم « إنشاء » ، من حيث إنها محاولة للكشف عن « الحقيقة » ، ومعرفة للقوانين والسنن التي خلق الله الكون عليها ، والتي يكتشفها الإنسان من آن لآخر ، كلما ارتقي في سلم المعرفة . فالتربية هنا علم من علوم البحث ، ومناهج البحث التي تعين الإنسان على الاكتشاف والاختراع والإبداع . ويدخل فيها « العلم » في العلوم الإنسانية ، التي تكتسب فيها المعرفة عن طريق الملاحظة ، والتفكير ، وإدراك العلاقات . ويدخل فيها « العلم » في العلوم الطبيعية والكونية ، الذي يهدف إلى الوصول إلى معرفة آيات الله وقوانينه بالملاحظة والتجربة والتطبيق من أجل إعمار الحياة وفق منهج الله .

إذن فالعلم وسيلة من وسائل التربية الإسلامية . وإذا كان كذلك ، فإن من السفاهة المزرية جعل العلم أو العقل مصدرًا للمعرفة ، فالمصدر هو الله . ومن الجهل القول بأن العلم قد انتصر على الطبيعة أو قهرها ، فالعلم ما هو إلا الوصول إلى القانون الطبيعي الذي طبع الله الكون عليه . والطبيعة ما خلقها الله لتقهر، بل لتكون في خدمة الإنسان . والإنسان لا يستطيع أن يقهرها ، ولكنه يستطيع أن يتلطف معها بالتعرف على قوانين الله فيها ، واستثمار ذلك في عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله . وهذه مهمة التربية الإسلامية . والتربية الإسلامية « فن » . وعندما نتكلم عن التربية كفن ، فإننا لسنا بإزاء مجرد الإخبار عن واقع ، أو الكشف عن حقيقة ، ولسنا بإزاء مجرد تحقيق أهداف عملية لسد حاجتنا الإنسانية ، وإنما نحن أيضـًا أمام تحقيق أهداف تتصل بتحسين الحياة وترقيتها وتجميلها كما يقول الإمام الشاطبي . فالفن تعبير موح هادف عن تجارب إنسانية منبثقة عن التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة . فهو ذو أثر يمتع أنفسنا ، ويغني حياتنا ، ويزيح عنا آثار البلادة والرتابة التي تصيبنا نتيجة اتصالنا الدائم بقبضة الطين التي هي جزء من طبيعتنا .

والتربية الإسلامية كفن ، تهدف إلى الوصول بالمربىَّ إلى درجة الإتقان أو الإحسان في الأداء . فقيمة كل إنسان بما يحسن . والوصول بالإنسان إلى درجة أن يكون محسنـًا ، هو أعلى درجات الفن ، وأرقى ما يهدف إليه العمل التربوي .

والتربية « صناعة » . فقد عقد ابن خلدون فصلاً في « مقدمته » بعنوان : « فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » . فالتربية عملية ذات قواعد وأصول ، وهي تسير وفق منهج لتحقيق أهداف معينة . والتربية ـ بهذا المعنى ـ مهنة أو صناعة تهدف إلى إقدار المتعلم على عمل معين ، بحيث يتناوله بالتغيير والتعديل والتطوير والمعالجة ليصير على شكل معين .

وبهذا المعني تكلم ابن خلدون عن التعليم باعتباره صناعة أو مهنة ذات مهمة عملية لها أصولها وقواعدها المحكمة التي تتحقق بمراعاتها أهداف المجتمع الإسلامي ومقاصده .

بين التربية والتعليم :

إذن «فالتربية» ــ كما سبق أن رأينا ــ هي عملية تهدف إلى إيصال المربىَّ إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها . فهي تشمل جميع جوانب النفس الإنسانية، أي جميع جوانب الشخصية الإنسانية . وهي تستعين بوسائل منها «التعليم» . فالتعليم وسيلة للتربية ، ومدلوله أضيق من مدلولها ، لأنه مرتبط بموضوع معين .

و«التعليم» قد يهدف إلى تحصيل المعرفة ، أو التدريب على مهارة ، أو حفظ نص من النصوص الأدبية ، أو قانون من القوانين الرياضية أو الطبيعية ، و«التربية» تتخذ كل ذلك وسيلة لتربية المشاعر، وتنمية الإحساس بالذوق والجمال في الكون الذي صنعه الله ، وتربية الضمير والوجدان ، وتربية الإرادة الحرة الواعية ، والقيم الإنسانية ، والقيم الخلقية النابعة منها ، وأنماط السلوك التابعة لها .

ومع ذلك «فإن كل عمل تعليمي جيد، لابد أن يكون له هدف تربوي .. أي أن التعليم المثالي إنما هو تربية ، ولكنه ــ في الإصطلاح ــ يظل مرتبطاً «بموضوع ما» ، في حين أن التربية تتناول النفس الإنسانية أو الشخصية الإنسانية كلها .

إذن فالتربية والتعليم ليسا متعارضين ولا منفصلين ، بل هما متآزران ومتكاملان . و يترتب على هذه العلاقة تطبيقات كثيرة في تخطيط المناهج وتطويرها ، وفي إعداد الكتب وتصميم الوسائل ، واختيار طرق ووسائل التدريس والتقويم ، وممارسة العمل التربوى عموماً مع الناشئين في البيت والمدرسة والمجتمع .

«التربية الإسلامية» و«التربية الدينية» في التصور الإسلامي:

أولاً: في التصور الإسلامي لا فرق بين مفهوم «الإسلام» ومفهوم «الدين» . وليس هذا رأياً أبديه ، أو فتوى أفتي بها . وليس لأحد أن يفتي في هذا الأمر. فهذا الأمر أخطر في ميزان الله من أن يفتي فيه بالرأي ، لأن الأمر كله لله . قال تعالى : «إن الدين عند الله الإسلام»

(آل عمران: ١٩)، «**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**» (آل عمران: ٨٥)، وقال جل شأنه: «**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**» (المائدة: ٣). إذن فالدين هو الإسلام، والإسلام هو الدين، وإضافة لفظ «التربية» إلى أي منهما لابد أن يعني نفس الشيء.

ثانياً: إن الإسلام عقيدة وشريعة. أي أنه نظام عقدي ينبثق عنه نظام اجتماعي. «والدين» كما عرفه كل من المودودي وسيد قطب هو المنهج العام الذي يحكم حركة الحياة. قال تعالى: «**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**» (المائدة: ٤٨). فلا داعي إذن للقول أن مفهوم «الإسلام» أوسع من مفهوم «الدين»، لأن هذا هو المفهوم الغربي لكلمة «الدين»، حيث إنهم قد حاصروا «الدين» هناك ـ منذ الفصام النكد بين الكنيسة والحياة ـ وجعلوه علاقة خاصة، وجانباً قصيا شخصياً من جوانب الحياة الإنسانية. أما في التصور الإسلامي، فالدين هو المنهج العام الذي يحكم حركة الحياة.. كل الحياة.

ثالثاً: يترتب على كل ما سبق أن «التربية الدينية» ليست مجرد شعبة واحدة من «التربية الإسلامية» بل إنها هي بعينها. فالتربية الدينية هي التربية الإسلامية، والتربية الإسلامية هي التربية الدينية. غاية ما في الأمر أن هناك علوماً للتربية الإسلامية تسمي «العلوم الشرعية» وهي علوم القرآن والسنة، (علوم المقاصد) وهناك علوم تتصل بجوانب الحياة المتجددة، وكل المعارف الإنسانية المتطورة (علوم الوسائل) وهذه العلوم الثانية من علوم التربية الإسلامية، طالما أننا نصمم مناهجها، وندرسها انطلاقاً من النصوص الشرعية وتوجيهاتها في القرآن والسنة، وطالما أننا نهدف من ورائها إلى إعداد الإنسان المسلم، العابد لله، القائم بمقتضى الخلافة عن الله في الأرض.

وبناء على ما سبق فإنه إذا كانت العلوم الشرعية إجبارية وفرض عين في كل الأوقات، فإن العلوم الكونية الأخرى كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والإنسانيات وعلوم المهن والحرف والصناعات يكون تعلمها

إجبارياً وفرض عين عندما يكون المجتمع في حاجة إليها ــ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ فإذا اكتفي منها المجتمع كان تعلمها اختيارياً وفرض كفاية. وهي في كل الأحوال داخل إطار التربية الإسلامية، لأن ثمرتها الكشف عن آيات الله في الكون وفي النفس: «**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق**».

والصناعات الحربية وعلومها من أهم ألوان التربية الإسلامية، لأنها وسيلة الجهاد في سبيل الله وعدته. فالجهاد في سبيل الله هو أفضل ما تطوع به الإنسان. والرسول ــ صلي الله عليه وسلم ــ يقول: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به، والممد له**».

ويسوي ابن تيمية بين المربين المختصين بعلوم الحرب والجهاد، وبين المختصين بعلوم القرآن، فيقول: «وتعلم هذه الصناعات هو من الأعمال الصالحة لمن يبتغي بذلك وجه الله عز وجل. فمن علم غيره ذلك كان شريكه في كل جهاد يجاهد به لا ينقص أحدهما من الأجر شيئاً، كالذى يقرأ القرآن و يعلم العلم».

الأصالة والمعاصرة في التربية الإسلامية:

لاشك أن مفهوم الأصالة والمعاصرة يختلف من منظومة حضارية إلى منظومة حضارية أخرى. ففي المعاجم العربية نجد أن الأصالة في الرأى: جودته، والأصالة في الأسلوب: ابتكاره، والأصالة في النسب: عراقته. وأصل الشيء: أساسه الذي يقوم عليه، ومنشؤه الذي ينبت منه وأصول العلم: قواعده التي تبنى عليها أحكامه. وبناء على ذلك فإن الأصالة في التربية اعتمادها على القواعد والأسس الأصيلة التي تقوم عليها، والأرض التي نبتت فيها. وأصالة التربية في الإسلام تعني أن يجيء التفكير التربوي بجميع ألوانه وأنماطه متسقاً مع التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة. فهذه هي القواعد التي تقيم نظمها وتهدي إلي مثلها، وطرائقها وأساليبها.

أما المعاصرة في التربية ، فهي تحقيق التربية لأهدافها في زمن معين وفق معطيات الزمان والمكان وحاجات الناس في ذلك الزمن ، ومع استخدام ما توفر لها من الوسائل والأدوات في ذلك الزمن .

وتتخذ النظم التربوية من هذا المفهوم للمعاصرة أحد الموقفين التاليين : فبعض النظم التربوية تجعل من « المعاصرة » معيارًا أساسيًا ، فتتغير تغيرًا كبيرًا من وقت لآخر وفقًا لمعطيات الزمان والمكان وحاجات الناس . وقد يجرف هذا التغير ضمن ما يجرف بعض القواعد والأصول الأساسية في فلسفتها .. فهذه النظم تصنع فلسفتها ، وتقوم بتغييرها .

وهناك من النظم التربوية ما يتغير مع العصر انطلاقًا من قواعده الأصيلة ، وأسسه الثابتة وذلك كالتربية الإسلامية التي تعمل على بناء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم في كل زمن انطلاقًا من قواعدها الربانية ، مع استخدام كل ما هو مفيد ونافع من معطيات الإنسان والزمان والمكان . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « الحكمة ضالة المؤمن ، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها » .

والخلاصة هي أن الأصالة في كل منظومة حضارية ، هي أن يجيء العمل نابعًا من الأصول الفلسفية والبنى التحية لكل منها . والمعاصرة هي الأخذ بالوسائل والأساليب وطرائق التفكير والعمل التي تحقق أهداف التربية في كل منظومة ، وفقًا لمعطيات الزمان والمكان والإنسان .

وإذا كانت التربية الإسلامية ثابتة فيما يتصل بأهدافها العامة كبناء الإنسان العابد لله ، القادر على القيام بحق الخلافة في الأرض وفق منهج الله ، وإذا كانت ثابتة أيضًا فيما يتصل بمحتواها الخاص بالحقائق والمعايير والقيم الإلـٰهية الثابتة ، فإنها متغيرة فيما يتصل بالخبرات والمعارف والمهارات الإنسانية المتطورة ، حيث إنها تعد الإنسان الذي يعمر الحياة ويرقيها في كل زمان وفي كل مكان وفق ظروف الزمان والمكان ومعطيات الإنسان .

تعتمد مناهج التربية كلها تقريباً ـــ ماعدا منهج التربية الإسلامية ـــ على نظريات تربوية. والنظريات التربوية تعتمد بدورها على فلسفات عامة. فما الفلسفة، وما النظرية، وما العلاقة بينهما، وهل يحتاج منهج التربية الإسلامية إلى فلسفة أو إلى نظرية؟ هذا ما نجيب عنه فيما يلي:

مفهوم الفلسفة:

الفلسفة مصطلح يوناني الأصل مكون من كلمتين: «فيلو»، ومعناها حب، «صوفيا»، ومعناها الحكمة. فالفلسفة إذن هي حب الحكمة أو محبة الحكمة. وبالرغم من جاذبية هذا المفهوم للوهلة الأولى، إلا أن الفلاسفة والمفكرين قد اختلفوا بل وتناقضوا في ماذا تعني محبة الحكمة؟ وما زال هذا الاختلاف والتناقض قائماً منذ أن نشأ هذا المصطلح إلى يومنا هذا. فالبعض يرى أن الفلسفة هي العلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، والبعض يرى أنها مفهوم جامع للكون بما فيه من جماد وحيوان ونبات، وثالث يرى أنها علم دراسة الغيبيات وما وراء الطبيعة، ورابع يرى أنها علم دراسة السلوك الإنساني في علاقته بالكون من حوله... الخ. وقد ظل مفهوم الفلسفة يحمل طابعاً فردياً، وبقيت مذاهبها مجرد وجهات نظر تحمل شارة أصحابها إلى يومنا هذا(٣).

أما فلسفة التربية الغربية «فهي باختصار الجانب التطبيقي للفلسفة العامة في ميدان التربية. ومن وجهة النظر هذه يصبح من وظائف الفيلسوف التربوي تطبيق مبادئ الفلسفة المثالية أو الواقعية أو البراجماتية أو ما إلى ذلك على التربية. ولذا فإن من ينظر في أسماء مدارس فلسفة التربية يجد أنها ذات المدارس الفكرية التي يتحدث عنها الفلاسفة. فهناك فلسفة

---

(٣) توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ط ٥، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٧م ص٣٨.
انظر عبدالرحمن صالح عبدالله، مرجع سابق، ص٣٢.

مثالية عامة، وهناك أيضًا فلسفة مثالية في التربية »[٤]، وهناك فلسفة براجماتية عامة، وهناك فلسفة براجماتية في التربية ... وهكذا.

مفهوم النظرية التربوية:

النظرية بمعناها العام الذى يشيع في الغرب، هي تفسير بعض الأمور في الماضي أو الحاضر أو المستقبل استنادًا إلى اعتقاد ثابت أو مفترض.

والنظرية العلمية بمعناها الدقيق، هي محاولة لتفسير عدد من الفروض أو قوانين الطبيعة من خلال وضعها في إطار عقلي عام[٥].

والنظرية التربوية هي مجموع المبادئ المترابطة التي توجه العملية التربوية وتحكم الممارسات التعليمية.

فإذا كانت النظرية العلمية وصفية وتفسيرية فى الأساس، فإن وظيفة النظرية التربوية ــ كما يقول «بول هيرست» ــ هي التشخيص والعلاج. وإذا كانت النظرية العلمية تحاول وصف وتفسير ما هو قائم، فإن النظرية التربوية تصف وتقرر ما ينبغي عمله مع الناشئة، وتوجه وترشد الممارسات التربوية.

ومن هذا المنطلق فإن بول هيرست وغيره «من المربين الغربيين الذين يرفضون بناء النظرية التربوية على النمط العلمي يدعون إلى إعطاء الفلسفة دورًا رئيسيًا في بناء النظرية التربوية، لأنها تمدهم بالقيم التى يريدون غرسها في الناشئة»[٦].

اعتماد النظرية على الفلسفة:

يوضح «مور» العلاقة بين الفلسفة والنظرية التربوية، فيشبه العملية التربوية بالبناء المكون من عدة طوابق. ففي الطابق الأول توجد مختلف

---

(٤) انظر: عبد الرحمن صالح عبد الله في المرجع السابق، ص٣٨.
(٥) ت. مور: النظرية التربوية، ترجمة محمد أحمد الصادق وعبدالمجيد عبدالتواب شيحة، ط ١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦م ص١٧.
(٦) عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق، ص٧٤.

الأنشطة والممارسات التعليمية ، كالتدريس ، والتدريب والتخطيط ، وكل الممارسات التي يشترك فيها المدرسون والطلاب والإدارة المدرسية . وفي الطابق الثاني توجد النظرية التربوية التي يمكن اعتبارها مجموعة من المبادىء والإرشادات التي تهدف إلى توجيه وإرشاد الممارسات التعليمية الجارية في الطابق الأول . وفى الطابق الثالث أو الأعلى ، توجد فلسفة التربية التي تعنى بكل مايدور فى الطابقين الموجودين أسفل منها . إنها تحلل المفاهيم مثل التربية ، والتعليم ، والخبرة ، وتحدد لها المعاني التي تدخل في بناء النظرية في الطابق الثاني ، وتوجه الممارسات التربوية في الطابق الأول (٧) .

إذن فكل مناهج التربية الغربية تعتمد على نظريات ترشدها وتوجه سلوكها ، وكل نظرية تعتمد على فلسفة أو أكثر تستمد مبادئها ومفاهيمها منها .

فهل منهج التربية الإسلامية في حاجة إلى نظرية توجهه ، وإلى فلسفة يستمد منها مفاهيمه ومبادئه ؟ .

محاولات بناء « فلسفة » للتربية الإسلامية :

إنه ليس من الضرورى أن نواجه الفلسفات الغربية المختلفة والمتناقضة بـ« فلسفة إسلامية » ، وليس من الضرورى أن نواجه نظرياتهم التي لا يجمع شتاتها جامع بـ« نظريات إسلامية » . ليس من الضرورى كل هذا لسبب بسيط هو أن لنا شريعة ربانية كاملة شاملة تتمثل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . أما هم ، فقد قطعوا كل صلاتهم بالدين ، فلم يبق لهم غير « الفلسفة » و« النظرية » . فما يجوز عليهم لا يجوز علينا .

فالشريعة الإسلامية تكفي المسلمين شر اللجوء إلى الفلسفات التي هي من وضع البشر . فالفلسفات يلجأ إليها غير المسلمين لعدم وجود شريعة ـ عاملة ـ لديهم . وفى ذلك يقول ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم

(٧) ت . مور: النظرية التربوية ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

وفضله » إن أهل الفلسفة قد قسموا العلوم إلى علم أعلى، وعلم أوسط، وعلم أسفل، وجعلوا الفلسفة هي العلم الأعلى؛ لأن هذا العلم عندهم يرتبط بأمور قد أغنت عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق المنزلة بالصدق، وما صح عن الأنبياء صلوات الله عليهم »[٨].

ولكن يبدو أن بعضنا ــ ممن يفكرون في الإسلام وهم داخل المنظومة الغربية ــ يصر على أن تكون لنا « فلسفة » مثل ما لهم « فلسفة »، وأن تكون لنا « نظرية » مثل ما لهم « نظرية ».

فبالرغم من أننا نعرف أن الجيل الأول لهذه الأمة، وهو جيل فذ فريد... جيل قرآني، لم يعرف إلا القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يعرف أية « فلسفة » ولم يتربى من خلال أية « نظرية » وبالرغم من ذلك قاد الأمة التي سادت الدنيا.. الأمة التي وصفها الله بقوله: « **كنتم خير أمة أخرجت للناس** »، وبالرغم من أننا نقرأ: « **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** » (الإسراء: ٩).

ونقرأ قول الرسول الكريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ: « **لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنتي** » (رواه الستة).

أقول بالرغم من هذا الوضوح، وبالرغم من صفاء النبع المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إلا أنه كان هناك إصرار على بناء « فلسفة إسلامية » على نمط الفلسفة الإغريقية، فجاء القرن الرابع والخامس الهجرى بمفكرين مسلمين يطلق عليهم وصف « فلاسفة الإسلام » وجاءت فلسفتهم ظلاً للفلسفة الإغريقية، غريبة عن روح الإسلام وتصوره الأصيل.

فما الذي حدث؟ اختلطت الينابيع الغريبة بالنبع الأصيل الصافي. اختلطت فلسفة الإغريق ومنطقهم، وأساطير الفرس وتصوراتهم، وإسرائيليات اليهود، ولاهوت النصارى، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات. واختلط كل هذا بتفسير القرآن، وعلم الكلام، كما اختلط

---

(٨) ابن عبد البر النمري القرطبي: جامع بيان العلم وفضله، جـ ٢، ص ٣٧ــ٣٨.

بالفقه والأصول أيضاً. وتخرج على ذلك النبع المشوب ـ كما يقول الأستاذ سيد قطب ـ سائر الأجيال بعد ذلك(٩).

وازدادت الشوائب في النبع الصافي على مر القرون بفعل عوامل العداء من الخارج والداخل، حتى جاء محمد علي في مصر مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي. فبدأ في عزل ذلك النبع الأصيل رويدًا رويدًا عن طريق الحياة، لتحل محله التيارات الغربية المتربصة... وها نحن الآن عندما نقول إننا لكي نسترجع هويتنا الأصيلة، لابد لنا من العودة إلى النبع الصافي مرة أخرى.. إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نجد من يرد علينا قائلاً: وحتى عندما نعود إلى كتاب الله، فنحن في حاجة إلى أن نستنبط منه «فلسفة»!

لا «فلسفة» ولا «نظرية»، بل التصور الإسلامي:

يقول الأستاذ سيد قطب: «يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدًا أنه ـ كما أنه في ذاته دين رباني ـ فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك، متواف مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل»(١٠). قال تعالى في شأن الطريقة التي نزل بها القرآن في مكة: «**وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**» (الإسراء:١٠٦). فالفرق والمكث مقصودان حتى يتم ترجمة كل آية، أو مجموعة من الآيات إلى واقع حي متحرك، لا إلى صورة «نظرية». فمن الخطأ والخطر أن تتبلور الشريعة في صورة «نظرية» مجردة للدراسة الذهنية، والمعرفة الثقافية(١١).

هذه هي طبيعة هذا الدين، يجب أن نعرفها، وألا نحاول تغييرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية. فهو بهذه الطبيعة

(٩) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، بيروت، دار الشروق، الطبعة التاسعة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م. ص٢٠. انظر أيضاً خصائص التصور الإسلامي، ص١٠ ـ ١٣.

(١٠) سيد قطب: معالم في الطريق، بيروت، دار الشروق، الطبعة العاشرة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص٤٧.

(١١) المرجع السابق، ص ٤٤.

صنع الأمة المسلمة أول مرة، وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة.

« يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معـًا. في تحويل العقيدة الإسلامية التي تحب أن تتمثل في واقع نام حي متحرك، وفي تجمع عضوي حركي.. تحويلها عن طبيعتها هذه إلى نظرية للدراسة والمعرفة الثقافية، لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بـ« نظرية إسلامية »(١٢).

لقد جاء الإسلام ليغير واقع العقيدة السائد، وواقع الحياة السائد، وواقع منهج التفكير السائد. ومن ثم لا يجوز للمسلمين أن يفعلوا العكس بأن يحولوا منهج الإسلام في التفكير والعمل ليتناسب مع المناهج الوضعية السائدة في صورة « فلسفية »، أو « نظرية ».

إن تخلف المسلمين إنما حدث عندما حادوا عن طريق الله، بسبب اختلاط المصادر والينابيع، فقد خلطوا النبع الرباني الأصيل الصافي بالينابيع البشرية الزائفة. وأخضعوا الإسلام لمناهج التفكير البشرية أو كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية. وكأنما نريد أن نرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد »(١٣).

إن الفصل بين أصول التربية الإسلامية وبين الممارسة الواقعية لهذه الأصول هو تمييع لهذه الأصول.. ربما يصل إلى حد التضييع لها.

إن منهج التربية الإسلامية ــ كمنهج الإسلام العام ــ « يكره بطبيعته ــ أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته، ويجب أن يتمثل في أناسي، وفي تنظيم حي، وفي حركة واقعية... وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك »(١٤).

---

(١٢) المرجع السابق، ص ٤٥.
(١٣) المرجع السابق، ص ٤٨.
(١٤) المرجع السابق، ص ٤٦.

ويتمثل الخطر في أن « النظرية » التي قد تشتق من الأصول لتقوم عليها الممارسة، سوف تعمل كطبقة عازلة بين الأصول والممارسة القائمة عليها، أي أنها سوف تعكر النبع الصافي أولاً، ثم تخلطه بينابيع أخرى رويدا رويدا.. ثم تقضي عليه.

يقول ابن القيم في « أعلام الموقعين » تحت عنوان: لا حاجة للناس بعد رسول الله ودينه، لأنه جاءهم بخير الدنيا والآخرة، ولم يوجههم الله إلى أحد سواه، كما وفق الله أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، « واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم. وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟ (١٥) وقد قال تعالى: **« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »** (العنكبوت: ٥١).

« ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (النحل: ٨٩).

والخلاصة أننا لابد من أن نرجع إلي النبع الصافي الخالص، النبع المضمون الذي لم تشبه شائبة، النبع الذي منه تربت وترعرعت الأمة الإسلامية الأولي. نرجع إليه لنستمد منه تصورنا لمنهج التربية الإسلامية، والمناهج السياسية والاقتصاد والاجتماع، وكل الجوانب الأخرى للحياة. نرجع إليه مباشرة... دون وساطة من « فلسفة » أو « نظرية ».

هذه هي طبيعة الإسلام في التفكير والعمل. « وهو بهذه الطبيعة، صنع الأمة الإسلامية أول مرة ــ كما يقول الأستاذ سيد قطب ــ وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة »: (١٦):

---

(١٥) ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، الجزء الرابع، ص٣٧٦.
(١٦) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ٤٥.

«وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه، ولا تتبع السبل فتفرق بكم عن سبيله .. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» (الأنعام: ١٥٣). هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله .. وليس وراءه إلا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله.

مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي وخصائصه

في الجزء السابق من هذا الفصل استعرضنا التصور الإسلامي لمفهوم التربية، وبينا أن التربية الإسلامية تنبثق من التصور الإسلامي، ولا تحتاج إلى فلسفة أو إلى نظرية، من خارج إطار هذا التصور. والآن، ما مفهوم منهج التربية المنبثق من هذا التصور؟ وما الفرق بينه وبين المناهج الأخرى؟ وما الخصائص والمقومات التي يقوم عليها هذا المنهج وتميزه عن كل المناهج الأخرى؟ هذا ما نجيب عنه فيما يلي:

مفهومات عامة للمنهج:

يعرف ابن منظور المنهج بأنه الطريق البين الواضح. «ومنهج الطريق وضحه[17] والمنهاج كالمنهج، وفي التنزيل: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا» (المائدة: ٤٨). والمنهاج ـ كما يقول ابن كثير ـ: هو «الطريق الواضح السهل، والسنن والطرائق»[18].

لكن تعريف المنهج بأنه الطريق السهل الواضح، وأنه السنن والطرائق، هو تعريف عام يصلح لكل جوانب الحياة ومجالاتها: كالزراعة والصناعة والتجارة والتربية وغير ذلك. ومن هنا كان لابد من السير به خطوة نحو التخصص .. نحو التربية.

ويرى معظم المتخصصين في المناهج وطرائق التدريس، أن المنهج التربوي هو «مجموع الخبرات والأنشطة التي تقدمها المدرسة تحت إشرافها

---

(١٧) ابن منظور: لسان العرب، الجزء الخامس، ص ٤٥٥٤.
(١٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الثاني، دار الأندلس، ١٤٠٠هـ، ص ٥٨٨.

للتلاميذ بقصد احتكاكهم بها وتفاعلهم معها، ومن نتائج هذا الاحتكاك والتفاعل يحدث تعلم أو تعديل في سلوكهم، و يؤدي هذا إلي تحقيق النمو الشامل المتكامل الذي هو الهدف الأسمي للتربية»(١٩).

و يلاحظ على هذا التعريف أمران: الأول، أنه واسع بحيث يشمل الخبرات التربوية المختلفة، والتي عن طريقها ينتقل محتوى المنهج، كما يشمل أيضاً المواد المستخدمة، والطرق والوسائل المتبعة في عملية التدريس والتقوم. الأمر الثاني، أن مفهوم المنهج هنا يشمل البرنامج والبرنامج يشمل المقررات والمقررات تشمل الوحدات، والوحدة قد تتكون من درس أو عدة دروس.

وهذا المفهوم للمنهج، رغم اتساعه وشموله، إلا أنه لا يصلح أن يكون مفهوماً لمنهج التربية الإسلامية لأنه مفهوم عام، يصل الناس بالأرض، و يؤهلهم للاستمتاع بها، وعمارتها، والكفاح من أجلها دون نظر إلى خالق الأرض والسماء، ومبدع الكون ودون ربط للإنسان بمصدر وجوده، وسبب وجوده، وغاية وجوده، ولهذا، فإن هذا المفهوم يصلح لكل المجتمعات ولكل الثقافات، فكل مجتمع يستطيع أن يصمم منهجاً ـ وفقاً لهذا المفهوم ـ يناسب حياته علي الأرض.

والأمر مختلف تماماً بالنسبة لمنهج التربية الإسلامية، فهمة هذا المنهج الأولي والأخيرة: هي أن تصل الإنسان بالله، ليصلح حاله على الأرض و ينظم حياته فيها، فيعمرها و يرقيها عن طريق الكد والكدح المستمرين، وعن طريق التحليل فيها والتركيب، واستغلال كل الطاقات والإمكانات المدركة التي منحه الله إياها. وبحيث يفعل كل هذا بينما يكون متجهاً ـ في نفس الوقت ـ بعقله وقلبه إلى الله. وهنا يرتبط ملكوت الأرض بملكوت السماء.

---

(١٩) محمد عزت عبد الموجود وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص ١١.

مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي:

ومن هذا تظهر الحاجة إلي تعريف مناسب لهذا المنهج الرباني الفريد. وهنا يمكن القول ـ اجتهادًا ـ: إن منهج التربية في التصور الإسلامي هو: «نظام متكامل من الحقائق والمعايير والقيم الإلٰهية الثابتة، والخبرات والمعارف والمهارات الإنسانية المتغيرة التي تقدمها مؤسسة تربوية إسلامية إلي المتعلمين فيها بقصد إيصالهم إلى مرتبة الكمال التي هيأهم الله لها وبذلك يكونون قادرين علي القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية، وفاعلية، في عمارتها وترقية الحياة علي ظهرها، وفق منهج الله».

الخصائص التي يتميز بها هذا المفهوم:

وهذا المفهوم لمنهج التربية الإسلامية، يتميز ويتفرد بمجموعة من الخصائص أهمها ما يلي:

الخاصية الأولي: هي أن منهج التربية الإسلامية «نظام»، أي أنه بمفهومه، وخصائصه، وأسس بنائه، وعناصره، يكون كلاً متكاملاً، كل جزء فيه يتأثر ببقية الأجزاء ويؤثر فيها.

الخاصية الثانية: هي أن هذا المنهج بما أنه نابع من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة. فهو منهج «رباني» في مصدره وغايته، لذلك فهو يزود الإنسان «المتعلم» بمجموعة الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة التي توجه عمله وإسهامه، بل وتعينه علي عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. إن من الضرورى أن يفهم المتعلم الحقائق الثابتة كحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة. فبدون فهم هذه الحقائق، لايستطيع الإنسان أن يفهم حقيقة وجوده، ولا دوره في هذا الوجود فضلاً عن مصدر وجوده وغاية وجوده(٢٠).

---

(٢٠) انظر تفصيل خصائص منهج التربية في «منهج التربية في التصور الإسلامي» للمؤلف.

وخاصية الربانية التي تميز منهج التربية الإسلامية ، هي نفس خاصية منهج الإسلام العام . والمراد بالربانية هنا ــ كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي ــ أمران :

١ ــ ربانية المصدر والمنبع .
٢ ــ ربانية الوجهة والغاية (٢١) .

ربانية المصدر والمنبع:

إن أولى مقومات النظام الإسلامي أنه نظام رباني « صادر من الله للإنسان ، وليس من صنع الإنسان تتلقاه الكينونة الإنسانية بجملتها من بارئها. وليست الكينونة الإنسانية هي التي تنشئه، كما تنشئ التصور الوثني ، أو التصور الفلسفي ــ على اختلاف ما بينهما ــ وعمل الإنسان فيه هو تلقيه وإدراكه والتكيف به ، وتطبيق مقتضياته في الحياة البشرية » (٢٢) .

وإذا كان الفكر البشري لم يُنشئ هذا النظام، فإن له وجودًا قويًا في مجاله للعمل فيه ، « بيد أن عمله هو التلقي والإدراك والتكيف والتطبيق في واقع الحياة.. غير أن القاعدة المنهجية الصحيحة للتلقي .. هي هذه .. أنه ليس للفكر البشري أن يتلقى هذا التصور بمقررات سابقة ، يستمدها من أي مصدر آخر، أو يستمدها من مقولاته هو نفسه ، ثم يحاكم إليها هذا التصور، ويزنه بموازينها .. إنما هو يتلقى موازينه ومقرراته من هذا التصور ذاته ، ويتكيف به ، ويستقيم على منهجه » (٢٣) .

« وفي الوقت ذاته يعتبر الفكر البشرى ــ في ميزان هذا التصور ــ أداة قيمة وعظيمة ، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوماته ــ مستقاة من مصدرها الإلهي ــ وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع . دون

(٢١) يوسف القرضاوى الخصائص العامة للإسلام ، مكتبة وهبة ، ط٢ ، ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م ، ص٧ .
(٢٢) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، مرجع سابق ، ص٤١ .
(٢٣) المرجع السابق ، ص٤٥ .

زيادة عليها من خارجها، ودون نقص كذلك منها.. ويبذل منهج التربية الإسلامية لهذه الأداة العظيمة من الرعاية والعناية، لتقويمها وتسديدها وابتعاثها للعمل في كل ميدان هي مهيأة له.. الشيء الكثير»[٢٤].

إذن فوظيفة الإنسان في هذا النظام هي التلقي في حدود طبيعته الإنسانية، وفي حدود وظيفته، «فالإنسان محكوم أولاً بطبيعته: طبيعة أنه مخلوق حادث، ليس أزلياً ولا أبدياً، ومن ثم فإن إدراكه لابد أن يكون محدودًا بما تحده طبيعته، ثم هو محدود بوظيفته، وظيفة الخلافة في الأرض لتحقيق معني العبودية لله فيها.. ومن ثم فقد وهب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة بلا نقص ولا زيادة.

ربانية الوجهة والغاية:

أما ربانية الوجهة والغاية فنعني بها ــ كما يقول الدكتور القرضاوى ــ: «إن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالي، والحصول على مرضاته، فهذه غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهي أمله وسعيه وكدحه في الحياة»[٢٥]، «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه» (الانشقاق: ٦). «وإن إلى ربك المنتهى» (النجم: ٤٢).

وبناء على ما سبق، فإنه يترتب على كون المنهج الإسلامي منهج رباني المصدر والغاية أنه منهج «كامل متكامل، لا يقبل تنمية ولا تكميلاً، كما أنه لا يقبل «قطع غيار» من خارجه، فهو من صنعة الله، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة غيره»[٢٦].

ووظيفة الإنسان في هذا المنهج هو تلقيه، وإدراكه، والاجتهاد في إطاره، والتكيف به، وتطبيق مقتضياته في واقع الحياة.

---

(٢٤) المرجع السابق، ص٤٧.
(٢٥) يوسف القرضاوى، مرجع سابق، ص٧.
(٢٦) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص٤١.

الربانية والمنهج:

إن منهج التربية الإسلامية كمنهج الإسلام العام، منهج رباني في مصدره وغايته، ولذلك فهو يزود الإنسان (المتعلم) بمجموعة الحقائق والمعايير والقيم الثابتة التي توجه عمله واسهامه، بل وتعينه على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، فلامراء أنه من الضروري لكل إنسان (متعلم) أن يفهم الحقائق الثابتة في الوجود: كحقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان... إلى آخره. فبدون فهم هذه الحقائق، لا يستطيع الإنسان أن يفهم حقيقة وجوده، ولا دوره في هذا الوجود، فضلاً عن مصدر وجوده وغايته.

ومن الضرورى أن يعرف الإنسان (المتعلم) المعايير التي يرجع إليها في إقامة الجوانب المختلفة لحياته علي الأرض. فالشورى معيار للسياسة ونظام الحكم، والعدالة الاجتماعية معيار للنظام الاقتصادي، والتراحم، والتكافل، والتعاون معايير لتنظيم الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس... وهكذا.

ومن الضرورى أن يفهم الإنسان (المتعلم) مجموعة القيم الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة الإنسانية الراقية. فالعلم واستخدامه في إعمار الحياة وترقيتها (لا في خرابها)، الإحسان والدقة في العمل، والنظام، والنظافة، وصدق الشعور في القول والعمل.. كل هذه قيم ثابتة، لا يمكن أن يقوم نظام إنساني راق — في أي وقت — علي وجه الأرض بدونها.

الخاصية الثالثة هي أن منهج التربية الإسلامية يعتمد أيضاً على الخبرة، فالخبرة هي أساس بناء الإنسان وبناء المجتمع. والخبرة تقتضي من الفرد نشاطاً ووعياً بأبعاد الموقف التعليمي وتفاعلا معه. والأصل هنا أن منهج التربية الإسلامية لا يعتمد في طرائقه وأساليبه على التلقين وحده، بل يهتم — بالدرجة الأولى — بالتعليم عن طريق الأحداث، وعن طريق الممارسة والعمل، وعن طريق الثواب والعقاب، وعن طريق القصة، وضرب المثل، والتجسيم والتصوير، والقدوة، وعن طريق استخدام قوى الإدراك الظاهرة والباطنة التي زود الله بها الإنسان، ليستخدمها إلى أقصى

طاقتها: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (النحل: ٧٨).. «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب» (ص: ٢٩).

إن مجرد المعرفة النظرية، أو العلم الذي لا يؤثر في سلوك الإنسان وفي واقع حياته لا قيمة لها ولا يعتد بها منهج التربية الإسلامية. إن ذلك العلم خاو من المعنى ولا قيمة له. وتلك المعرفة سطحية ولا قيمة لها أيضاً، لأنها مجرد معرفة «ذهنية»، لا تؤثر في سلوك الإنسان، ولا تغير شيئاً في واقع حياته على الأرض. إن تلك المعرفة وذلك العلم ـ باختصار ـ لا يعينان الإنسان على أداء وظيفته في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. ولهذا كان الوحي قاطعاً في رده على المنافقين: إن كنتم مؤمنين حقاً فآية إيمانكم هي تنفيذ أحكام الله: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما» (النساء: ٦٥).

الخاصية الرابعة: أن منهج التربية الإسلامية منهج إيجابي وواقعي فهو ـ كما يقول الأستاذ سيد قطب ـ: «تصميم» لواقع مطلوب إنشاؤه على أساس هذا التصميم[٢٧]. والإنسان وحده ـ باعتباره خليفة الله في الأرض ـ هو المكلف بتنفيذ هذا «التصميم» عن طريق التفكر والتدبر والنشاط بإيجابية وفاعلية.

وينسحب هذا ـ بطبيعة الحال ـ على الموقف التعليمي. فمجرد تقديم الخبرة للمتعلم لا يعني ـ بالضرورة ـ تعلمه، وتعديل سلوكه في الاتجاه المطلوب. فلابد من أن ينشط الإنسان ويتفاعل مع الموقف التعليمي، بل ولابد وأن ينعكس أثر هذا الموقف على سلوك الإنسان بعد ذلك.

والأصل في هذا، أن التعلم لا يحدث وفقاً لتصور منهج التربية الإسلامية إلا بعد تمام خمس خطوات مرتبة ترتيباً سببياً، وهي كما يلي:

١ ـ وجود دافع فطري، أو حاجة من حاجات النفس الغريزية أو المكتسبة.

---

(٢٧) المرجع السابق، ص١٥٧.

٢ــ أن يحس الإنسان أو المتعلم بحاجته إلى الإستعانة بهدي الله. وهذه هي الخطوة الثانية.

٣ــ فإذا كان لديه هذا الاتجاه وهذا الشعور، فإنه يدفعه إلى النشاط وإلى التفاعل والأخذ بكل الأسباب الممكنة من أجل التعرف على تفاصيل ما يريد أن يعرف وهذه هي الخطوة الثالثة.

٤ــ ونتيجة للاستعانة بهدى الله، والأخذ بكل الأسباب الممكنة، يحدث الفهم، ويتم التحصيل، وهذه هي الخطوة الرابعة.

٥ــ فإذا جاء السلوك بعد ذلك موافقاً للفهم والإدراك والتحصيل ــ وهذه هي الخطوة الخامسة ــ فإن التعلم يكون قد تم.

إن هذا ما نراه واضحاً جلياً فى قوله تعالى: «واتقوا الله ويعلمكم الله» (البقرة: ٢٨٢).. «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون» (البقرة: ١ــ٣). وهكذا، فما لم يتكون الشعور والاتجاه، ويتم النشاط، ويحصل الإدراك والفهم، ويتحول ذلك إلى سلوك عملي في واقع الأرض، إذن، فالتعلم لم يقع.

الخاصية الخامسة التي تميز منهج التربية الإسلامية هى خاصية الشمول والتكامل لكل من المتعلم والمنهج. فالمنهج هو الجانب التطبيقي للأصول التربوية. وبذلك فهو ليس غاية فى ذاته، ولكنه وسيلة لتحقيق غاية، وهي تنمية شخصية الإنسان كله وإيصاله إلي درجة كماله التي هيأه الله لها. وهذا يقتضي أن يكون المنهج المعد لهذا الغرض شاملاً متكاملاً في حقائقه وفي خبراته وجميع أوجه مناشطه.

ولا يعني ماسبق أن الجوانب المعرفية والوجدانية والحركية في الخبرة الإنسانية منفصلة عن بعضها، فحقيقة الأمر أن كل فعل حلال يقوم به الإنسان فى الأرض لا يخلو من الجوانب الثلاثة السابقة: فيه جانب الجسم، وجانب العقل، وجانب الوجدان. فالتحدث باللغة مثلاً ــ وهو نشاط حركي ــ يستخدم فيه الإنسان عقله، وينفعل به أيضاً. والرياضة البدنية يبدؤها الإنسان المسلم باسم الله، وينفعل بها، ويستخدم فى أدائه لها عقله

وجسمه ، وكذلك القراءة ، والكتابة ، وإجراء التجارب .. إلى آخره . فكل عامل تتوفر فيه العناصر الثلاثة ، لكن مع الاختلاف فى النسبة .

وتكامل جوانب الخبرة الإنسانية فى منهج التربية الإسلامية يتفق مع فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان . فالوجود كله صادر عن الإرادة المباشرة لله .. « إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون » (يس : ٨٢) . وهذا الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة ، وحدة متكاملة ، كل جزء فيه متناسق ومتكامل مع بقية الأجزاء .. **« وخلق كل شيء فقدره تقديرًا »** (الفرقان : ٢) **« إنا كل شيء خلقناه بقدر »** (القمر : ٤٩) .. **« ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه »** (الحج : ٦٥) .. **« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »** (يس : ٤٠) .. **« الذي خلق سبع سماوات طباقًا . ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر . هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير »** (الملك : ٣ ــ ٤) .

وهكذا ، فتكامل جوانب الخبرة الإنسانية فى منهج التربية الإسلامية يتماشى مع تصور الإسلام لوحدة الوجود وتكامل أجزائه ، لكونه صادرًا عن الإرادة المباشرة للواحد المطلق وهو الله .

وتكامل جوانب الشخصية الإنسانية فى مفهوم منهج التربية الإسلامية يتفق أيضًا مع تصور الإسلام لوحدة الإنسان الفرد ، ووحدة الإنسانية جمعاء . فالإنسان الفرد وحدة متكاملة ، وقواه المختلفة موحدة الاتجاه . فهو ليس جسمًا مستقلاً بذاته عن الروح والعقل . وليس عقلاً منفصلاً لا علاقة له بالجسم والروح ، وليس روحًا هائمة بلا رابط من عقل وجسم . بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء .

ويتفق هذا أيضًا ــ كما يقول الأستاذ سيد قطب ــ مع فكرة الإسلام عن وحدة الإنسانية وتكاملها ، « فلأن الوجود الموحد صادر عن إرادة واحدة ، ولأن الناس جزء من الكون متعاون متناسق مع سائر أجزائه ، ولأن أفراد الإنسان خلايا متعاونة متناسقة فيما بينها . لذلك كان تصور الإسلام أن الإنسانية وحدة تفترق أجزاؤها لتجتمع ، وتختلف لتتسق ، وتذهب شتى

المذاهب لتتعاون في النهاية بعضها مع بعض، كي تصبح صالحة لتتعاون مع الوجود الموحد»[٢٨]: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا**» (الحجرات: ١٣).

إذن، فهناك حكمة من وراء هذا الاختلاف والتجزؤ وهو التعاون والتكامل. وإلا فلو شاء الله لجعل الناس جميعًا أمة واحدة: «**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**» (المائدة: ٤٨).. «**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء، ويهدى من يشاء، ولتسئلن عما كنتم تعملون**» (النحل: ٩٣). وهكذا خلق الله الناس أممًا وشعوبًا مختلفة لا ليتصارعوا ويختلفوا، ولكن ليتعاونوا و يتكاملوا.

ولكن الله لم يأخذ الناس قسرًا إلى هذه الغاية، ولكنه جعل لكل منهم طريقًا ومنهجًا، وخلق لكل منهم استعدادًا، ولكل منهم مشرب. لقد خلق الله الناس باستعدادات متفاوتة، نسخًا غير مكررة ولا معادة. ثم أنزل لهم نواميس الهدى والضلال، تمضي بها مشيئته في الناس، وتركهم يستبقون، وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون[٢٩].

إذن، فالأصل في الوجود الوحدة والتعاون والتناسق في حدود منهج الله وشريعته ومن شذ عن هذه السنة من المؤمنين فليرد إليها بكل وسيلة، لأن سنة الله في الكون أولى بالاتباع من أهواء الأفراد والجماعات: «**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتي تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت، فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين**» (الحجرات: ٩). إن من الأمور الواردة أن تتقاتل طائفتان من المؤمنين، وأن تبغي إحداهما على الأخرى، لكن الكارثة تحل لا محالة إذا غابت الطائفة الثالثة المؤمنة القادرة على إيقاف الباغي، ووضع الحق في نصابه.

---

(٢٨) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٣.
(٢٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، جزء٦ ص٩٠٣، وجزء١٤ ص٢١٩.

وهكذا تتفق وحدة الشخصية الإنسانية، ووحدة تكامل الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية مع الأصل في الإسلام، وهو أنه دين التوحيد، ودين الوحدة والتكامل بين القوى الكونية جميعاً.

الخاصية السادسة أن منهج التربية الإسلامية هو منهج تربية «الإنسان».. الإنسان الصالح الذي يستطيع أن يعيش في كل مكان.. وليس فقط «المواطن» المحصور في حدود المواطنة الضيقة». وتربية الإنسان ليس فيها بالطبع إغفال لتربية المواطن، ولكنها أشمل وأكمل فالحقيقة أنه لا خوف أبدًا على المواطن من الإنسان، ولكن الخوف كل الخوف على الإنسان من المواطن الذي انحصر فكره وانتماؤه وسلوكه داخل الحدود الجغرافية لوطنه.

إننا في أمس الحاجة إلي تنمية النظرة «الإنسانية العالمية الشاملة» في التعليم، وتطوير المفهوم «الإنساني» في التربية. وهذا المفهوم لا تستطيع «فلسفة» أو «أيديولوجية» مرتبطة بمكان وزمان معينين تنميته وتطويره.

إن منهج الإسلام وحده، دون مناهج الأرض كلها، هو الذي يستطيع تحقيق مفهوم «الإنسانية» في نفوس الناشئة. فتحقيق إنسانية الإنسان يتمشى مع إنسانية المنهج الإسلامي وعالميته التي تقررت في القرآن في سورة هي من أوائل السور المكية، وهي سورة التكوير في قوله تعالى: «**إن هو إلا ذكر للعالمين**». وتقررت في خطاب الله ــ سبحانه ــ لنبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ في قوله: «**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**» (الأنبياء: ١٠٧).

لقد جنت الإنسانية ثمار التأكيد على «المواطنة الضيفة» في صورة صراعات دولية، وحروب عالمية وإقليمية، واستعمار واحتلال لأراضي الآخرين، واغتصاب لحقوقهم، وتسخير لجهودهم في خدمة غيرهم، وإذلال لآدميتهم وإنسانيتهم.

إننا نعيش في عصر جديد تماماً، عصر سبقت قوة الإنسان يقظة ضميره، عصر لا يملك الإنسان فيه القدرة على إدارة الصراعات والحروب

العالمية أو الإقليمية، دون أن يمتد خطرها ودمارها إلى ما حولها. نحن – إذن – في عصر نحتاج فيه إلى تنمية وتطوير مفهوم «الإنسانية» بمعناه العالمي الشامل، لا إلى تنمية مفهوم «المواطنة» بمعناه الضيق المحدود بحدود المكان والزمان.

فالوطنية الضيقة، وتربية المواطن المحدود في قيمه وولائه بين حدود دولته أثمر كثيرًا من الشرور التي نعاني منها الآن. فمشكلة الحرب والسلام التي يتوقف عليها مصير البشرية كله، تشتد وطأتها، ويزداد غليانها كل يوم، حتى وصلت إلى مرحلة تنذر بالخطر الحقيقي، وما ذلك إلا لأنها تدار بيد «مواطنين» يريدون تسخير خيرات العلم كله لصالح شخصياتهم أو مواطنيهم على حساب الآخرين.

وحتى بعد أن ظهرت نظرية استحالة الحروب النووية الساحقة الماحقة لكل شيء على وجه الأرض فقد بدأ الصراع يتحول من الحرب والقتال إلى صراع النظم والنماذج الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية. وبمعنى آخر، فالصراع قد تحول من ميادين القتال إلى بيوت الناس، ومدارسهم وعقولهم.

ولا نتجاوز إذا قلنا إنه لا عاصم لنا اليوم من الانقياد إلى أحد أطراف الصراع أو السير ذيلاً له، إلا بالتمسك بالمنهج الإسلامي الذي كرم الإنسان، وحفظ له شخصيته المستقلة حين قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يكن أحدكم إمعة، يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا**».

إن الولاء للمواطن والوطنية الضيقة وليس «للإنسان» في كل مكان، هو الذى يعرض «السفينة العالمية» – إذا جاز هذا التشبيه – للخطر. فبعد ثورة الاتصالات وما ترتب عليها من تفجر معرفي أصبحت الكرة الأرضية كسفينة واحدة تتعرض لمخاطر جسيمة في عرض البحر. فيها من يشكو من التخمة، وفيها من يشكو من الجوع إلي حد الهلاك.

فيها من يعانون وفرة الإنتاج، فماذا يصنعون وكيف يختزنون الفائض الهائل من الحبوب واللحوم والزبد والجبن والخضر؟! وفيها المحاصرون الذين يموتون جوعًا، ويرجون فتوى تجيز لهم أكل الميتة ولحوم البشر.

فيها الأغنياء الدائنون الذين يفرضون شروطهم، و يشرعون سياطهم، وفيها الفقراء المدينون الذين يخضعون لكل عمليات الابتزاز والاستغلال والظلم. فيها من يصنع سلاح الدمار و يبيعه ليزداد ثراء، وفيها من يشتري هذا السلاح ليقاتل به حتي الموت.

وهكذا... تحدق الأخطار «بالسفينة العالمية» من كل جانب، بسبب الأنانية، والشره والظلم، والطائفية، والعنصرية، والاستغلال... بسبب الحضور القوي «للمواطن» والغياب المستمر «للإنسان».

إن الإسلام هو المنهج العالمي الوحيد الذى يستطيع أن يحكم نظام الكون. وهو وحده بين كل مناهج الأرض، الذي لا يفرق بين البشر على أساس طبقي أو عنصري أو طائفي، وإنما يتوجه إلى قلوبهم وضمائرهم مباشرة، حيث يكمن «الإنسان»، الجوهر الفذ، الذي تتكون منه الإنسانية وهو بذلك الملجأ الوحيد الباقي لإنقاذ البشرية من الهول الرهيب المحدق بها.

بناء على ما سبق، فإننا ـ فيما أرى ـ لا نحتاج إلي تربية «المواطن الصالح». «فالمواطن الصالح» عادل، مجد، أمين، متواضع، قانع.. في موطنه، لكنه عادة ما يتحول إلى ظالم، مستبد، غاضب، شره... في غير موطنه. وقد رأينا صور ذلك، ومازلنا نراها كل يوم.

وخلاصة القول إن المدرسة الإنسانية في التربية قديمة قدم الإسلام، فبينما كل مناهج الأرض تلتقي ـ كما يقول الأستاذ محمد قطب ـ على أن هدف التربية هو إعداد «المواطن الصالح»، نجد أن الإسلام يسعى لتحقيق هدف أشمل وأعمق وهو إعداد «الإنسان الصالح»، «الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنساني الشامل، الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه، الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو مواطن في هذه البقعة من الأرض أو في ذلك المكان»(٣٠).

---

(٣٠) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الأول، بيروت، دار الشروق، الطبعة السادسة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ص ١٣.

والإنسان الذي يهدف الإسلام إلى تربيته هو الإنسان الذي يستمد منهج حياته وشعوره وسلوكه من منهج الله، وهو بالجملة الإنسان الذي يفي بشروط الخلافة التي فضله بها خالقه على كثير ممن خلق، فينشط في عمارة الأرض وفق منهج الله، مستغلاً كل الطاقات وقوى الإدراك الممنوحة له.

منهج فريد:

وانطلاقـًا من المفهوم السابق والقواعد التي يرتكز عليها، فإن منهج التربية في التصور الإسلامي قد يتفق مع بعض مناهج العالم في كثير من التفصيلات والفروع، ولكنه يختلف عنها ــ قطعـًا ــ في القواعد والأصول التي ينبثق منها. فمعظم مناهج الأرض تهتم ــ مثلاً ــ بدراسة العلوم والرياضيات. وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية. إلا أن كثيرًا من بلاد الدنيا قد تهتم بتدريس هذه المناهج لا لترقية حياة المواطنين في مجتمعاتها فقط، ولكن لاستغلال تطبيقاتها التقنية في صنع أدوات الحرب والدمار، لا للدفاع عن النفس فقط، بل وللاعتداء على حقوق الآخرين وحرماتهم أيضـًا. إن الناظر حوله يرى حروبـًا مدمرة لكل حي على وجه الأرض. هذه الحروب تمولها وتغذيها مجتمعات تقدمت في تطبيقاتها التقنية للعلوم والرياضيات. لكن منهج التربية الإسلامية إنما يهتم بهذه المواد والدراسات لتزويد الإنسان المسلم بالمعلومات والمهارات والتجارب التي تمكنه من عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، والقيام بحق استخلاف الله له فيها أينما وجد، وحيثما وجد.

ومعظم مناهج الأرض تهتم بدراسة التاريخ والجغرافيا، وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية. إلا أن معظم هذه المناهج يهدف إلى تربية العزة القومية، والنعرة الوطنية، وتخليد المثل والنماذج التاريخية لتقوية الاتجاهات العنصرية. لكن منهج التربية الإسلامية يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها التي قررها الله في قوله: «إن هو إلا ذكر للعالمين» (التكوير: ٢٧، وص: ٨٧).. (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (الأنبياء: ١٠٧). فمنهج التربية الإسلامية لا يهدف إلى إعداد «المواطن»

الصالح ، وإنما يسير وفق ما تقتضيه عالمية الإسلام ، فيسعى إلى تحقيق هدف أكبر وأشمل ــ كما سبق أن قلنا ــ وهو إعداد « الإنسان » الصالح أيًا كان موطنه . الإنسان القادر على القيام بحق الخلافة . وحق الخلافة لدى الإنسان هو المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وفق منهج الله .

كما أن من أهم أهداف الدراسة فى العلوم الاجتماعية عمومًا هو تربية الاتجاه إلى التفكير في الأنفس وفي الآفاق ، وتدبر العبرة من الحوادث التي تقع في الأرض ، وربط كل ذلك بإرادة الصانع الحكيم . وهنا ــ مرة أخرى ــ ترتبط الأرض بالسماء ، والدنيا بالآخرة .

ومعظم مناهج الدنيا تهتم بتدريس الآداب والفنون المختلفة . وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية . لكن معظم هذه المناهج تهدف ــ فقط ــ إلى تربية الإحساس بالذوق والجمال في الطبيعة وفي الكون فى ذاته . لكن منهج التربية الإسلامية يضيف إلى تربية الإحساس بالذوق والجمال في الكون كله ، اعتباره من صنع الله الذى أتقن كل شيء . فوظيفة الفن إزالة البلادة المتراكمة على القلوب ، وجلاء الإحساس ، وإثارة المشاعر للتعبد بدقة الصانع القادر .

ومعظم مناهج الدنيا تهتم بتدريب المتعلمين على الرياضة البدنية والألعاب الرياضية المختلفة . ومنهج التربية الإسلامية يفعل ذلك ، لا لتدريب الناشئة على الطاعة والحرص على النظام فقط ، كما تفعل بعض النظم . ولا لتربية الروح التعاونية والجماعية فقط ، كما تفعل بعض النظم الأخرى ، ولا لصناعة الأجساد الجميلة وبيعها والإتجار بها في أسواق الرقيق المعاصرة ، كما تفعل بعض الهيئات والمؤسسات . وإنما الذي يعني منهج التربية الإسلامية من التربية البدنية والرياضية هو بناء المؤمن القوي بجسمه وعقله ومشاعره . المؤمن القادر على الكد والكدح في الأرض بما يسره الله له ، المؤمن القادر على محاربة طواغيت الأرض ، والقادر على الجهاد فى سبيل تنفيذ منهج الله ، « فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمؤمن القوى هو الذي لايظلم الناس، ولايظلم نفسه، ولا يرضى بوقوع الظلم دون أن يحاربه. والمؤمن القوي هو الذي يكافح في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية في حدود منهج الله. فالإسلام لايريد الناس أن يتركوا حقوقهم على الأرض وينتظروها في ملكوت السماء. بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم المشروعة، تحت أى ضغط، بسوء العذاب في الآخرة، ويسميهم «ظالمي أنفسهم»: «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا» (النساء: ٩٧). وأكثر من ذلك، فالإسلام يحرض المؤمن على القتال في سبيل الحصول على حقه: «ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد» (رواه النسائى).

وعلى هذا فإن منهج التربية الإسلامية لايفيد الإنسان في نطاق حاجاته الأرضية أو الوطنية أو القومية، وإنما يزوده بالحقائق الثابتة، والمفهومات والمعلومات والمهارات والخبرات المتغيرة، التي تقدره على الربط بين الأرض والسماء في آن واحد. فقيمة العلم تكمن في مدى فائدته في بناء الإنسان بحيث يكون قادرًا على عمارة الأرض وترقيتها في حدود منهج الله. فالمنهج هنا يربط بين التقوى والعلم: «واتقوا الله ويعلمكم الله» (البقرة: ٢٨٢). ويجعل العلم سبيلاً إلى معرفة الله وخشيته: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (فاطر: ٢٨).

إن العلم في منهج التربية الإسلامية هو معرفة قوانين الله في الكون، وتطبيقاتها في عمارة الأرض. فالعلم الصحيح –إذن– هو الذى يؤدي إلى معرفة الله. وهذا العلم فريضة مقدسة: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (رواه ابن ماجه). وبذل الجهد في طلب العلم جهاد، أى عبادة: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة» (رواه مسلم).

نحن إذن حيال منهج فذ، فريد، شامل، متكامل، لتربية الإنسان كله: جسمه وعقله ووجدانه، تربية شاملة متكاملة. تربية الإنسان القوي القادر على المساهمة في عمارة الحياة وترقيتها. الإنسان التواق إلى العدل،

المناضل من أجل الظفر بالحرية، الذي تحركه الأشواق إلى الخير، والحق، والجمال. الإنسان الذي يعمر قلبه الإيمان، وحب الآخرين، والرغبة في إسعادهم، الإنسان الذي يتحدى الخطر والفقر، ويقتحم المجهول في جسارة مستعيناً بالله، ليصوغ لنفسه وللناس عالماً أفضل.

إن ذلك المنهج الذي يربي الإنسان الموصول القلب دائماً بالله، الذي يربط بين الدنيا والآخرة، كما يربط ملكوت الأرض بملكوت السماء.. ذلك المنهج هو هويتنا التربوية، لأنه وسيلتنا إلى تحقيق هويتنا الكلية، وهي أن نكون مسلمين حقاً.

تطبيق منهج التربية الإسلامية:

إن تطبيق هذا المنهج لا يحتاج إلى «فلسفة». بل إن إلحاق مصطلح «فلسفة» به يفسده تماماً. «فالفلسفة» مصطلح غريب وثني الأصل، وهي جزئية ثقافية وحضارية للإنسان وللحياة تختلف تماماً عن النظام الذي ينتمي إليه منهج التربية الإسلامية. «فالفلسفة» جزئية في نظام «بشري» الأصل، تتأثر به وتؤثر فيه. ومنهج التربية الإسلامية جزئية في نظام «رباني» شامل لحكم الكون والحياة، فكيف يجتمعان؟!.

إن الإنسان لا يستطيع ــ مثلاً ــ أن يأخذ قطعة (غيار) من سيارة «فيات» ليضعها في سيارة «مرسيدس»، لأن خطوط الإنتاج في هذه تختلف عن خطوط الإنتاج في تلك، وكذلك كل ما يتبعها من جزئيات. فإذا كان ذلك كذلك على المستوى المادي البسيط، فما بالك بالنظم التي وضعت لحكم الحياة وتوجيه السلوك الإنساني! تلك «فلسفات» مستمدة من أفكار بشرية، وهذا منهج مستمد من أصول «ربانية» هل يمكن تبادل قطع الغيار بينهما؟!

إن تطبيق هذا المنهج، حسب المفهوم السابق، يتطلب ــ بصورة أساسية ــ وبإيجاز شديد ــ مجموعة من الإجراءات لعل أهمها ما يأتي:

أولاً: إعادة تصميم مناهج التربية الإسلامية في جميع مراحل التعليم العام بطريقة تتكامل فيها العلوم والشرعية ــ التي تشكل محوراً ثابتاً ــ مع

العلوم الإنسانية والكونية . كما تتكامل كل هذه العلوم مع طبيعة المتعلمين في كل مرحلة تعليمية من حيث مطالبهم وحاجاتهم ونوعية المشكلات التي يواجهونها في حياتهم .

ثانيًا: إعادة تصميم مناهج العلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا . والسياسة والاقتصاد والفنون والآداب بحيث تساهم في إدراك الناشئة لقوانين منهج الله في الكون وتطبيقاتها في واقع الحياة .

إن الفصل التعسفي بين العلوم الشرعية على أنها علوم للدين ، وبين العلوم الأخرى على أنها علوم للدنيا ، قد أحدث كثيرًا من الخلط والتشويش والمتاعب التي تعاني منها الأجيال الحالية . فالإسلام نظام يحكم الحياة . والعلم في هذا النظام هو العلم بقوانين الله في الكون وتطبيقاتها في واقع الأرض . فسواء كانت هذه القوانين لحكم وتوجيه سلوك الإنسان أو كانت لحكم العلاقات بين سائر مكونات الكون ، فهي كلها صادرة من الله ، وهي كلها جزئيات في نظام متماسك لا يمكن أن يختل .

ليس من المعقول ـــ إذن ـــ تدريس هذه العلوم بشكل يصب في أذهان الناشئة تصورًا للحياة والأحياء خاليًا من كل أثر لله وللقدرة الإلهية . فهذا قد يعني لدى الكثيرين منهم انفصال الدين عن الحياة ، لأن ما تغرسه علوم العقيدة والشريعة ، تقتلعه العلوم الأخرى ... وتظل الناشئة في تيه شديد .

ثالثًا: إنشاء مدارس للدراسات العليا ، إسلامية عربية . تنطلق من الإسلام في توجيه كل البحوث والدراسات لتشخيص المشكلات وعلاجها في مختلف الأقطار الإسلامية والعربية . أما الاستمرار في إرسال الباحثين والدارسين إلي الجامعات الأمريكية والغربية لدراسة العلوم والفنون والآداب والعلوم الإنسانية عمومًا فهو استمرار في سياسة التغريب القائمة التي نعاني من آثارها في مجمل حياتنا عامة وفي حياتنا الثقافية والتربوية خاصة .

إن الإسلام لا يتسامح ـــ كما يقول الأستاذ سيد قطب ـــ « أن يتلقى المسلم أصول عقيدته ولا مقومات تصوره ، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه ، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه ولا مذهب مجتمعه ، ولا نظام حكمه ، ولا منهج

سياسته، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره.. من مصادر غير إسلامية. ولا أن يتلقى (في كل هذا) عن غير مسلم يثق في دينه وتقواه»([31]).

وهذا الأمر أكبر وأثقل في ميزان الله من أن يعتمد فيه على رأي شخصي. فالأمر فيه لله وللرسول. يقول الله سبحانه عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة: «ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير» (البقرة: ١٠٩).

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. قل: إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير» (البقرة: ١٢٠).

«يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» (آل عمران: ١٠٠).

والواقع أن الإسلام يفرق في هذا الأمر بين نوعين من العلوم: العلوم التي تتصل بتفسير النشاط الإنساني كله: كالفنون والآداب والعلوم الإنسانية والتربوية عمومًا، فهذه يجب على المسلم ألا يتلقاها إلا على يد مسلم يوثق في علمه ودينه.

أما ما يردده بعض مفكرينا من آن لآخر، من أن الفنون والآداب يجب أن تدرس كفنون جميلة في حد ذاتها، دون ربطها بالعقائد والأخلاقيات، فهذا رأي مرفوض إسلاميًا، لأن الإسلام لا يعترف بنظريات «العلم للعلم» و«الفن للفن». فالعلوم والفنون ما هي إلا وسائل وأدوات خلقها الله ليتعلمها الإنسان ويستخدمها في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

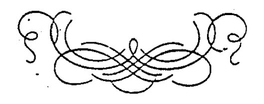
أما العلوم البحتة كعلوم الكيمياء والفيزياء والأحياء وعلوم الصناعة والزراعة.. إلخ فالأصل أن يسعى المجتمع المسلم لتوفير الكفايات فيها، باعتبار تعلمها فرض كفاية. فإذا لم يوفر الكفايات أثم المجتمع كله. وإلى أن

(٣١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٢.

تتوفر الكفايات في هذا الميدان فإن للمسلم أن يتلقى هذه العلوم عن المسلم وغير المسلم .

وليس معنى ما تقدم أنني أدعو إلى الانغلاق وعدم التفكير، وعدم الاستفادة من أفكار الآخرين وتجاربهم أينما كانوا ، فليس هذا من الإسلام في شيء . **وقد وضع لنا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام المبدأ الهادي** في هذا السبيل حيث قال : «**الحكمة ضالة المؤمن ، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها**» .

إذن فهذه دعوة إلى الانفتاح ، لا إلى الانغلاق . لكنه الانفتاح الذي ينشد الحكمة و يزن كل شيء وفقاً لمعايير وقواعد منهج الله .



الفصل الثالث

أهداف منهج تدريس العلوم الشرعية

أهداف منهج التربية في التصور الإسلامي

على أساس فهمنا السابق لطبيعة التصور الإسلامي للكون، والإنسان والحياة، وفهمنا لمركز الإنسان في الكون والحياة، وفهمنا لفطرته وخصائص تكوينه ولطبيعة المجتمع المتحضر الإسلامي الذي يساهم في بنائه، ولطبيعة المعرفة التي يعد هذا الإنسان ويُربىّ من خلالها، على أساس كل هذا فإن الهدف الرئيسي لمنهج التربية في الإسلام هو إعداد الإنسان للقيام بحق الخلافة في الأرض. ومقتضى هذا أن يكون الإنسان قادرًا على المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

ولكي يكون الإنسان المسلم قادرًا على القيام بهذا الدور فلابد أن تتحقق فيه ــ هو بذاته ــ مجموعة من الأهداف أهمها على الإطلاق ما يلي:

١ ــ ترسيخ عقيدة الإيمان بالله والأخوة في الله:

الهدف الأول هو الإيمان بالله والأخوة في الله. وهذا الهدف يشتمل على ركيزتين تقوم عليهما الأمة الإسلامية، وتتحقق بهما وسطيتها وشهادتها على الناس.

الركيزة الأولى، هي الإيمان بالله وتقواه: «**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**» (آل عمران: ١٠٣). وإذا كان المعنى المحدد للتقوى هي فعل ما أمر الله به، والانتهاء عما نهي عنه، فإن معناها بلا تحديد كما ورد هنا في الآية «**يدع القلب مجتهدًا في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها. وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق وجدت له أشواق. وكلما اقترب بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مكان أرفع**

مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام»!

على أساس هذه الركيزة توجد الجماعة الإسلامية لتؤدي دورها الراشد في قيادة البشرية، وبدون هذه الركيزة لا يكون هناك منهج لله تجتمع عليه أمة، بل فلسفات ومناهج لا تؤدي إلا إلى الهبوط والخراب.

الركيزة الثانية، هي ركيزة الأخوة.. الأخوة في الله، ولتحقيق منهج الله: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (آل عمران: ١٠٣). فهي أخوة إذن تنبثق من الإيمان بالله وتقواه.. من الركيزة الأولى التي أساسها الاعتصام بحبل الله ـــ أي عهده ومنهجه ـــ وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! فهي أخوة تجمع القلوب في الله، وتصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية، يهودية كانت أو صليبية أو شيوعية.. أخوة يتجمع الصف فيها تحت لواء الله الكبير المتعال (١).

٢ ـــ تحقيق الإيمان والفهم لحقيقة الألوهية:

إن تعميق الإيمان بالله والأخوة في الله في نفوس الأجيال يتوقف ـــ بلا شك ـــ على فهمهم لحقيقة الألوهية. وبالرغم من أن الحقيقة الإلهية الكلية المطلقة أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة الحادثة الفانية، لكن حسب الإنسان منها ما يصح به تصوره، وما يستقيم به فكره، وما يصلح به ضميره، وما تنتظم به حياته، وما يعرف به حقيقة مركزه، ودائرة سلطانه، ومقتضيات عبوديته لهذه الألوهية (٢).

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٤٤٢ـــ٤٤٣.
(٢) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٨٧.

إن منهج التربية في التصور الإسلامي يربي « الإنسان » .. « والإنسان لا يملك أن يكون شيئاً في واقع هذه الأرض، ولا يملك أن يكون شيئاً في حساب هذا الوجود.. سواء في عالم الغيب أم في عالم الشهادة.. ولا يستطيع أن يكون قوة فاعلة، وأن يكون له دور إيجابي، وأن يحقق غاية وجوده الإنساني — كما أرادها الله — إلا أن يمتلئ حسه وضميره، وقلبه وعقله، وكينونته كلها بحقيقة الألوهية، وإلا أن يعرف بالضبط موقفه من هذه الحقيقة، وموقف سائر العبيد منها، وموقفه كذلك من إخوانه العبيد. « والمسلم » مكلف — بصفته الإنسانية — خلافة الأرض بعهد الله وشرطه. ومكلف — بصفته الإسلامية — إنشاء واقع في الأرض غير واقع الجاهلية. وتحقيق ميلاد « للإنسان » جديد غير ميلاده في الجاهلية! واقع يقوم على عهد الله وشرطه. ويحكم منهج الله وشريعته. وميلاد يتحرر فيه من عبادة العباد، وينطلق على سواء مع سائر العباد.. وهو واجد في طريقه عقبات من الواقع الجاهلي كأداء، وملاق في طريقه تضحيات مريرة، وآلاماً هائلة ومشقات ضخمة، على طول الطريق.. وما لم يمتلئ حسه وضميره، وعقله وقلبه، وكيانه كله، بحقيقة الألوهية، ويدرك على وجه اليقين الواضح، والجزم الحاسم، ما تتطلبه منه علاقته بهذه الحقيقة فإنه لن يقوى على الكفاح والصمود، والمضي قدماً في الطريق الكؤود، لإنشاء الواقع الجديد، ويشهد في نفسه وفي غيره ميلاد الإنسان الجديد!

« إنه مطلوب منه أن يغير وجه العالم، وأن يقيم عالماً آخر، يقر فيه سلطان الله وحده، ويبطل سلطان الطواغيت. عالماً يعبد فيه الله وحده — بمعنى العبادة الشامل — ولا يعبد معه أحد من العبيد. عالماً يخرج فيه الناس.. من شاء الله منهم.. من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده — كما قال ربعي ابن عامر، رسول قائد المسلمين، لرستم قائد الفرس الشهير — ومطلوب منه أن يقف في وجه الباطل والظلم والفساد، وأن يغير تصورات وأوضاعاً، وقيماً وموازين، وشرائع وقوانين، وأن يتعرض للغربة والوحشة، والأذى والابتلاء.. وهو لا يواجه هذا كله إلا إذا امتلأ كيانه كله بحقيقة الألوهية، بحيث ترجح في حسه كل شيء. وإلا إذا امتلأت نفسه

« بوجود » الله سبحانه و « حضوره » في حسه وضميره ، وقلبه وعقله ، وفي كيانه كله ، وحياته كلها » (٣) .

إن مناهج التربية الإسلامية عموماً ومناهج العلوم الشرعية على وجه الخصوص يجب أن تعتمد على المنهج القرآني في توضيح هذه الحقيقة للأجيال الناشئة . « إن المنهج القرآني يجلي هذه الحقيقة بآثارها الفاعلة في هذا الوجود .. في الخلق والتدبير، في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه . في تسخير الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم . في إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل . في إرسال الرياح لواقح ، وإنزال الماء من السماء . في انبثاق الحياة من الموات وانبثاق الصبح من الظلام . في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي . في بدء الخلق وإعادته . في القبض والبسط . في البعث والنشور. في النعمة والنقمة . في الجزاء والحساب . في النعيم والثواب .. في كل حركة وكل انبثاقة . وكل تغير وكل تحور في عالم الغيب أو في عالم الشهادة في هذا الوجود الكبير.. ونادرًا ما يتحدث المنهج القرآني عن الذات الإلهية والصفات في الصورة التجريدية التي تتحدث بها الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام (٤) .

إن غياب التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة ـ عموماً ـ في مناهج التربية في بلادنا وعدم فهم حقيقة الألوهية ، وعدم التفريق بينها وبين حقيقة العبودية ، قد أحدث كثيرًا من الجهالات والانحرافات . جهالات وانحرافات في العقيدة ، وجهالات وانحرافات في الفكر والشعور، وجهالات وانحرافات في القول والعمل والسلوك ، وجهالات وانحرافات في الثقافة ، والفن ، والأدب ، والتربية !

إن غياب التصور الإسلامي ، في تربية الإنسان المسلم ، وعدم فهم حقيقة الألوهية والتفريق بينها وبين حقيقة العبودية ، قد جعل كثيرًا من

---

(٣) المرجع السابق ، ص١٨٨ .
(٤) راجع نماذج النصوص القرآنية التي سبق عرضها عن حقيقة الألوهية في فصل « طبيعة التصور الإسلامي » .

الفنانين والأدباء يشعرون أنهم فلتة ضائعة في الكون الوسيع، وفي الحياة المجهولة المصدر والمصير!

فها هو إيليا أبوماضي ــ قائد مدرسة الضياع ــ يقول:

جئت لا أعلم من أين أتيت ولكني أتيت..
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت..
وسأبقي ماشياً إن شئت هذا أم أبيت..
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدرى!

وعلى هذا النمط الضائع المضيِّع.. سار كثير من الشعراء والأدباء والفنانين والعلماء والمثقفين والمربين!

٣ــ فهم حقيقة الكون:

الهدف الثالث لمنهج التربية في التصور الإسلامي عموماً، ولمنهج العلوم الشرعية بصفة خاصة هو أن تدرك الأجيال الناشئة حقيقة الكون الذي يعيشون فيه، وحقيقة مركز كل منهم فيه كإنسان. وأن يدركوا ــ أيضاً ــ طبيعة العلاقات بينهم وبين مفردات هذا الكون غيبه وشهوده.

وإذا كان الحق ــ سبحانه ــ قد تكفل للإنسان ببيان أصول عقيدته، ونظام حياته، لأن علم الإنسان المحدود لا يكفي في هذا المجال الأساسي الذي تقوم عليه حياته، فإنه ــ سبحانه ــ قد ترك للعقل والإدراك البشري والضمير الإنساني أن يبحث وأن ينقب عن سنن الكون، وقوانينه، وأن يعرف منها ما هو مقدر له أن يعرف، لينتفع به في تنمية الحياة وترقيتها. لقد ترك الله للإدراك البشري معرفة الحقائق العلمية عن طريق الكد والكدح، والبحث والتجربة، والمحاولة والخطأ، ولم يتكفل ــ سبحانه ــ ببيان تفصيلاتها له، لأنها داخلة في طوقه بالقدر الذي يلزم له في أداء وظيفته الأساسية وهي الخلافة في الأرض.

لكن هذا لا يمنع من التأكيد لدى الناشئة، على أن «الحقائق العلمية» و«النظريات العلمية» كلاهما ليس قطعي الدلالة، ولا مطلق الدلالة.. فهو علم ظني في أحسن الأحوال.

كما يجب التأكيد على أن النصوص القرآنية قطعية الدلالة، ومطلقة الدلالة، ونهائية في تقرير الحقيقة التي تقرها، ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها «بالحقائق العلمية» ولا «بالنظريات العلمية»، لأنه لا يجوز الاستشهاد على صدقها إلا بما هو من جنسها. لكن هذا لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من «الحقائق العلمية» ــ وليس «النظريات العلمية» قط ــ في توسيع مدى الرؤية البشرية والفهم الإنساني لدلالات بعض النصوص القرآنية.

وهذا يعني أننا لا يجب أن نسارع إلى تعليق مدلولات النصوص القرآنية بما وصل إليه علم البشر، أو ما سيصل إليه علمهم في المستقبل.. إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه من علم البشر أن يصلوا إلى بعض الحقائق التي تتفق مع الحقائق القطعية النهائية المطلقة التي حدث بها خالق الكون العليم الخبير»(٥).

أما شق الكون الآخر، فهو الكون المغيب، ومنه الروح، والملائكة، والجن والشياطين وإبليس، والجنة والنار، والملأ الأعلى.. إلخ. وهذا الجانب من الكون قد استأثر الله بعلمه ويجب على المناهج التربوية وعلى الدارسين والباحثين عدم الخوض فيه. وقد وصف الله بعض مظاهر هذا الكون بالقدر الذي يمكن الإنسان من التعامل معه والتفكير فيه، والقرب منه أو الابتعاد عنه. والكون كله: غيبه وشهوده، هو كون عابد لله، أمره الله فأطاع:

«ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض: ائتيا طوعًا أو كرهًا، قالتا: أتينا طائعين» (فصلت: ١١).

وهو كون صديق للحياة والأحياء، مأنوس للإنسان بوجه خاص. أعده الله لاستقبال الحياة وحضانتها وكفالتها وإقاتتها:

---

(٥) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص٣٢٩.

«الله الذي خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار» (ابراهيم: ٣٢ـ٣٤).

وأقوات الأرض مدخرة في تربتها وفي جوفها منذ أن خلقها الله، وفيها الكفاية. لكننا لطول الألفة ننسي مدى ما فيها من عجب:

«قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، وتجعلون له أندادا؟ ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا، قالتا: أتينا طائعين» (فصلت: ٩ـ١١).

وهو كون صديق للحياة والأحياء، وليس عدوا للحياة كما يقول بعض العلماء الطبيعيين فهو كون مصمم لخدمة الحياة والأحياء، ولخدمة الإنسان على وجه الخصوص:

«وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الجاثية: ١٣).

«إن عنصر الجمال مقصود قصدًا في بناء الكون، وفي ظواهره، وفي الحياة المبثوثة فيه، وإيقاظ حاسة الجمال في البشر مقصود كذلك قصدًا في المنهج القرآني، وفي التربية الإسلامية بهذا المنهج.. فالله سبحانه وتعالي جعل الجمال عنصرًا من عناصر بناء الكون والحياة. والكمال في صنعته الباهرة يحقق هذا الجمال»(٦).

والمنهج القرآني يوجه أنظار البشر إلى «المنفعة» الحاصلة لهم من هذا الخلق الجميل للكون، وإلى دلالة هذا الخلق على خالقه:

«هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد

---

(٦) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص٣٣٨.

السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون» (يونس: ٥).

«**هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون**» (الأنعام: ٩٧).

«**هو الذي جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا، وجعل النهار نشورًا. وهو الذي أرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهورا، لنحيي به بلدة ميتًا، ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسيَّ كثيرا**» (الفرقان: ٤٧ ــ ٤٩).

ويوجه الأذهان إلى تنوع الألوان، وجمال هذا التنوع، وتوزعه بين الجوامد والأحياء سواء:

«**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور**» (فاطر: ٢٧ ــ ٢٨).

«**وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا** منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب والزيتون والرمان، مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**» (الأنعام: ٩٩).

هذا هو الكون الذي خلقه الله لنتعرف عليه، ونتلطف معه، لا لنتصارع معه. فالسلام مع الكون مسألة ذات قيمة شعورية في حياة الإنسان الواقعية، فذلك يجعل الإنسان يمضي مطمئنًا في هذا الكون لكشف سنن الله فيه، وجعلها كلها للخير.

إن هذا الهدف يجب أن يوجه مناهج التربية عامة ومناهج علوم الشريعة خاصة إلى نوعية النصوص التي تقرر وتدرَّس في كل مرحلة وفي كل عمر، وإلى نوعية الخبرات المرتبطة بها في واقع الحياة، هذا بالإضافة إلى أنه يوجه الناشئة إلى كيفية التعامل مع مفردات الكون، بمعرفتهم لطبيعته، وفهمهم لعلاقتهم به ودورهم فيه.

إن مناهج التربية التي لا تأخذ في اعتبارها تحقيق هذا الهدف في الناشئة، سوف تخرج أجيالاً يرددون بلا وعي ــ إلا من عصم ربك ــ ما قاله عمر الخيام، وتغنت به أم كلثوم:

لبست ثوب العيش لم أستشر   وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمي ولم   أدرك لماذا جئت أين المفر!
أفنيت عمري في اكتناه القضاء   وكشف مايحجبه في الخفاء
فلم أجد أسراره وانقضى عمري   وأحسست دبيب الفناء
أفق وصب الخمرة أنعم بها   واكشف خبايا النفس من حجبها
ورو أوصالي بها قبلما   يصاغ دن الخمر من تربها
سأنتحي الموت حثيث الورود   وينمحي اسمي من سجل الوجود
هات اسقنيها ياسنى خاطري   فغاية الأيام طول الهجود

«لقد تصور الكون مغلقاً لا ينفذ العلم البشري إلى سطر واحد من سطوره، وغيباً مجهولاً يقف الإنسان أمام بابه الموصد يدقه بلا جدوى. وفي هذا التيه لا يعلم الإنسان من أين جاء، ولماذا جاء؟ ولا يدري أين يذهب، ولا يستشار في الذهاب!(٧).

كما يرى أن هذه الحياة المجهولة المصدر والمصير، في هذا العماء الذي يعيش فيه الإنسان لا يستحق أن يحفل بها الإنسان أو يكد ويكدح من أجلها.. وإذن فلا ضرورة للوعي الذي لا يؤدي إلى شيء!

فهل يقبل المربون والمنهجون المسلمون أن يتخرج على أيديهم أجيالاً بهذه الرؤية وبهذا التصور؟!

٤ ــ فهم حقيقة الحياة:

لابد أن تعمل مناهج التربية على أن تفهم الأجيال الناشئة حقيقة الحياة: غيبها وشهودها، دنياها وأخراها.

---

(٧) سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م، ص ١٢ ــ ١٣.

ولابد أن يفهموا أن «الحياة ليست إلها! ليست قوة مدبرة في ذاتها **تنشأ وتنشئ وفق إرادتها المستقلة. كذلك هي ليست تلقائية، وجدت** مصادفة وتمضي خبط عشواء!

وإنما هي خليقة أنشأها الله ــ سبحانه ــ بقدر، وتمضي كذلك وفق قدر. وهي مودعة خصائصها الذاتية التي تفرقها من الموات. أعطاها هذه الخصائص الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، والذي يتوفى الأنفس حين موتها، والذي خلق الموت والحياة، والذي يبدأ الخلق ثم يعيده (٨).

كذلك لابد أن تفهم الأجيال أن **«الطبيعة ليست إلٰهًا. ليست هي التي خلقت نفسها وليست هي التي خلقت الحياة. إنما الله ــ سبحانه ــ هو** الذي خلق الطبيعة وجعلها مناسبة لظهور الحياة، وهيأ الأرض لنوع الحياة الذي نشأ فيها، وجعل التناسق بين الطبيعة والحياة، وبين الأحياء بعضها وبعض، وهو الأصل والقاعدة.

كذلك لابد أن تفهم الناشئة أنه كما أن الحياة حادثة وصادرة عن إرادة الله وحده وبقدره، فهي ناشئة ــ بتلك الإرادة وهذا القدر ــ من أصل واحد **وهو «الماء»: «وجعلنا من الماء كل شيء حي».. «والله خلق كل دابة من ماء»**. أما كيف تسلسلت الحياة، وهل تطورت عبر الزمان أم نشأت نشأة واحدة هكذا أنواعًا، فهذا مما لم يتعرض له القرآن.. ومجال الدراسة فيه مفتوح.

على أن ذلك لا يجب أن يختلط بنشأة الإنسان الصريحة القاطعة. فالنصوص القرآنية ترينا كيف خلق الله الإنسان، وإن كانت لم تدلنا متى كان ذلك. فخلق الله للإنسان صريح في قوله ــ سبحانه ــ: **«وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»**.

---

(٨) انظر سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص٣٥٧.

«وكما تقوم الحياة على قاعدة النشأة من الماء، كذلك تقوم على قاعدة «الزوجية» التي لاتشمل الأحياء فقط، ولكنها كذلك تشمل الأشياء: **«ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين لعلكم تذكرون»** وتقدير الزوجية هذا، واشتمال الحياة على الضمانات التي تجددها وتكثرها عن طريق هذه الزوجية، وتوافر الجنسين في كل نوع بالنسبة الكافية للبقاء والتكاثر دليل على القصد والتدبير، يكرر القرآن ذكره، وهو دليل لا يواجهه المنكرون إلا بالتحمل أو الهروب في كل حال.

«هذه الحياة مقدرة أقواتها في بنية الأرض، وفي نظام الكون.. وهي حقيقة واقعة تكذب كل ادعاء آخر، وتسخر من نظريات المتشائمين والداعين إلى تحديد النسل (نظرية مالتوس).. فهناك موافقات في كيان الحياة ذاته، وفي الظروف المحيطة بها، تجعل حقيقة تقدير الأقوات أوسع من مادة الأقوات ذاتها.. وتمد محيطها إلى ما في بنية الكون من طاقات ومدخرات، وما في تكامل الأحياء من عمليات تعويض، وما في ضوابط الحياة من ضمانات للتناسق بين بعض الأحياء وبعض، وبين الأحياء جميعًا والأقوات المدخرة»(٩).

وكما تقوم الحياة على قاعدة النشأة من «الماء» وعلى قاعدة «الزوجية» كذلك تقوم على قاعدة «الأمة المنظمة» فكل ما يدب على الأرض من أحياء أمم ذات تنظيمات كأمة الإنسان. فهي كلها من أصل واحد، وهي كلها تخضع للخالق العظيم الذي أودع هذه الأمم فطرتها وضوابطها. والإنسان هو قمة هذه المخلوقات، وهي كلها مسخرة له.. «لكنه إنما يرتفع إلى مقامه هذا باحتفاظه بسبب امتيازه، وهو اتصال روحه بمصدر امتيازه، فإذا فارق هذا المقام صار أضل من الحيوان!

والأحياء مكفولون برزق الله: **«وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها»** (هود: ٦) محاطون بعلم الله ورعايته: **«ويعلم مستقرها ومستودعها»** (هود: ٦)، وخاضعون لسلطان الله: **«وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها»** (هود: ٥٦).

---

(٩) المرجع السابق، ص٣٥٨.

والأحياء كلهم في عبادة الله: «ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون» (النحل: ٤٩).

«ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال» (الرعد: ١٥).

«تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليمًا غفورًا» (الإسراء: ٤٤).

هناك عوالم أخرى من الأحياء ــ غير دواب الأرض التي تشمل الإنسان ــ وهى عوالم أخبرنا الله بوجودها. وليس لنا من مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبر الله عنها، هي الملائكة والجن، ومن الجن الشياطين، وإبليس على رأس الشياطين! والإنسان يتعامل مع هذين الخلقين، ويتأثر بهما في الدنيا والآخرة»(١٠).

هذه هي حقيقة الحياة التي يتعامل معها «الإنسان» خليفة الله فيها. ومهمة مناهج التربية هى ترسيخ هذه الحقيقة في عقول وقلوب الناشئة، حتي يفهموا أن مهمتهم في الحياة ــ كخلفاء لله في الأرض ــ هي إعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.. وأن وسيلتهم في ذلك هي تحكيم الله ورسوله في كل ما شجر بينهم في أمور حياتهم، مستهدين في ذلك بمعايير العلم، والعدل، والحرية، والشورى والإحسان في العمل.

إنه إذا لم تعمل المناهج التربوية جادة على تحقيق هذا الهدف، فإننا سنرى الكثيرين يرددون ــ بوعي وبدون وعي ــ مايشدو به المغنون هذه الأيام:

جايين الدنيا ما نعرف ليه..
ولا رايحين فين، ولا عايزين إيه..
مشاوير مرسومة لخطاوينا..
نمشيها في غربة ليالينا..

---

(١٠) المرجع السابق، ٣٥٩.

يوم تفرحنا، و يوم تجرحنا..
واحنا ولا احنا عارفين ليه... إلى آخر هذا الهراء!

٥- فهم حقيقة الإنسان:

إن من أهم الأهداف التي يجب أن تعمل مناهج التربية في التصور الإسلامي عموماً، ومناهج العلوم الشرعية على وجه الخصوص، على تحقيقها في المتعلمين هو فهم الحقيقة الإنسانية. ونحن لا نملك أن ندرك حقيقة الإنسان إدراكاً واضحاً حتى ندرك وظيفته الأساسية، أو غاية وجوده الإنساني. وهي أنه خليفة الله في الأرض. ومقتضي الخلافة أن يعمل الإنسان على إعمار الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله[١١].

إذن فخلافة الإنسان في الأرض مشروطة ومقيدة بعهد الله وميثاقه. وإحسان القيام بالخلافة يبدأ من كشف النواميس والأرزاق والمدخرات التي أودعها الله في هذا الكوكب يوم خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، و ينتهي إلى تسخير هذا كله في تنمية الحياة وترقيتها على أساس من العلم والعدل. وهنا يصبح إعمار الأرض وترقية الحياة هو «العبادة» وهو جواز المرور إلى رضوان الله والجنة.

ولما كانت هذه وظيفة الإنسان، فقد جعله الله بنية حية متحركة. وهو يتحرك لأداء وظيفته، وتحقيق غايته. «فالإنسان مخلوق خاص. ذو كيان متميز، تميزه في ازدواج عناصر تكوينه، مستخلف في الأرض، مزود بخصائص الخلافة، وأولي هذه الخصائص: الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة. ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها. ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته للنهوض بوظيفة الخلافة.

---

(١١) انظر سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، فصل «حقيقة الإنسان» ص ٣٦١ وما بعدها.

«وهو كائن كريم على الله، ذو مركز عظيم في تصميم الوجود.. على الرغم من كل ما في طبيعته من استعداد للضعف والخطأ، والقصور والتردي - ولكن استعداده للمعرفة الصاعدة، ولحمل أمانة الاهتداء، والتبعة، يجعله كائنًا فريدًا، يستحق تكريم الله له واختصاصه بمقام الخلافة فى الأرض عنه - سبحانه - وقبول توبته. كما يستحق تلك العناية الإلهية به بإرسال رسله ورسالاته لهديه.. وهو أكرم من كل ما هو مادي، لأن كل ما هو مادي مخلوق له»(١٢).

وهو كائن يتعامل مع الكون كله، فهو يتعامل مع الله، كما يتعامل مع الملأ الأعلى من الملائكة، ومع الجن والشياطين، ومع نفسه واستعداداته المتنوعة، ومع سائر الأحياء الكونية، وسائر الطاقات فيه، الظاهرة والخفية، وهو مستعد - حسب تكوينه هذا - لأن يرتفع إلى أرقي من آفاق الملائكة المقربين، كما هو مستعد لأن ينحط إلى أدنى من دركات الحيوان البهيم. وذلك حسب ما يبذل من جهد في تزكية نفسه أو تدنيسها.

والإنسان مخلوق مكون من شطرين، شطر مسير كبقية ما في الكون من ظواهر وحركات، والشطر الآخر هو الشطر المخير الذي يمثل امتياز الإنسان وشرفه. فالإنسان يجيء إلى الحياة على غير إرادة منه ولا اختيار، وكذلك يولد لقوم، وفي أرض، وفي زمن، بلا إرادة، ولا اختيار، وقلبه ينبض، ودمه يجري، وكل أجهزة جسمه تعمل وتتبع إرادة غير إرادته، وكذلك كل العمليات الكيماوية والميكانيكية داخل كيانه.

أما شطره المخير، فهو أن الله قد منحه حرية الإرادة وحرية الاختيار. فهو الذي يختار الإيمان أو الكفر، والهدى أو الضلال، والصلاح أو الفساد في الحياة.. وقد منحه الله ذلك للابتلاء والاختبار.. ثم الجزاء بالجنة أو النار.

فالله - سبحانه - قد جعل الإنسان مسيرًا فيما هو أقل وأدنى، وجعله مخيرًا فيما هو أرقى وأرفع.. والمؤكد أن الإنسان لا يصلح ولا يسعد، ولا يطمئن

---

(١٢) المرجع السابق، ص٣٦١-٣٦٢.

ولايستريح، إلا حين يتناسق شطره الاختياري مع شطره الإجباري، فيخضعان معـًا لقانون واحد يشرعه الله، وهو نفسه القانون الإلهي الذي يحكم الكون والحياة(١٣).

إنه تصور جميل، فوق أنه تصور مريح، وفوق أنه تصور صحيح.

٦ـ تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس:

إن مناهج التربية الإسلامية عمومـًا، ومناهج العلوم الشرعية على وجه الخصوص، تستطيع ـ بعد تحقيق أهداف الإيمان بالله والأخوة في الله، وفهم حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وعن طريقها ـ إيصال المربىّ إلى درجة كماله التي تقدره على المساهمة بإيجابية وفاعلية في تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» (البقرة: ١٤٣).

والأمة الوسط، هي الأمة الأعلى والأشرف بين الأمم، لأنها تقوم على طريق الحق والعدل. ولها صفة «الوسط»، لأن لها صفة «الرئاسة» بين شعوب العالم، وعلاقتها مع الجميع علاقة حق وصدق بدرجة واحدة، وليس بينها وبين غيرها صلة تخالف الحق والصدق والشرعية(١٤).

فأمة الإسلام «أمة وسطـًا» بكل معاني الوسطية: «أمة وسط».. في التصور والاعتقاد.. لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الإرتكاس المادي.. تعمل لترقية الحياة ورفعها، في الوقت الذي تطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع».

«أمة وسطـًا».. في التفكير والشعور.. لا تجمد على ما عملت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة.. ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك.. إنما تتمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في

---

(١٣) المرجع السابق، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(١٤) أبو الأعلى المودودي: الحكومة الإسلامية، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص١٦١.

كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارها الدائم: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت و يقين.

«أمة وسطًا في التنظيم والتنسيق.. لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، وإنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب، وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلي سوط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان.. ولكن مزاج من هذا وذاك.

«أمة وسطًا».. فى الإرتباطات والعلاقات.. لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة، ولا تطلقه كذلك فردًا أثرًا جشعًا لا هم له إلا ذاته.. إنما تطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه. ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادمًا للجماعة، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق.

«أمة وسطًا».. في المكان.. في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها. وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعًا، وتشهد على الناس جميعًا، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك، وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

«أمة وسطًا».. في الزمان.. تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها. وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى، وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك (١٥).

---

(١٥) انظر مفهوم الوسطية في سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ١٣٠-١٣٢.

إنها – إذن – الأمة، التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل، وليست التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها .. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم .. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وقيمها وتقاليدها، ويزن مايصدر عنها ويقول فيه الكلمة الأخيرة .. وبهذا تتحدد حقيقة هذه **الأمة ووظيفتها .. لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعداداً لائقاً.**

إن مايعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، هو أنها قد تخلت في كثير من أمور حياتها عن منهج الله الذي اختاره لها، **واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.**

والآن كيف نربي المسلم المعاصر كي يساهم في تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس، وهو مقتضى من أهم مقتضايات الخلافة في الأرض؟

«ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين» (آل عمران: ٥٣) من الضرورى أن يكون من أهداف مناهج التربية بناء الإنسان المؤمن بالله، والتابع لرسوله، الشاهد على ذلك، والشهيد فى سبيل **ذلك. لابد من تربية الإنسان على أنه مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا** الدين، شهادة تؤيد حق هذا الذين في البقاء، لخير الجماعة ولخير البشرية كلها ..

وهو لايستطيع أن يؤدي هذه الشهادة إلا إذا جعل من نفسه ومن خلقه، ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين. صورة يراها الناس فيرون فيها مثلا رفيعا يشهد لهذا الدين بلأحقية في الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر مافي الأرض من أنظمة وأوضاع ومؤسسات.

لابد من تربية المسلم الذي يفهم أنه لايستطيع أن يؤدي هذه «الشهادة» حتي يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه وشريعة نفسه وقومه، وأن يجاهد في سبيل ذلك، و يؤثر الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لايحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية.. إن هذا الإيثار، وهذا الجهاد فى سبيل منهج الدين هو شهادة من المسلم بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها، وأنه أعزّ مايحرص عليه في حياته، ومن ثم يدعى «شهيدا» إذا عاش مجاهدا في سبيل تحقيق ذلك، أو مات مجاهدا في سبيل تحقيقه سواء..

٧ــ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الهدف السابع: هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الهدف هو «صفة» أمة الإسلام، وهو في ذات الوقت «وظيفة» هذه الأمة وسبيلها إلى تحقيق الأهداف السابقة.

فالله سبحانه وتعالى يصف الأمة المسلمة لنفسها، ليعرفها مكانها وحقيقتها، و يطمئنها من جانب عدوها: «**كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم. منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون**» (آل عمران: ١١٠ــ ١١١).

يقول الأستاذ سيد قطب: «إن التعبير بكلمة أخرجت» المبني لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر. وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجا، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب.. إلى مسرح الوجود» (١٦).

واذا كان الله سبحانه وتعالى يكرم هذه الأمة و يرفع مقامها و يفردها بمكان خاص لاتبلغ إليه أمة أخرى، فهو يضع على كاهلها واجبا ثقيلا، فهي أمة ذات دور خاص، ولها حساب خاص.

---

(١٦) المرجع السابق، ص ٤٤٦ــ٤٤٧.

«وهذا ماينبغي أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة بما أنها أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لاللشر في هذه الأرض. ومن ثم لاينبغي أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية. إنما ينبغي أن تعطي هذه الأمم مما لديها. وأن يكون لديها دائما ماتعطيه. ماتعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح.. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون فى الطليعة دائما، وفى مركز القيادة دائمة. ولهذا المركز تباعته، فهو لايؤخذ ادعاء، ولايسلم لها به إلا أن تكون هي أهلا له.. وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها الاجتماعي أهل له. فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي، وبعمارتها للأرض ــ قياما بحق الخلافة ــ أهلا له كذلك.. ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير، وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه.

«وفي أول مقتضيات هذا المكان أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد.. وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي خير أمة أخرجت للناس.. (لتقوم بهذا) العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر: «**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**»[17].

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو «صفة» الأمة الأسلامية ــ كما سبق أن رأينا ــ فهو أيضا وظيفتها التي عن طريقها تقيم منهج الله في الأرض وتغلب الحق على الباطل، والمعروف على المنكر، والخير على الشر.. هذه الوظيفة التي من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد الله وعلى عينه، ووفق منهجه.. هذه الوظيفة يقررها الله فى قوله: «**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون**» (آل عمران: ١٠٤).

---

(١٧) المرجع السابق، ص٤٤٧.

«فلابد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لابد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر والذي يقرر أنه لابد من سلطة، هو مدلول النص القرآني ذاته. فهناك دعوة» إلى الخير. ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف. وهناك «نهي» عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم «بالدعوة» غير ذي سلطان، فإن «الأمر والنهي» لايقوم بها إلا ذو سلطان..(١٨).

«هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنه لابد من سلطة تأمر وتنهي.. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله.. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر.. وتحقيق هذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنج. و يقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهي» عن المنكر.. فتطاع.. والله يقول: «**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**».. فنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد و بيان. فهذا شطر. أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة للبشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى، وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه **التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه و بتصوره، زاعماً أن هذا هو الخير والمعروف والصواب**.

«ومن ثم فلابد من جماعة تتلاقى على هاتين: الإيمان بالله، والأخوة في الله. لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى، ثم بقوة الحب والألفة. وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح. فقال عن الذين ينهضون به: «**وأولئك هم المفلحون**»..

---

(١٨) المرجع السابق، ص ٤٤٤.

٨ ــ استعادة تميز الأمة الإسلامية :

الهدف الثامن : هو استعادة تميز الأمة الإسلامية . إن المسلم المعاصر إذا أراد أن يعيش كريمًا ، معززًا على هذه الأرض ، فلابد له من أن يعمل على استعادة تميز هذه الأمة في عقيدتها ، وفي منهجها ، وفى اتجاهها .

يقول الأستاذ سيد قطب : « إن هذه العقيدة منهج حياة كامل . وهذا المنهج هو الذي يميز الأمة المستخلفة الوارثة لتراث العقيدة ، الشهيدة على الناس ، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله .. وتحقيق هذا المنهج في حياة الأمة المسلمة هو الذي يمنحها ذلك التميز في الشخصية والكيان ، وفي الأهداف والاهتمامات ، وفي الراية والعلامة . وهو الذي يمنحها مكان القيادة الذي خلقت له ، وأخرجت للناس من أجله . وهي بغير هذا المنهج ضائعة في الغمار ، مبهمة الملامح ، مجهولة السمات ، مهما اتخذت لها من أزياء ودعوات وأعلام !

إذن ، فالمسلم المعاصر لابد أن يستعيد تميز أمته كي يتميز هو ويتخصص هو بعقيدته ومنهجه واتجاهه .. فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد ، كما أنه بدوره ينشىء شعورًا بالامتياز والتفرد .

« ومن هنا كذلك كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم ، التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة ، كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء . ولم يكن هذا تعصبًا ولا تمسكًا بمجرد شكليات . وإنما كان نظرة أعمق إلى ماوراء الشكليات ، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة . وهذه البواعث هي التي تفرق قومًا عن قوم ، وعقلية عن عقلية ، وتصورًا عن تصور ، وضميرًا عن ضمير ، وخلقًا عن خلق ، واتجاهًا في الحياة كلها عن اتجاه(١٩) .

عن أبي هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « **إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم** » (أخرجه مالك ، والشيخان ، وأبوداود) .

---

(١٩) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد خرج على جماعة فقاموا له: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضًا**» (رواه أبوداود وابن ماجه).

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**» (أخرجه البخاري).

«نهي عن تشبه في مظهر أو لباس، ونهي عن تشبه في حركة أو سلوك، ونهي عن تشبه في قول أو أدب.. لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصورًا عن تصور، ومنهجًا في الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة.

ونهي عن التلقي من غير منهج الله الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحقيقه في الأرض. يقول الله ــ سبحانه ــ عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة:

«**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق، فاعفوا وأصفحوا حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير**» (البقرة: ١٠٩).

«**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل: إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم، مالك من الله من ولي ولا نصير**» (البقرة: ١٢٠).

«**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين**» (آل عمران: ١٠٠).

ثم «هو نهي عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين. والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة للبشرية، فينبغي لها أن تستمد تقاليدها ــ كما تستمد عقيدتها، من المصدر الذي اختارها للقيادة.. والمسلمون هم الأعلون، وهم الأمة الوسط، وهم خير أمة أخرجت للناس. فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم؟ ومن أين إذن

يستمدون تقاليدهم ونظمهم؟ إلا يستمدونها من الله فهم سيستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه!

«ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق في التصور، وأقوم منهج في الحياة. فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه. وما كان تعصباً أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو لا على أساس آخر؛ وعلى منهجه هو لا على أي منهج؛ وتحت رايته هو لا على أية راية أخرى. فالذي يدعوك إلى الوحدة في الله، والوحدة في الأرفع من التصور، والوحدة في الأفضل من النظام، و يأبى أن يشتري الوحدة بالحيدة عن منهج الله، والتردي في مهاوى الجاهلية.. ليس متعصباً. أو هو متعصب، ولكن للحق والصلاح!

«والأمة المسلمة ــ اليوم ــ بين شتى التصورات الجاهلية التي تعج بها الأرض جميعًا، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التي تشغل بال الناس جميعًا، وبين شتى الرايات الجاهلية التي ترفعها الأقوام جميعاً.. الأمة المسلمة اليوم في حاجة إلى التميز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة؛ والتميز بتصور خاص للوجود والحياة لا يتلبس بتصورات الجاهلية السائدة؛ والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور؛ والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده، فتعرف بأنها الأمة الوسط التي أخرجها الله للناس، لتحمل أمانة العقيدة وتراثها(٢٠).

٩ــ العمل على تحقيق وحدة الأمة:

الهدف التاسع هو أن الحفاظ على وسطية الأمة وتميزها وفق قاعدة الإيمان بالله، والأخوة في الله، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لا يكتمل إلا بالعمل على وحدة هذه الأمة، والحفاظ على هذه الوحدة.

إن العقيدة الإسلامية، هي عقيدة التوحيد التي تشهد بها سنن الكون، وناموس الوجود. وفي تصوير هذا الهدف الشامل للأمة، يقول الحق تبارك وتعالى: «**إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون**» (الأنبياء: ٩٢).

(٢٠) المرجع السابق، ص ١٢٩.

يقول الأستاذ سيد قطب: «إن هذه أمتكم. أمة الأنبياء. أمة واحدة. تدين بعقيدة واحدة. وتنهج نهجًا واحدًا، هو الاتجاه إلى الله دون سواه. أمة واحدة في الأرض، ورب واحد في السماء. لا إله غيره ولا معبود إلا إياه. أمة واحدة، وفق سنة واحدة، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء»(٢١).

وكما تجتمع أمة الإسلام حول إله واحد، ومنهج واحد، ورسول واحد؛ فإنها تجتمع وتتوجه حول قبلة واحدة.. قبلة تجمع هذه الأمة وتوحد بين أبنائها على اختلاف مواطنهم، واختلاف مواقعهم، واختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم. فيحسون أنهم جسم واحد، وكيان واحد، يتجه نحو هدف واحد، ولتحقيق منهج واحد.

وهكذا وحد الله هذه الأمة، وحدها في إلهها، ورسولها، ودينها، وقبلتها. ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدة من قواعد الوطن أو الجنس أو اللون، ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها، ولو تفرقت في مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها.. إنها الوحدة التي تليق ببني الإنسان؛ فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب، ومنهج الفكر، وقبلة العبادة، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلأ والسياج والحظيرة!(٢٢).

ولابد من تربية المسلم المعاصر على الإيمان بضرورة التجمع والتكتل حتى تستعيد الأمة ما كان لها من قيادة وريادة للإنسانية. فقد كان الأستاذ حسن البنا يقول: «إن عصر الكيانات الصغيرة قد ولى، وإن الأمم الصغيرة لا تستطيع أن تعيش حياة كريمة في عصر التجمعات الكبيرة والقارات. وكان يمثل الوحدة بالعدسة التي تجمع الأشعة المتفرقة من أشعة الشمس فتحرق بها الجسم الذي يتعرض لها.. فاجتماع الأشعة في بؤرة واحدة، قد أكسبها قوة وشدة وبأسًا وتأثيرًا(٢٣).

---

(٢١) المرجع السابق، ص ٢٣٩٥–٢٣٩٦.
(٢٢) المرجع السابق، ص ١٣٤.
(٢٣) حسن البنا، مرجع سابق، ٣٦٤–٣٦٥.

والأمة الإسلامية، وهي أغنى الأمم بالروابط ـــ كما سبق أن رأينا ـــ قد دبت الفرقة بين أقطارها، وباتت الماديات في قلوب أبنائها، واشتدت الخصومة فيهم.. ففقدوا الخير الكثير بفقد هذه الوحدة التي حثهم الله عليها: **«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون»** (آل عمران: ١٠٣).

ويقول الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لأصحابه: **«ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة.. لا أقول تحلق الشعر.. ولكن تحلق الدين»**.

نحن إذن في حاجة إلى منهج لتربية المسلم المعاصر القادر على المساهمة بإيجابية وفاعلية في تقوية الروابط التي تعيد لهذه الأمة وحدتها، وقيادتها، وسيادتها.

١٠ ـــ إعانة الإنسان على تحقيق ذاته:

لكن حسن أداء الإنسان لرسالته في الأرض وفق منهج الله، أي تحقيقه لذاته يقتضى إعداد الإنسان إعدادًا جيدًا، وشحذ كل استعداداته وقواه المدركة، الظاهرة والباطنة، إلى أقصى حد هيأها الله له. فالرجل لابد وأن يعد ويهيأ كي يكون رجلاً يقوم بمسؤولياته كرجل في العمل والإنتاج والبناء والتشييد وعمارة الحياة وترقيتها. والمرأة لابد وأن تعد وتهيأ كي تكون أنثى، وأمـًا، ومربية، ومديرة لمنزلها وأسرتها، وعاملة أيضـًا أو موظفة، فيما يناسبها من الأعمال، وذلك عند الضرورة.

ويتم إعداد الإنسان كي يحقق ذاته، ويحسن أداء رسالته وفق منهج الله، عن طريق التربية في الأسرة، والمدرسة، والنادي، والمجتمع. فإذا كان البيت هو أقوى هذه الوسائل الأربعة ـــ بحكم التصاق الناشئة به، وقضائهم فيه أطول فترة من طفولتهم وصباهم وشبابهم ـــ فإنه الآن قد تفكك

أو في طريقه إلى التفكك بسبب غياب عماد هذا البيت، وهو الأم في العمل أو غيره.

هنا تبرز المدرسة، بمناهجها المخططة وفق نظام دقيق لتحقيق أهداف محددة وواضحة، كأبرز مؤسسة تربوية في عصرنا الحاضر.

إن هذا يلقي على عاتق المنهج المدرسي عموماً، ومنهج العلوم الإنسانية واللغات على وجه الخصوص تبعة تربية البنت تؤهلها لكي تكون زوجة وأماً ومدبرة بيت، ومربية أجيال في المقام الأول. ثم يأتي أي شيء آخر بعد ذلك.

فمنهج التربية الإسلامية ـ في المجتمع المسلم الذي يلتزم بتنفيذ شريعة الله ـ هو ذلك المنهج الذي يساعد الفتاة على تحقيق ذاتها وفق الفطرة: «فطرة الله التي فطر الناس عليها»، وذلك عن طريق إعدادها في مرحلة الشباب الباكر لمهمتها العظيمة المرتقبة. فإذا جاء الزواج كانت مهيأة لدورها بطريقة ملائمة.

إن ما أراده الله فطرة لا ينبغي للبشر أن يحيدوا عنه، لأنهم حين يحيدون عنه يفسدون لا محالة. وبتحقيق فطرة الله في الإنسان، تتحقق الذات الإنسانية. وهذه هي المهمة الرئيسية لمنهج التربية الإسلامية.

والخلاصة أنه مما يشكل عظمة أمة الإسلام، وشرفها وامتيازها هو أن الله جعلها «أمة وسطاً».. قائمة على الإيمان بالله والأخوة في الله.. داعية إلى الخير.. آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.. أمة موحدة، متميزة بالتزامها بالقيام بمقتضيات كل هذا، وتبعاته، وتكاليفه.

لكن علاقة الأمة بالكون لا تستقيم أبداً طالما أن علاقتها بخالق الكون لا تسير في مسارها السليم. فعندما تفقد أمة حيثيات العظمة والشرف والامتياز التي أنيطت بها من قبل الله، فإنها تعزل عن قيادة الدنيا وزعامتها، كما حدث لبني إسرائيل عندما عزلهم الله عن القيادة وأسندها لأمة الإسلام التي توفرت فيها هذه الحيثيات اللازمة لإمامة الدنيا، وإقامة منهج الله في الأرض، وهو الهدف النهائي الذي من أجله أنشئت الجماعة المسلمة الأولى بيد الله وعلى عينه.

إن المسلم المعاصر بحاجة إلى أن يكون قادرًا على المساهمة بإيجابية وفاعلية في تحقيق هذه الأهداف التي بها تعلو أمة الإسلام كما كانت، وتقيم منهج الله في الأرض. **إن ذلك هو ماتقتضيه خلافة الأرض. فكيف نربي المسلم** كي يكون مؤهلاً للقيام بهذا الدور؟ وما دور مناهج العلوم الشرعية في تحقيقها؟

١١ــ إعداد المسلم للجهاد فى سبيل الله:

لابد من فهم الأجيال المسلمة لمفهوم الجهاد في سبيل الله. هل هو مجرد قتال الكافرين وحرب المعتدين، ودفاع عن المظلومين؟ أم أنه مفهوم أكبر وأشمل من كل هذا. إن مهمة مناهج التربية الإسلامية هي إيضاح هذا المفهوم نظريـًا وإعداد المسلم ــ عمليـًا ــ للجهاد فى سبيل الله.

أولاً: إن الإسلام هو رسالة السلام الحقيقية والعدل والطمأنينة. فالإسلام من السلام، وقد وضع للسلام. فتحية المسلمين ونهاية صلاتهم السلام، وتحيتهم في الجنة السلام، فالإسلام دين السلام: «**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلاك، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم**» (المائدة: ١٥ــ١٦).

والسلام الذي جاء الإسلام لإقراره في الأرض إنما جاء ليعالج ناحيتين هامتين وبين للناس فيهما وجه الحق. وهاتان الناحيتان ــ كما يقول الشيخ حسن البنا ــ **هما**: الناحية الأخوية الإسلامية والناحية الأخوية الإنسانية العامة[٢٤]. لقد جاء الإسلام فرأى الناس يتفاضلون ويتمايزون على أساس من اللحم والدم والقوم، والأرض والطين، فقرر أن هذا وهم باطل، وأن الناس جميعـًا لآدم، وآدم من تراب: «**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيرًا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبـًا**» (النساء: ١).

---

(٢٤) حسن البنا: حديث الثلاثاء، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ص ٤٢٦.

وبين أن التفاضل والاستعلاء إنما يكون بالتقوى والأعمال الصالحة: **«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»** (الحجرات: ١٣) فبالمعني الأول انتزع الكبر، وبالمعني الثاني انتزع الحمية، ووارى عصبية القبيلة، وعصبية الجنس، وعصبية الأرض. تلك العصبيات التي قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في شأنها لأصحابه: **«دعوها فإنها منتنة»**.. وقال لهم: **«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»**.

إذن فالجهاد في الإسلام قد شرع لحماية رسالة الإسلام القائمة على العدل والطمأنينة، والأخوة الإسلامية، والأخوة الإنسانية، التي تسمو بالإنسان ترفعاً عن نتن اللحم والدم، ولوثة الأرض والطين.

ثانياً: إن الإسلام هو خاتم الرسالات الإلهية للإنسان. وقد جاءت حينما بلغت البشرية سن الرشد. إن الإعتقاد بأن هذه الرسالة هي الخاتمة قد بث في الإنسان روح الثقة ببلوغه سن الرشد، وحفزه على التقدم في مضمار عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها، والاعتماد على العلم والتجربة في الحياة اليومية. فالإنسان ليس في حاجة اليوم إلى أن ينتظر وحياً جديداً من السماء فيرفع بصره إليها في حالة انتظار وترقب، وإنما حاجته اليوم أن يفكر وأن يستخدم مواهبه وطاقاته في استثمار طاقات الكون وكنوز الأرض لسعادته وترقية حياته. إن الاعتقاد بأن الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات يبعث في الإنسان روح الطموح والتقدم، ويحثه على استخدام مواهبه بكفاءة، ويعين له المجال السليم لكفاحه وكدحه[٢٥].

إنه لولا هذا الاعتقاد لفقد الإنسان ثقته بنفسه، وبقي في ريب دائم، وظل شاخصاً إلى السماء، بدلاً من أن يعمر في الأرض، وفقد ثقته بمستقبله، وثارت شكوك وشبهات حوله، ووقع فريسة المتنبئين على الدوام!

---

(٢٥) أبو الحسن علي الحسيني الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، الطبعة السادسة، دمشق، دار القلم، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥.

وظيفة الجهاد هنا هي الحفاظ على الرسالة الخاتمة، وتثبيت حاكميتها في الأرض، فهي مانزلت إلا لتحكم الحياة، وتنتظم شؤون الناس على أساسها، ويعم خيرها للبشرية جميعاً. فالجهاد هنا لحماية الناس من المتنبئين على الدوام الذين يؤكدون «أن الروضة الإنسانية كانت ناقصة، فجاءوا ليبلغوها إلى كمالها» ـ كما يقول زعيم القديانية! والجهاد أيضاً لحماية الناس من طغاة الأرض الذين نصبوا أنفسهم آلهة يشرعون، والناس عبيداً يطيعون. والجهاد حماية للرسالة الخاتمة من أصحاب الفلسفات والنظريات التي تنفي وجود الله أصلاً، أو في أحسن الأحوال تجعل لله ملكوت السماء، وتتصرف هي في ملكوت الأرض!

إن الجهاد هنا باختصار هو «لانتزاع سلطان الله المغتصب، ورده إلي الله، وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقومون منهم مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مقام العبيد.. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض»(٢٦).

أو بالتعبير بالقرآني:

«وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه» (الزخرف: ٨٤).

«إن الحكم إلا لله.. أمر ألا تعبدوا إلا إياه.. ذلك الدين القيم» (يوسف: ٤٠).

ثالثاً: تمتيع البشرية كلها بخير الإسلام ونعمته وعدله. «لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام، لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض من بعدها، ولتكون منهجاً عاماً للبشرية جميعاً، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق الله وفق هذا المنهج، المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله، ولغاية الوجود الإنساني، كما أوضحها القرآن الكريم، المنزل من عند الله، قيادتها للخير الذي لا خير غيره في مناهج الجاهلية جميعاً، ورفعها إلي هذا المستوى الذي لاتبلغه إلا في ظل هذا المنهج، وتمتيعها بهذه النعمة التي لاتعدلها نعمة، والتي تفقد

---

(٢٦) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص٦٧.

البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها، ولا يعتدي عليها معتد بأكثر من حرمانها من هذا الخير، والحيلولة بينها، وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال»[27].

ولما كان الله قد أرسل محمدًا برسالته الخاتمة إلى البشر كافة في جميع أقطار الأرض: «**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا**» (سبأ: ٢٨)، ولما كان الإسلام هو السلام للإنسانية جميعًا، ولما كان الله يريد للإنسانية أن تنعم بخيره ورحمته وهدايته، ولا يريد أن يكون ذلك وقفًا على قوم دون قوم، أو جنس دون جنس، فقد انبثق من ذلك ثلاثة حقوق تستوجب الجهاد في سبيل إقرارها:

١ـ «من حق البشرية أن تُبلَّغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل، وألاَّ تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال»، فالأمة المسلمة قد أناط الله بها مهمة حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعًا، ودفع الظلم والقهر الذي قد يحول دون ذلك، وكفالة القسط والعدل للبشرية كافة، ومقاومة الشر والفساد في الأرض، بحكم الوصاية الرشيدة التي ناطها الله بهذه الأمة: «**كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**» (آل عمران: ١١٠).. «**وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا**» (البقرة: ١٤٣).

٢ـ «ومن حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارًا في اعتناق هذا الدين لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة. فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها، وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان، وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان»[28]: «**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم**

---

(٢٧) سيد قطب في ظلال القرآن، الجزء الثاني، ص١٨٦.
(٢٨) المرجع السابق.

جميعًا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (يونس: ٩٩).. «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» (البقرة: ٢٥٦).

٣ـ ومن حق هؤلاء الذين هداهم الله فاعتنقوا هذه الدعوة، «من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة، لا بالأذى، ولا بالإغراء، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى، وتعويقهم عن الاستجابة. وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة، ضمانًا لحرية العقيدة، وكفالة لأمن الذين هداهم الله، وإقرارًا لمنهج الله في الحياة، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام»(٢٩).

وينشأ عن هذه الحقوق ثلاثة واجبات علي الجماعة المسلمة: الأول «هو تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها وأن تظل تجاهد حتي تصبح الفتنة للمؤمنين غير ممكنة لقوة في الأرض، ويكون الدين لله.. لا بمعنى إكراه الناس علي الإيمان.. لكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين الله.. وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله ويضلهم عن سبيل الله، بأية وسيلة وبأية أداة.

والواجب الثاني أن يعلم المسلمون أنهم لا ينصرون بعددهم، ولا ينصرون بعدتهم وعتادهم، إنما هم ينصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون الله لهم، فإذا هم تخلوا عن توجيه الله لهم، وتوجيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه.

والواجب الثالث، أن يدرك المسلمون أن الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره ويثبت عليه، ويعتبر الذين قتلوا في سبيله شهداء، والذين يحتملون أعباءه أولياء، هو الجهاد في سبيل الله: أي الجهاد في سبيل

---

(٢٩) المرجع السابق، ص ١٨٧.

العقيدة، لحمايتها من الحصار، وحمايتها من الفتنة، وحماية نظامها ومنهجها في الحياة: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم».

«إنه القتال لله، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة القتال في سبيل الله، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغانم والمكاسب ولا في سبيل الأسواق والخامات، ولا سبيل تسويد طبقة علي طبقة أو جنس علي جنس.. إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام. القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإقرار منهجه في الحياة، وحماية للمؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام» (٣٠).

هنا بعد أن عرضنا التصور الإسلامي لدواعي الجهاد، وحقوق الإنسانية على الأمة المسلمة، وواجبات الأمة المسلمة نحو عقيدتهم ومنهجهم ونحو الإنسانية جميعًا — أقول: هنا يبرز السؤال التالي: هل الجهاد هو مجرد القتال، أم أن مفهومه أوسع وأشمل من ذلك؟

الحقيقة أن الجهاد في الميدان ما هو إلا لون من ألوان الجهاد الكثيرة: فطلب العلم النافع الذي تعمر به الحياة وترقى جهاد في سبيل الله، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ويقول: **«اللهم علمني ما ينفعني، وانفعني بما علمتني»**. وكان — عليه الصلاة والسلام — يعتبر طالب مجاهدًا في سبيل الله: **«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»** (رواه الترمذى).

ويربط الحق — سبحانه — التفقه في الدين — وهو قمة العلم — بالحركة الإيجابية الفاعلة: **«وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم. إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»**. «إن المؤمنين لا ينفرون كافة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة — على

---

(٣٠) المرجع السابق.

التناوب – لتتفقه في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته ومافقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة».

«إن هذا الدين منهج حركي، لايفقهه إلامن يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به.. ولعل هذا عكس مايتبادر إلى الذهن، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة، هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين! ولكن هذا وهم، لايتفق مع طبيعة هذا الدين.. إن الحركة هي قوام هذا الدين، ومن ثم لايفقهه إلا الذين يتحركون به، ويجاهدون لتقريره في واقع الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده، بتحكيم شريعة الله وحدها، وطرد **شرائع الطواغيت»**(٣١).

وجهاد النفس لون من أشق ألوان الجهاد، لأنه جهاد ضد النفس الأمارة بالسوء، والهوى الغلاب، والغريزة الطاغية، والشهوة المنحرفة، والمواريث الساقطة، والتقاليد الهابطة، والعادات السيئة، والثقافات المنحرفة الوافدة».. والصبر علي الفترات التي يعلو فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر! والصبر علي طول الطريق وبعد المشقة وكثرة العقبات فى طريق محفوف بالمكاره.

إن هذا اللون من الجهاد هو الذي يحدث تفاعلاً داخليًا وخارجيًا يتولد عنه إنسان متميز متبوعًا لاتابعًا، ورأسًا لاذليلاً، ومغيرًا بإرادته وطاقاته التي منحه الله إياها، وليس مجرد ترسًا في عجلة الحتمية التاريخية أو الحتمية المادية أو أية حتمية أخرى!

وحين يفقد المسلم هذا اللون من جهاد النفس، فإنه يتحول إلي مسخ مشوه للإسلام ولكل الفلسفات والنظريات الأخرى، فتجد المسلم

---

(٣١) المرجع السابق: الجزء الحادى عشر، ص ١٧٣٤–١٧٣٥.

الإشتراكي، والمسلم الشيوعي، والمسلم الرأسمالي، والمسلم الوجودي، وهلم جرا..!

ومن أهم ألوان الجهاد المطلوبة اليوم، الجهاد الاجتماعي. أي الجهاد من أجل تعديل أوضاع المجتمع المسلم التي انحرفت عن طريق الله. ويكون ذلك عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة. إنه من الضروري أن نتعامل بإيجابية وفاعلية من أجل تصحيح الأوضاع الاجتماعية التي لا تستقيم مع منهج الله. فالاستغلال ـ ضد التوحيد ـ والتفاوت الاجتماعي البغيض ضد التوحيد والجوع الكافر قد لا يترك للمرء لحظة يتذكر فيها الله. ولذلك كان التوحيد النقي دائماً حرباً علي الجوع والاستغلال.

والاستبداد يتنافى مع منهج الله تماماً، لأن الاستبداد في جوهره تقزيم للذات البشرية وحصر لدائرة تطلعاتها، وإنكار لمبدأ المساواة والعدالة بين الناس.. القهر السياسي يتصادم بالضرورة مع تكريم الله للإنسان، لأنه يحرم الإنسان من اكتشاف حقيقة الوجود، والاستقامة مع مقتضياتها، فالإنسان ـ حينئذ ـ يستبدل الخوف من الله بالخوف من البوليس، واستشعار رقابة الله، بالاحتياط من رقابة المخابرات!(٣٢).

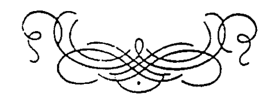
وإذا كان المجتمع الإنساني كله في كل مكان وزمان هو موضع للدعوة، والجهاد في سبيلها فإن ذلك يستوجب ضرورة أن يتطور مفهوم الجهاد طبقاً لظروف المجتمع ومتطلبات العصر وحاجات الناس ومشكلاتهم، فهو ليس مجرد قتال من أجل الدعوة في ميدان القتال، وإنما هو أيضاً جد في طلب العلم، وإحسان في العمل، وإحسان في تربية الأجيال، وبذل للنفس، وبذل للمال.. وهكذا كل نشاط تستقيم به حياة الإنسان على منهج الله، هو جهاد في سبيل الله.

إن العمل المخلص من أجل توحيد أقطار الأمة حول كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» هو أكبر ألوان الجهاد ضرورة ومشقة هذه الأيام.

---

(٣٢) حسن أيوب: الجهاد والفدائية في الإسلام: بيروت، دار الندوة الجديدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص ٣٢.

إننا لانستطيع أن نتعامل ونحن مفككين مشتتين مع غير المسلمين المتحدين الذين قال الله فيهم : « **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** » إنهم مجتمعات لاتتحرك كأفراد ، وإنما ككائن عضوي ، تندفع أعضاؤه ، بطبيعة وجوده وتكوينه ، للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه ، فهم بعضهم أولياء بعض طبعاً وحكماً .. ومن ثم لايملك الإسلام أن يواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص .. ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى .. « **إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** » (الأنفال : ٧٣) .



الفصل الرابع

محتوى منهج العلوم الشرعية

محتوى المنهج في التصور الإسلامي

إذا كان الهدف النهائي لمنهج تربية المسلم في التصور الإسلامي هو بناء الإنسان الصالح المؤمن بالله وبالأخوة في الله، والقادر على المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله، وبذلك يحقق للأمة وسطيتها، وشهادتها على الناس، ويحقق لها وحدتها، وتميزها أقول: إذا كان هذا هو الهدف، فإنه لا يتم إلا من خلال محتوى يتم اختياره بعناية ودقة لهذا الغرض.

مصادر المحتوى:

والمحتوى هو مجموعة الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعارف والمهارات والخبرات الإنسانية المتغيرة بتغير الزمان، والمكان، وحاجات الناس، التي يحتك المتعلم بها، ويتفاعل معها، من أجل تحقيق الأهداف التربوية المنشودة منه.

ولما كان الكون من حولنا محسوس، وغير محسوس، أي غيب وشهود، فإن العلم تختلف مصادره في منهج التربية الإسلامية باختلاف نوع المعلوم.

فالغيب مصدر العلم به هو الوحي الصادق من صاحب الغيب، سبحانه وتعالى. أي من القرآن والسنة: **«كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»** (ص: ٣٩)، **«لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسنتي»** (متفق عليه).

أما المحسوس أو المشهود فسبيله الملاحظة، والتجربة، والخبر أيضاً. لأن المحسوس الذي غاب عنا لا مصدر للعلم به إلا الخبر عنه. وهذا هو أحد أهداف قراءة التاريخ. وتصحيح العلم عن طريق الخبر، يكون بالاحتكام إلى قوانين الله ونواميسه التي تحكم الأشياء. كما يكون تحقيق الخبر عن طريق الاستقراء والاستنباط، والملاحظة والتجربة.

فلولا أن الله زودنا بالطاقات التي تساعدنا على القيام بكل هذه العمليات لما استطاع الإنسان أن ينشئ كل هذا العمران، وأن يصل إلى درجة التقدم المادي الذي وصل إليه الآن.

طرائق اختيار المحتوى:

يتم اختيار المحتوى بطرائق ثلاث: **الطريقة الأولى** هي الطريقة التي تعتمد على تحديد حاجات الدارسين ومشكلاتهم، والمعارف والمهارات التي يحتاجون إليها في حياتهم وأعمالهم وبناء على ذلك يتم اختيار المحتوى الذي يحقق هذه الحاجات للدارسين ويساعدهم على تحقيق ذواتهم وفق فطرة الله فيهم ذكوراً وإناثاً.

والطريقة الثانية، هي التي تهتم بتحديد مطالب المادة التعليمية، كاللغة أو الرياضيات.. إلخ. أكثر من اهتمامها بحاجات الدارسين. فالترتيب المنطقي للمواد الدراسية وكل المعارف والمعلومات والتطورات التي حدثت للمادة الدراسية يجب أن يكون متضمناً في محتوى المنهج. وهذه الطريقة غالباً ما ترفع قيمة المادة الدراسية والمعرفة، والمعلومات على قيمة الإنسان المتعلم، وحاجاته ومشكلاته ومطالبه.

والطريقة الثالثة، هي طريقة اختيار محتوى المنهج عن طريق الخبراء في كل مجال من مجالات المعرفة. فهؤلاء يستخدمون خبراتهم الطويلة في اختيار محتوى المنهج كل في مجال تخصصه.

ومنهج التربية الإسلامية يركز علي الطريقة الأولي التي تهتم بالإنسان المتعلم، وتعتبر أن قيمته تعلو على كل شيء، وأنه سبب المنهج، والمقصد من بنائه، وأن كل شيء يجب أن يسخر لخدمته، فالله سبحانه وتعالى، قد

سخر الكون كله لخدمته: «**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه**» (الجاثية: ١٣).

إن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، وهو المكلف بتنفيذ منهج الله فيها. وهو المخلوق الوحيد الذي يعبد الله بإرادته الحرة. ولذلك فلا يجب أن تعلو قيمة أي شيء على قيمته.. بل ويجب أن يسخر كل شيء لخدمته. فحتى نزول القرآن من رب العالمين، جاء محققًا لهذا المعنى: «**وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلا**» (الإسراء: ١٠٦) فقد نزل القرآن، مقسطًا، على مكث.. حلاً لمشكلات الحياة، وتبيانًا لقوانينها، ووضعًا لنظامها. فالناس، وحياة الناس، لا الأشياء، هي مهمة المنهج. ولذلك فإن تلبية مطالب وحاجات الإنسان الذي يقوم على تنفيذ منهج الله، هي المعيار الأساسي في اختيار محتوى المنهج.

لكن منهج التربية الإسلامية إذ يركز على الطريقة الأولى التي تهتم بالإنسان المتعلم، فهو يسخر مميزات الطريقتين الأخريين لتحقيق هذا الغرض. فمنهج التربية في التصور الإسلامي يعتمد على المتخصصين أو «أهل الذكر» في كل مجال من مجالات المعرفة: «**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**» (النحل: ٤٣)، وأهل الخبرة: «**فاسأل به خبيرا**» (الفرقان: ٢٥) «**ولا ينبئك مثل خبير**» (فاطر: ٣٥). كما أنه يبحث عن كل معرفة مفيدة مهما كان مصدرها: «**فالحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها**» كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام.

معايير صلاحية المحتوى:

ومحتوى منهج التربية في التصور الإسلامي ــ عمومًا ــ ومناهج العلوم الشرعية على وجه الخصوص، تحكمه مجموعة من المعايير التي يجب أن تتوفر فيه، وأهم هذه المعايير ما يلي:

أولاً: أن يكون متسقًا مع التصور الإسلامي شكلاً ومضمونًا، فلا يكون فيه ما يخالف القرآن والسنة نصًا أو روحًا.

ثانيـًا: أن يكـون هـذا المحتوى محققـًا للأهداف العامة التى سبق ذكرها. وهذا يعني:

١ــ أن يعمق شعور الإيمان بالله والأخوة في الله قولاً وعملاً.

٢ــ أن يعمق فهم حقيقة الألوهية والفروق بينها وبين حقيقة العبودية.

٣ــ أن يعمق فهم حقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة.

٤ــ أن يعين المتعلمين ــ صغارًا وكبارًا ــ على تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس.

٥ــ أن يعين المتعلمين على الحفاظ على تميز الأمة الإسلامية بعقيدتها ومنهجها، وعلى البعد عن التقليد الأعمى والجري وراء الموضات الفكرية والمادية.

٦ــ أن يعمل على تعميق مشاعر الوحدة والترابط ونبذ الفرقة والتنازع بين أبناء الأمة.

٧ــ أن يسهم في مساعدة الإنسان المسلم ــ ذكرًا كان أم أنثى ــ على تحقيق ذاته وفق فطرة الله فيه.

٨ــ أن يساهم في إعداد شباب الأمة للجهاد في سبيل الله، لا في سبيل أي شيء آخر، وتحت راية لا إله إلا الله، لا تحت أية راية أخرى.

٩ــ أن يحقق الأهداف الخاصة لكل مادة، وكل علم وكل فن، وفقـًا لطبيعته الخاصة، بما لا يتناقض مع التصور الإسلامي العام، ولا الأهداف السابقة.

ثالثـًا: أن يكون محتوى المنهج شاملاً ومتكاملاً.. وهذا يعني ضرورة أن تكون الحقائق والمعايير والقيم الثابتة، وكذلك المعارف والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة، متكاملة أفقيـًا: فما يقدم في كل علم وكل فن وكل مادة في مرحلة معينة أو لمستوى معين لابد أن يكون مترابطـًا ومتكاملاً، يعضد بعضه بعضـًا، ويكمل بعضه بعضـًا. ولابد أن يكون مترابطـًا رأسيـًا أيضـًا. بمعنى أن ما يقدم في المراحل المتتابعة لابد أن يكون شاملاً

ومتكاملاً، ومتدرجًا من العموم إلى الخصوص[1] ومن البسيط إلى العميق.

وخاصية الشمول هذه لا تتوفر إلا لمنهج مثل المنهج الإسلامي، الذي ينطلق من قاعدة واحدة وتصور واحد، ويهدف إلى غايات ومقاصد محددة، مع اختلاف الأساليب والطرائق في تحقيقها.

رابعًا: أن يكون المحتوى مناسبًا لنوعيات المتعلمين صغارًا وكبارًا:

ففي المدرسة الإبتدائية، يكون التركيز على تكوين المفاهيم الجوهرية، كمفهوم حقيقة الألوهية، ومفهوم الكون، ومفهوم الإنسان والطبيعة الإنسانية، ومفهوم الحياة.

كما يجب أن يركز المحتوى أيضًا على تربية الضمير والوجدان من خلال الحقائق والمعايير والقيم الإلـٰهية الثابتة، وعن طريق القدوة، والتلقين، والتقليد، ثم التفكير الإسلامي المنظم.

وفي المرحلتين المتوسطة والثانوية، يبدأ تساؤل الطلاب عن مصدرهم ومصيرهم، وعلاقتهم بالكون من حولهم، ووظيفتهم في الحياة. وهنا تبرز أهمية تعميق التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون والإنسان والحياة، وطبيعة موقف الإنسان من الكون وعلاقته بالحياة غيبها وشهودها.. هنا يبدو التلاميذ مشتاقين إلى معرفة النظم التي تحكم العالم من حولهم، وطبيعة النظام الذي يعيشون فيه. وهنا تبدو أهمية دراسة الشريعة والقانون، والاقتصاد، والسياسة والتاريخ والجغرافيا والطبيعة الإنسانية في التصور الإسلامي في هذه المرحلة العمرية يختل توازن عمليات النمو لدى التلاميذ. ووظيفة المنهج هي محاولة إعادة التوازن، والتقليل من الإضطرابات، وتقبل الأوضاع التي تطرأ، والتعمق في فهم فطرة الإنسان وطبيعته البشرية التي طبعه الله عليها.

---

(١) راجع خاصية الشمول في مفهوم المنهج، في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

هنا مرحلة اختيار الأصدقاء والأصحاب، وتنمية الولاءات وتنمية مهارات العمل وقوانينه والإحسان فيه. وهنا تظهر أهمية غرس قيم الحرية والمسؤولية، والعلم، والعدل، والوحدة، والجهاد، والتعاون والتراحم والتكافل.. في هذه المرحلة تظهر المسألة الجنسية بصورة حادة. ومن الخطأ القيام بأي نشاط يؤدي إلى كبت الدوافع الجنسية أو استقذارها. والمطلوب من المنهج هو تهيئة الفرص أمام الطلاب لتصريف طاقاتهم بالانشغال في الأعمال المدرسية والاجتماعية الإيجابية البناءة. فالبيئة الغنية بالأعمال الصالحة تخفف من حدة الجنس إلى حد كبير. ومن المهم هنا أيضاً إحاطة التلاميذ بجو نفسي واجتماعي فاضل وتهيئة الفرص أمامهم لتوجيه قواهم وطاقاتهم في الدراسات الجادة والأعمال النافعة.

أما بالنسبة للكبار في برامج ومناهج تعليم الكبار، فمن الثابت تاريخياً أن الإسلام بدأ بالكبار في بناء المجتمع المتحضر الإسلامي، حيث إنهم هم المكلفون والقادرون على الفهم والإفهام في حياتهم وفي تنظيماتهم. وانطلاقاً من هذا الأساس فإن أهم ما يجب أن يتصف به محتوى منهج تعليم الكبار في التصور الإسلامي هو ما يلي:

١ــ أن يكون محتوى حضارياً شاملاً.
٢ــ أن يكون نظرياً وعملياً معاً.
٣ــ أن يهتم بحاجات الكبار ومشكلاتهم.
٤ــ أن يركز على الاتجاهات والقيم والمفاهيم.
٥ــ أن يكون غنياً بالخبرات المتنوعة (٢).

خامساً: أن يكون المحتوى نظرياً وتطبيقياً

إن التصور الإسلامي للمعرفة، هو أن تكون نظرية وعملية معاً. فالمعرفة «الذهنية» التي لا تتحول إلى سلوك عملي هي معرفة ميتة لا يعتد بها.

---

(٢) المزيد من التفصيل في هذه النقاط انظر كتاب «نظريات المناهج العامة»، عمان، دار الفرقان، ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م.

روى ابن سعد في طبقاته أن أبا عبدالرحمن السلمي قال: «إنا أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر، حتى يعلموا ما فيهن، و يعملوا بهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به.. وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم، بل لا يجاوز حلوقهم»!

ودلالة هذا أن المعرفة النظرية المجردة، ليست هي المعرفة التي يعتد بها منهج التربية في التصور الإسلامي، لأنها معرفة سطحية وميتة، لا تفعل **شيئًا في واقع الحياة، ولاترقي سلوك الإنسان، إذن فوجودها وعدمه سواء.** إن هذا يعني أيضًا أن محتوى منهج التربية يجب أن يزود المتعلمين، بالحقائق والمفاهيم والمهارات والخبرات التي تزيد من إيجابيتهم وفاعليتهم في القيام بإعمار الأرض، وترقية الحياة علي ظهرها، وهذا هو مقتضي العبادة، ومقتضى الخلافة في الأرض.

«يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» (الصف: ٦١). إن الإسلام يبتغي الحركة من وراء المعرفة. و يبتغي أن تستحيل هذه المعرفة إلى قوة دافعة، لتحقيق مدلولها في عالم الواقع. و بذلك يرتبط الإيمان بالله بتنفيذ منهجه، وترتبط المعرفة بالعمل والسلوك في واقع الحياة.

محتوى منهج العلوم الشرعية وتنظيمه

المشكلة:

يحتوى منهج العلوم الشرعية في مراحل التعليم العام على نصوص مختلفة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية المطهرة، والفقه، والتوحيد، والسيرة النبوية الشريفة.

ولكل مادة من هذه المواد نصوص مختارة، يحتويها كتاب خاص. وطبعًا تختلف هذه الكتب باختلاف الصفوف الدراسية فالطالب عادة يدرس في

منهج مواد العقيدة والشريعة عددًا من الكتب يتراوح ما بين ثلاثة من الكتب في الصفوف الأولى إلى خمسة في الصفوف المتأخرة.

وتتمثل المشكلة هنا في ثلاثة أمور على جانب كبير من الأهمية:

الأمر الأول هو:

كثرة تفريع هذه المادة إلى فروع كثيرة، الأمر الذي أضاع وحده المعرفة الإسلامية وتكاملها، وفوت عليها تحقيق أهدافها.

الأمر الثانى هو:

عدم التوفيق في اختيار النصوص والمواد المختلفة من القرآن والحديث **والفقه والتوحيد والسيرة، وهو الأمر الذي فوت على هذا المنهج أن يكون** أكثر قبولاً ونفعًا لدى الدارسين صغارًا وكبارًا.

الأمر الثالث هو:

أن ما سبق يساعد على عدم فهم التلاميذ لطبيعة التصور الإسلامي للكون، والإنسان، والحياة، وهو التصور النابع من الحقيقة الإلهية، والعائد إليها. وبدون هذا الفهم يصير التلميذ قاصرًا في فهمه لطبيعة مركزه في **الكون، ولطبيعة وظيفته في الحياة. وهذا التجزئ والتفريع، وعدم التوفيق** في اختيار مواد العقيدة والشريعة ونصوصها المناسبة، قد ألحق ضررًا كبيرًا بنفوس الطلاب ــ خاصة المبتدئين منهم، حيث لم تقدم المواد والنصوص **متكاملة أو مترابطة الأجزاء، بل شُتِّتت ووزعت ومزقت إلى فروع صغيرة،** في شكل كتب مستقلة، ودُرِّست في حصص منفصلة، وعلى يد مدرسين متعددين، تخصص كل منهم في فرع من فروع المنهج، وحبس نفسه فيه، وحبس معه طلابه، فلا يسمح لهم بتخطي أسواره، ليستكملوا فهم ما هم بصدده من حقائق علمية كبيرة!

---

(٣) انظر: ابراهيم محمد الشافعي: التربية الإسلامية وطرق تدريسها: الكويت، مكتبة الفلاح، ط٢، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ص٨٣.

وربما كان أسرع مثال واحد على ذلك هو أن الطلاب يدرسون «الصلاة» في فرع «الفقه» في صف من صفوف الدراسة، و يدرسون الأحاديث النبوية الخاصة بالصلاة في صف آخر، و يدرسون «تفسير الآيات القرآنية» المتعلقة بالصلاة في صف ثالث، أي أنهم يدرسون كل جزء من أجزاء هذه الشعيرة من خلال الفروع المختلفة، وفي أعوام مختلفة، وكل هذا لا يساعد على تحقيق الربط، ولا على تحقيق التكامل (٤).

وهناك عوامل أخرى ساعدت على تجسيم هذه المشكلة في النظم التربوية في أقطار الأمة المختلفة. وربما كان أهم هذه العوامل ما يلي:

١ـــ عدم وجود شعبة أو قسم متخصص لتدريس مواد العقيدة والشريعة ونصوصها في كل كليات التربية وكليات الآداب ـــ وهي الكليات التي تخرج المدرسين ـــ على امتداد أقطار الأمة، بينما توجد شعب وتخصصات قائمة بذاتها لمناهج اللغات الأجنبية، والعلوم والرياضيات، والتربية الفنية، والتربية البدنية، والتاريخ، والجغرافيا وعلم النفس.. إلخ! والاستثناء الوحيد من ذلك يتمثل في الأزهر في مصر، وفي جامعات المملكة العربية السعودية. وقد نتج عن ذلك أن أنيط تدريس مواد العقيدة والشريعة لمدرسي اللغة العربية الذين لم يعدوا لتدريس هذه المواد، ولم يتدربوا على ذلك!

٢ـــ ندرة وجود القادة التربويين المتخصصين والمؤهلين أكاديمياً ومهنياً في مجال مناهج علوم العقيدة والشريعة، من حيث تصميم هذه المناهج، ومتابعة تنفيذها، وتطويرها. فالواقع أن معظم الخبراء الحاليين في هذا المجال إذا كانوا معدين أكاديمياً، فهم ليسوا معدين مهنياً. وهو الأمر الذي ساهم في إحداث كثير من الخلط واللبس في تصميم، وتنفيذ، وتطوير هذه المناهج.

٣ـــ ولقد ترتب على العاملين السابقين عامل ثالث، هو ندرة الدراسات والبحوث العلمية التي تسهم في دراسة مشكلات الواقع، ووضع الحلول

(٤) المرجع السابق، ص ٨٤.

البديلة ، واقتراح الطرائق والأساليب التي تسهم في تطوير وترقية العمل في هذا المجال .

الحلول المقترحة :

لقد دارت معظم الحلول المقترحة لبناء محتوى منهج علوم العقيدة والشريعة ونصوصها حول تنظيم « الوحدة » . حيث يتم اختيار آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وموضوعات التوحيد والفقه ، ومواقف من السيرة النبوية الشريفة ، ومن حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، حول موضوع واحد ، يتم دراسته بطريقة الوحدة والتكامل بين جوانب الموضوع والتدليل عليه بالنصوص المختلفة .

ويقيم أصحاب هذا الاقتراح وجهة نظرهم على أساس أن العقل البشري ميال بطبيعته لدراسة الموضوع من جميع جوانبه الممكنة ، ولربط الخبرات والحقائق المتصلة به ببعضها البعض . ويضيفون إلى ذلك أن هذا هو أسلوب سلفنا الصالح في التأليف ، وفي عملية التعليم والتعلم . فقد كانوا يتناولون القضايا التي يتصدرون لها من النواحي العقدية والشرعية . ويدللون عليها من الكتاب والسنة وآراء العلماء ، بل ومن المواقف والأخبار والأشعار .. الخ . إضافة إلى هذا فإن البحوث والدراسات الحديثة تؤكد على أهمية الترابط والتكامل ، خاصة إذا كانت المواد والنصوص تنتمي إلى أصول واحدة كمواد العقيدة والشريعة ونصوصها .

وهكذا يميل أصحاب هذا الاتجاه إلى إيجاد نوع من الوحدة والترابط بين مجموعة الحقائق المتناثرة ، وتجميعها حول موضوع واحد كبير ، كالصلاة أو الصوم ، أو الزكاة ، أو الحج ، أو نظام الأسرة ، أو نظام السياسة ، أو نظام الاقتصاد ، أو نظام التربية .. الخ . بحيث يدرس كل موضوع من هذه الموضوعات دراسة واسعة عميقة على مستوى الطلاب المقرر عليهم ، وبحيث يكون قد اتضحت أصوله كلها من آيات القرآن وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن الناحية العقدية ، والناحية التشريعية الفقهية . وهذا

الاقتراح ــ بدون شك ــ يمثل خطوة هامة نحو تصميم ، وتنفيذ ، وتطوير منهج علوم العقيدة والشريعة .

تصور مقترح :

وبالرغم من ذلك ، فإن الاقتراح السابق يظل حلاً جزئيًا داخل إطار التصور الواسع الذي نطمح إليه . فإذا تصورنا أن الهدف العام والرئيسي لمناهج التربية الإسلامية بصفة عامة ، ولمنهج علوم العقيدة والشريعة على وجه الخصوص ، هو إيضاح طبيعة التصور الإسلامي . هذا التصور الذي يبدأ من الحقيقة الإلٰهية ، وبها ، ويبين طبيعة الكون : غيبه وشهوده ، وطبيعة الحياة : غيبها وشهودها ، وطبيعة الإنسان ، ومركزه في الكون ، ووظيفته في الحياة .. إذا تصورنا هذا ، فإن أي عمل لا يبدأ بهذا التصور ولا يهدف إلى إيضاح مكوناته ، يكون عملاً فاشلاً ، أو قاصرًا ، أو معرضًا للضلال على أقل تقدير .

وتتضح أهمية أن تكون البداية دائمًا في مناهج التربية الإسلامية بإيضاح هذا التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة في أمرين هامين :

١ ــ أن إيضاح هذا التصور ــ من البداية ــ هو الضمان الوحيد لتثبيت مقومات التصور الإسلامي وخصائصه التي تحدد ملامحه الربانية ، وتميزه عن التصورات والمناهج والفلسفات الأخرى ، وبذلك يتم الحفاظ على المجتمع المسلم من الذوبان في المجتمعات الأخرى ، التي جاء الإسلام أصلاً لهديها وقيادتها إلى الله .

٢ ــ أن إيضاح هذا التصور ــ مع التدرج في تعميق فهمه ــ هو العامل الحاسم في انتشال الدارسين ــ كبارًا أو صغارًا ــ من الشعور بأنهم فلتة في الكون ضائعة ، لا تدري من أين جاءت ، وإلى أين مصيرها . فإيضاح التصور هو الذي يحدد للطلاب مركزهم الكريم في الكون ، ووظيفتهم العظيمة في الحياة كخلفاء في الأرض لإعمارها وترقية الحياة على ظهرها ، وفق منهج الله .

إن شعور الإنسان بأن له تصورًا خاصًا للحياة، هو الذي يحدد قيم الحياة في نظره، و يلون تأثيراته بهذه القيم «فعمر الخيام مثلاً، كان له تصور معين للحياة والإرتباطات فيها بين الإنسان والكون. ومن هذا التصور انبعثت كل إيقاعاته، وتلونت قيم الحياة في نفسه. «لقد تصور الكون كتابًا مغلقًا، لا ينفذ العلم البشري إلى سطر واحد من سطوره، وغيبًا مجهولاً يقف الإنسان أمام بابه الوحيد يدقه بلا جدوى. وفي هذا التيه، لا يعلم الإنسان من أين جاء، ولماذا جاء؟ ولا يدري أين يذهب ولا يستشار في الذهاب!

لبست ثوب العيش لم أستشر   وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمي ولم   أدرك لماذا جئت أين المفر!
أفنيت عمري في اكتناه الفضاء   وكشف ما يحجبه في الخفاء
فلم أجد أسراره وانقضى   عمري وأحسست دبيب الفناء

من هذا التصور الخاص للعلاقة بين الإنسان والكون، استمد الخيام كل تصوراته لقيم الحياة التي تأثر بها فنه. فهذه الحياة المجهولة المصدر والمصير، في هذا العماء الذي يعيش فيه الإنسان، لا تستحق أن يحفلها و يعني نفسه بها. وإذن فلاضرورة للوعي الذي لا يؤدي إلى شيء.

أفق وصب الخمرة أنعم بها   واكشف خبايا النفس من حجبها
وروِّ أوصالي بها قبلما   يصاغ دن الخمر من تربها
سأنتحي الموت حثيث الورود   و ينمحي اسمي من سجل الوجود
هات اسقنيها ياسنى خاطري   فغاية الأيام طول الهجود

«ولو اختلف تصور الخيام للحياة والارتباطات فيها بين الإنسان والكون، لاختلفت قيمها في حسه، واختلف اتجاهه الفني بكل توكيد. لو تصور مثلاً أنه قطرة في نهر الحياة، لكنها قطرة تحس بأهداف النهر، من المضي والتدفق والإرواء والإحياء، لكان للحياة في نظره قيم أخرى. ولو تصور أنه نفخه من روح الله تلبست بجسده، ليكون خليفة الله في هذه

الأرض، ينشئ فيها ويبدع، لكان للحياة في نظره فيم اخرى»(٥)
وهكذا، لو اهتمت مناهج التربية الإسلامية، وخاصة مناهج العلوم الشرعية بإيضاح طبيعة التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة، وطبيعة العلاقات والارتباطات بينها، لقل وجود أمثال عمر الخيام، وإيليا أبوماضي، وهم كثيرون! فلأدونيس إله ميت، ولصلاح عبد الصبور إله صغير، وأدونيس يريد قتل الله، وأحمد دمن الشاعر البحريني يريد حشر الله في المقصلة، وأمل دنقل يمجد الشيطان، وتوفيق الحكيم جعل الشيطان شهيدًا، وجعل للفن إلهًا، كما فعل أفلاطون عندما جعل للشعر ربة!.. كل هذه التصورات المنحرفة، كان من الممكن تلافيها لو تربى الإنسان من صغره على فهم طبيعة التصور الإسلامي، لحقائق الألوهية والكون والإنسان والحياة.

واعتقد أن طبيعة التصور الإسلامي تتطلب أن تكون المحاور الرئيسية للدراسة على النحو التالي:

المحور الأول:

حقيقة الألوهية: هنا يتم تناول قضايا الإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. كما يتم تناول الحقيقة الإلهية كمصدر للخلق، وصفات القدرة، والإرادة، والعلم.. الخ. وهنا تترابط النصوص وتتشابك من القرآن والسنة، والتوحيد، والفقه، والسيرة.. إلخ.

المحور الثاني:

ويتناول حقيقة الكون: غيبه وشهوده، وحقيقة الإيمان بالكون المغيب، والمشهود، وكيفية التفكير والدراسة في كل منهما على نحو ما سبق عرضه في الفصول السابقة في أسس المنهج. وهنا تتعاضد كل نصوص العقيدة والشريعة.

---

(٥) سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٧هـ—١٩٨٧م، ص١٢—١٤.

المحور الثالث:

ويتناول الإنسان، حقيقة فطرته، وطبيعته الإنسانية ومكوناتها، ومركز الإنسان في الكون، وآيات تكريم الله له، وكيفية تصميم الله للكون ليناسب حياة الإنسان وحاجاته ومطالبه التي تتناسب مع فطرة الله فيه. وألوان تعبده ابتداء من الشعائر الرئيسية كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، إلى كل نشاطه في الحياة.

المحور الرابع:

ويشمل الحياة الدنيا والآخرة، والارتباط الوثيق بينهما، وقيمة الإيمان بالآخرة. كما تدرس في الحياة الدنيا نظمها السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والتربوية. مع إبراز دور الإنسان في الحياة كخليفة لله في الأرض. ومع إبراز أن مقتضى الخلافة أن يقوم الإنسان على عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله. وإبراز دور العلم، والعدل، والحرية، والشورى، والعمل في إقامة نظم الحياة، والاستقامة على منهج الله.. الخ.

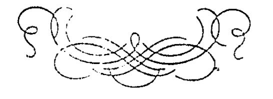
في كل ما سبق ـ بالطبع ـ لابد من مراعاة مجموعة من الضوابط، أهمها ما يلي:

١ ـ التدرج، أي اعتبار حاجات المتعلمين، وقدراتهم في كل مرحلة عمرية. والتركيز في كل مرحلة على الجوانب التي تتناسب مع النمو في جوانب شخصياتهم، وأنواع التكاليف والعبادات التي تناسب كل مرحلة.

٢ ـ مطالب المجتمع ومشكلاته، لا شك أن كل مرحلة عمرية يسود بين أبنائها إحساس بلون من ألوان المشكلات الإجتماعية أكثر من غيرها. وهنا يكون محل التركيز والاهتمام. ولا شك أن كل مجتمع له مشكلاته الخاصة، التي تختلف كمًا وكيفًا عن غيره من المجتمعات، وهنا يكون محل التركيز ومعيار الانتقاء والاختيار.

٣ ــ الوحدة والترابط في عرض الأفكار، وفي الجمع بين مختلف مواد العقيدة والشريعة. وهنا تأتي أهمية المقترح السابق، الخاص بتدريس الموضوعات في صورة وحدات موثقة بنصوص من القرآن، والسنة، والتوحيد، والفقه والسيرة إلى آخره.

نحن نأخذ بهذا المقترح الآن مؤقتًا في الفقه والتوحيد فقط لكننا لا نعتبره تصورًا يحل المشكلة. لأن كل ما يحدثه هذا الاقتراح هو أنه يحول مواد العقيدة والشريعة ونصوصها، من صورة «كتب» في القرآن وتفسيره، والحديث، والفقه، والتوحيد، والسيرة، إلى «كتب» في الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاقتصاد، وتنظيم الأسرة.. إلخ.. وتظل المشكلة قائمة: أين التفسير الإسلامي الشامل للوجود، الذي يتعامل الإنسان على أساسه مع هذا الوجود؟ إن غياب هذا التفسير هو أكبر بلاء ابتلى به شباب هذه الأمة.



الفصل الخامس

منهج دراسة القرآن الكريم

منهج دراسة القرآن الكريم في مراحل التعليم العام

القرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة الخالد، الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، فأنشأها هذه النشأة، التي وصفها الله بقوله: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، وبدلها من خوفها أمناً، ومكن لها في الأرض، ووهبها مقوماتها التي صارت بها أمة، ولم تكن من قبل شيئاً. وهي بدون هذه المقومات والخصائص ليست أمة، وليس لها مكان في الأرض، ولا ذكر في السماء. ومعنى هذه الحقيقة ــ كما يقول الأستاذ قطب ــ أن القرآن كان **دائماً في المعركة وهو ينشئ هذه الأمة.. «سواء المعركة الناشئة في** القلوب بين تصورات الجاهلية وتصورات الإسلام، والمعركة الناشئة في الجو الخارجي بين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين يتربصون بها من كل جانب».

«هذه المعركة كتلك ما تزال قائمة. فالنفس البشرية هي النفس البشرية، وأعداء الأمة الإسلامية هم أعداؤها.. والقرآن حاضر.. ولا نجاة للنفس البشرية ولا للأمة المسلمة إلا بإدخال القرآن في المعركة، ليخوضها حية كاملة كما خاضها أول مرة.. وما لم يستيقن المسلمون من هذه الحقيقة فلا فلاح لهم ولا نجاح!

وأقل ما تنشئه هذه الحقيقة في النفس.. أن تقبل على هذا القرآن بهذا الفهم وهذا الإدراك وهذا التصور. أن تواجهه وهو يتحرك ويعمل وينشىء التصور الجديد، ويقاوم تصورات الجاهلية، ويدفع عن هذه الأمة، ويقيها العثرات، لا كما يواجهه الناس اليوم نغمات حلوة ترتل، وكلاماً جميلاً

يتلى ، و ينتهي الأمر.. إنه لأمر غير هذا نزل الله القرآن .. لقد نزله لينشيء حياة كاملة ، ويحركها و يقودها إلى شاطيء الأمان بين الأشواك والعثرات ، ومشقات الطريق ، التي تتناثر فيها الشهوات كما تتناثر فيها العقبات »(١) .

ولكي يقوم القرآن بدوره في حياة الأمة المتعثرة حاليـًا ، ولكي يساعدها في مقاومة التصورات الجاهلية ، و يقيها العثرات ، ويحركها و يقودها إلى شاطيء الأمان ، لابد من أن يصير القرآن هو مصدر تربية أبناء هذه الأمة ، لابد أن يكون هو الأساس في إعداد نظم التربية في هذه الأمة ، ومناهجها ، ومدارسها ، والمعلمين فيها . والخطوة الأولى في هذا السبيل هي دراسة القرآن ، وفهمه ، وحفظه من خلال منهج تربوي منظم لذلك على امتداد مراحل التعليم العام .

إن الكارثة الحقيقية في وضعنا الحالي هي أننا نجحنا ــ للأسف الشديد ــ في تربية معظم أبناء الأجيال الحالية تربية تفصل بين « التصور الاعتقادي » ومصادره خاصة القرآن والسنة ، و بين « النظام الاجتماعي » بكل وسائله وأساليبه !

فلا عجب أن تجد بين « المثقفين » من أبناء الأجيال الحالية من يقول لك : لماذا تريد زيادة الدروس المقررة لدراسة القرآن وحفظه في مناهج التعليم العام ؟ فإذا قلت له : لأن القرآن الكريم هو مصدر التصور الاعتقادي في الإسلام ، فلا فطرة طبيعية ولا شخصية سوية ، ولا إحسان في العمل ، ولا زيادة في الإنتاج ، ولا تقدم دون إدراك للتصور الإعتقادي في الإسلام ! فإنه قد يقول لك : وهل الاهتمام بدراسة القرآن وحفظه في مناهج التعليم العام هو الذي سيجعلنا قادرين على صنع السيارة والطائرة ، والحاسبات الآلية ، والأقمار الصناعية ؟ ومتي ندرس ــ إذن ــ الرياضيات والكيمياء ، والفيزياء ، والحاسب الآلي ، واللغات الأجنبية ؟ !

فإذا قلت له نعم .. إن دراسة القرآن الكريم تلاوة وفهمـًا وحفظـًا في مراحل التعليم العام ستجعلنا قادرين على صناعة السيارات والطائرات ،

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص١٨٠ .

والأقمار الصناعية، وعلى زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي.. إلخ، بل إن ذلك سيزودنا بالنظم الاجتماعية والقيم الإنسانية الراقية التي تمكن لنا في الأرض، وتعقد لنا زمام القيادة والريادة في العالم.. إذا قلت له ذلك فإنه سيندهش، ويرميك في سره على الأقل ــ بالتخلف والجهل!.. وهذه كارثة.

إن ضعف دراسة القرآن الكريم، تلاوة وفهمًا وتدبرًا وحفظًا في مناهج التعليم العام، والاقتصار على الحفظ السماعي لبعض السور القصيرة في سنوات الدراسة الأولي، حفظًا يقوم علي الترديد والتقليد دون تدبر وفهم، والتضخم الذي يبدأ بعد السنوات الأولي يأخذ مجراه في العلوم الكونية الأخرى ذات المنطلقات الغربية في معظمها، كل هذا قد جعل القرآن الكريم ينزوي في جانب مظلم من جوانب الشخصية المسلمة المعاصرة، وفي ركن قصي من أركان المناهج التعليمية الزاخرة بألوان الفكر التي يختلط فيها الطيب بالخبيث والمثمر بالعقيم.. باختصار، لقد أدى هذا إلى أن تبتعد الحياة رويدا رويدا عن طريق القرآن، وأن تقاد بأية موجهات وأية فلسفات، وأية مناهج غير منهج الله.. وهذه كارثة الكوارث!

ليس هدفي هنا اقتراح منهج خاص لدراسة القرآن في مدارس خاصة بذلك مع الإبقاء على منهج دراسته في مدارس التعليم العام الحالية كما هو. ففي اعتقادي أن الإزدواجية في التعليم لدينا، نجني لها ثمارًا مرة الآن، في شكل ازدواجية في النظام وفي المناهج، وفي الشخصية المسلمة، وفي الجماعة الإسلامية.

إن الهدف هو بناء الشخصية المسلمة السوية، والمجتمع المسلم المتكامل، والأمة المسلمة الموحدة القادرة على تحقيق أهداف الإسلام ومقاصده في حاضرها ومستقبلها. لكن الوضع الحالي لدراسة القرآن وفهمه وحفظه في مراحل التعليم العام في الأقطار العربية لايتناسب مع هذه الأهداف، ولايتناسب إطلاقًا مع جلال كتاب الله، والدور الذي أنزل القرآن ليقوم به في حياة الناس عامة، وفي حياة المسلمين خاصة. بل إن الأهمية المعطاة له في مناهج الدراسة في مراحل التعليم العام أقل بكثير من الأهمية المعطاة

لأقل العلوم اعتبارًا في هذه المناهج! فما تكاد دراسة القرآن تبدأ في الصفوف الأولى من المرحلة الإبتدائية بالحفظ الآلي لقصار السور من جزء «عم» حتى تنتهي في نهاية المرحلة المتوسطة أو الإعدادية ببعض السور من جزأي «تبارك» و«قد سمع»، ثم تنتهي بعد ذلك تمامًا إلا من بعض الآيات التي يستشهد بها من آن لآخر هنا وهناك!

منهج مقترح لدراسة القرآن الكريم:

ولهذا فإن المنهج الذي أقترحه هنا لدراسة القرآن يقوم على الأسس التالية:

١ــ أن تتوزع دراسة القرآن كله، وفهمه وحفظه على سنوات الدراسة الأثنتي عشرة، التي تمثل المرحلة الإبتدائية (٦ سنوات)، والمرحلة المتوسطة أو الإعدادية (٣سنوات)، والمرحلة الثانوية (٣سنوات). أي بمعدل جزء إلى ثلاثة أجزاء في كل عام. مع التدرج من السهل إلى الصعب، بحيث لا ينتهي الطالب من الدراسة التي تسبق الجامعة إلا وقد درس القرآن كله فهمًا وحفظًا.

وأنا أتوقع هنا أن يستكثر البعض و يستصعبوا ما ورد بالفقرة السابقة. وردي المباشر عليهم أن هذا هو العاصم الوحيد لأبناء هذه الأمة من الزلل وكل عوامل التغريب والتبعية الثقافية والحضارية وما يترتب عليها من فقدان الهوية، والانسحاق تحت أقدام الآخرين.

٢ــ أن تتكون هيئة من كبار العلماء المتخصصين في علوم القرآن وتفسيره، وعلوم التربية، وتكون مهمة هذه الهيئة محصورة في أمرين رئيسيين:

الأمر الأول:

هو تصنيف وتوزيع سور القرآن وأجزائه على سنوات الدراسة. على أن يكون المعيار في التوزيع هو البدء بالأسهل والأكثر عونًا على فهم الحياة في كل مرحلة عمرية وفقًا لمنهج القرآن، كالقصص القرآني، ثم السور التي تركز على ما يسمي في التصنيف الفقهي بـ«العبادات» ثم «المعاملات».. وهكذا.

وأريد هنا أن أؤكد أنه ليس من الضروري ــ فيما أفهم ــ أن تخصص قصار السور للصغار، والسور المتوسطة للأكبر سناً، والسور الطويلة للكبار. فالقرآن حين نزل كان ينزل علاجاً لأحوال الناس وحلاً لمشكلاتهم التي كانوا يواجهونها فهو ليس كتاباً يقرأ من آن لآخر ثم ينسى، وإنما هو منهج لحكم حياة الناس وتوجيه سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم: «**وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلا**» (الإسراء:١٠٦). ثم إننا نقتبس منه الآيات من هنا ومن هناك ــ دون ترتيب ــ للاستدلال بها في مختلف القضايا، وتكوين التصورات الإسلامية لمختلف نظم الحياة دون حرج.

الأمر الثاني:

وضع تفسير لكل مقرر من المقررات السابقة بما يتناسب مع عقليات تلاميذ كل صف، وتساؤلاتهم، والمشكلات التي يواجهونها في حياتهم. بحيث يكون القرآن معيناً لهم على فهم ما يستطيعون من تصور الإسلام للكون، والإنسان، والحياة، وما بينها من علاقات وارتباطات، مما يوضح مركز الإنسان في الكون، ودوره في الحياة.

٣ ــ أن تكون دراسة هذا المقرر إجبارية على طلاب كل صف دراسي، سواء كانوا يدرسيون وفق نظام العام الدراسي الكامل ذي المقررات الموحدة، كما هو الحال في مصر ــ مثلاً ــ أم كانوا يدرسون وفق نظام الثانوية المطورة ذي الساعات المعتمدة كما هو الحال الآن في الكويت، وبعض الأقطار العربية الأخرى، كما يجب ألا تقل درجات هذا المقرر عن درجات أي مقرر آخر من المقررات الدراسية، وأن يكون هذا المقرر أهم مقررات النجاح والرسوب، والانتقال من صف إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخري.

٤ ــ أن تقوم دراسة هذا المقرر على أساس الفهم، ثم الحفظ. وأن يتم تناوله من خلال الحوار والمناقشة والاقناع القائم على اعتبار أننا يجب أن نأخذ هذا الدين ــ كما أراده الله ــ بتكاليفه كلها طاعة وتقوى،

وأن نأخذه جملة واحدة بعزائمه ورخصه، متكاملاً متناسقاً، في طمأنينة إلى الله، ويقين بحكمته، وشعور بتقواه.

٥ـ التقويم في هذا المقرر هو عملية تشخيص وعلاج، في ضوء معايير محددة للأداء. وبذلك فهو لا يتم في ضوء مستويات الجماعة، وإنما يتم في ضوء مستويات الإتقان في الأداء أو الإحسان فيه، التي يمكن التعبير عنها بالأهداف المحددة والمنشودة من العمل. وهي هنا ــ في منهج دراسة القرآن ــ عبارة عن:

أ ــ فهم الجزء أو الأجزاء المقررة على كل صف دراسي فهماً جيدًا، مع التركيز على الحقائق، والقيم، والمعايير والموجهات التي تحكم حياة الناس كلها في الشعور والقول والعمل.

ب ــ قراءة الجزء أو الأجزاء المقررة قراءة جيدة، وفهمها، وحفظها عن ظهر غيب: «**وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس علي مكث، ونزلناه تنزيلا**».

جـ ــ السلوك العام والخاص من الطلاب وفقاً لما درسوه من قيم ومعايير وموجهات.

إن تخصيص أقسام للفلسفة في هذه الكليات كان إحلالاً للفلسفة محل القرآن والسنة، وإزاحة لهما عن طريق حكم الحياة. فلا عجب ــ إذن ــ أن نجد كثيرًا من الأساتذة في هذه الكليات يستشهدون بأقوال الفلاسفة بدلاً من آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يفتأون يرددون: قال أفلاطون، وقال أرسطو، وقال كانت، وقال ديكارت وقال جون ديوى، بدلاً من أن يقولوا قال الله.. وقال رسول الله.. !!!

إعداد معلم العلوم الشرعية:

إن نجاح هذا المنهج يحتاج ــ دون شك ــ إلى المعلم المعد إعدادًا جيدًا من خلال مناهج تربوية متكاملة في أبعادها الثلاثة: البعد التخصصي المتصل بقراءة القرآن، وفهمه وحفظه، والبعد المهني المتصل بفهم الطبيعة الإنسانية وكيفية التعامل مع الناشئة، وفهم أنسب طرائق التدريس لهم،

والبعد الثقافي المتصل بفهم طبيعة التصور الإسلامي للكون، والإنسان، والحياة، والارتباطات بينها، وفهم معايير الثقافة والحضارة في المجتمع المتحضر الإسلامي، وكيفية إعداد الإنسان للقيام بحق الخلافة في الأرض، عن طريق عمارتها، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

إننا إذا كنا ننشد دراسة القرآن الكريم كله للطلاب في مراحل التعليم، فإننا لا نتصور أن يتم ذلك من خلال مدرس فقير في معرفته بالقرآن الكريم دراسة وفهماً وحفظاً كما هو الحال في برامج إعداد معلم العلوم الشرعية في معظم أقطار الأمة الإسلامية. ويصل الأمر إلى حد الإبكاء عندما يناط تعليم العلوم الشرعية -القرآن والحديث والفقه- لمعلم اللغة العربية الذي لم يدرس العلوم الشرعية، ولم يدرب على تدريسها. إن أقل ما يمكن أن يقال في هذا إنه استهانة بالإسلام وأهله، وحط من شأن العلوم الشرعية التي ينبغي أن تكون الأساس في مناهج تربية الناشئة، وجوهر مناهج إعداد المعلمين. إنه لمن الخطأ والخطر وسوء الظن أن تقام في كليات التربية كلها مناهج لإعداد المعلمين في جميع التخصصات ابتداء باللغة الإنجليزية وانتهاء بالتربية الفنية والتربية الرياضية، ولا يقام فيها تخصص لإعداد معلم العلوم الشرعية، التي ألحقنا تدريسها بمعلم اللغة العربية الذي يقوم بتدريسها دون إعداد ودون معرفة من أي نوع!

إننا نفقد السلام مع الله، وبذلك نفقد السلام مع أنفسنا ومع العالم من حولنا عندما نحول علوم «الأصول» التي ينبثق منها تصورنا للكون والإنسان والحياة إلى توابع ذليلة، عديمة القيمة بالنسبة للعلوم الأخرى التي هي في الأصل مجرد أدوات ووسائل للعلوم الشرعية.

إنني لا أقصد بدراسة القرآن كله في مناهج إعداد معلمي العلوم الشرعية أن ننشئ مقررات تدور حول القرآن والعلوم القرآنية ولا ترد حوضه، وإنما أقصد ضرورة التعامل المباشر مع النص القرآني بالتلاوة والفهم والحفظ واستنباط الأحكام، والوقوف معه لمعرفة موقف حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية منه.. إنني أقصد تلك الدراسة التي تساعدنا على بدء

حياة إسلامية على أساس من كتاب الله ومنهج الله الذي هو في كتاب الله.

إن منهج دراسة القرآن الكريم وتلاوته وفهمه وحفظه لايستأهل أقل من حصة يومية في جدول المدرسة في مراحل التعليم العام. هذا إذا أردنا أن نربي الإنسان المسلم، وأن نبني المجتمع المسلم. ومعلم العلوم الشرعية لايستحق هذا اللقب إذا لم يحفظ القرآن كله. أما وضع معلم العلوم الشرعية الآن في مدارس التعليم العام فهو وضع مزر، ولا نظير له بين معلمي العلوم الأخرى!

طرائق تدريس مواد العلوم الشرعية

تشتمل مواد العقيدة والشريعة على مجموعة من النصوص، أهمها: **نصوص القرآن الكريم، ونصوص الحديث النبوي الشريف، وموضوعات** التوحيد أو العقيدة، وموضوعات الفقه، ومواقف من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام. ونتناول —فيما يلي— طرائق تدريس هذه المواد.

القرآن الكريم

الأهداف:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو معجزة الإسلام، والمصدر الأول للتشريع، ووثيقة الدعوة إلى الله.

وبما أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع، وهو الأساس الذي يشتق منه الإنسان تصوره الإعتقادي، وتصوره الاجتماعي، فليس الهدف من تدريسه هو مجرد تطويع ألسنة الصغار على بليغ القول، وفصيح الكلام المعجز، وإمدادهم بثروة عظيمة من الألفاظ والعبارات والمعاني السامية، وتذوق الكبار لأفانين القول، والسمو بمستوى تفكيرهم في الحياة.. بل وفوق كل هذا وقبله، فهم النص القرآني، والوقوف على ما فيه من عقائد، وأحكام وتشريعات.

إذن فالهدف الرئيسي من تدريس القرآن الكريم ليس مجرد اكتساب الثروة اللفظية وتطويع اللسان على بليغ القول، بل وقبل هذا الوقوف على المعاني والأحكام العامة التي يستطيع المتعلم فهمها من الآيات. وسوف يتوقف النجاح في تحقيق هذا الهدف بالطبع على مدى التوفيق في اختيار النصوص القرآنية المناسبة للتلاميذ في مراحل نموهم المختلفة.

أما بالنسبة للكبار، فالهدف من تدريس النصوص القرآنية هو أن يتمكن الكبار من أن يعرضوا الآيات على عقولهم وقلوبهم، ليعرفوا أين هم واقفون من تنفيذ منهج الله في حياتهم، وفي الأرض عمومًا. روى ابن سعد في طبقاته أن أبا عبدالرحمن السلمي قال: «**إنا أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر، حتى يعلموا ما فيهن، ويعملوا بهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به.. وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء، لا يجاوز تراقيهم، بل لا يجاوز حلوقهم!**». أرجو الله أن يساعدنا على الابتعاد عن طريقة القوم الآخرين.

وعلى كل حال، لكي نستفيد من تدريس القرآن للصغار، فإنه يجب أن يكون التركيز في النصوص المختارة لهم، على آيات القرآن وسوره التي تحكي قصص السابقين، وتعطي من حياتهم عبرًا يستفيد منها التلاميذ في حياتهم الحاضرة، وفي مستقبل أيامهم.

مراحل تناول النص:

ويمر النص القرآني ــ كغيره من النصوص ــ بثلاث مراحل:

١ــ مرحلة إعداد النص، وتحضيره في كراسة التحضير.

٢ــ مرحلة تنفيذ النص، ومعالجته داخل حجرة الدراسة مع التلاميذ، والخطوات التي يتبعها المدرس مع النص.

٣ــ مرحلة التقويم والمتابعة، وهذه المرحلة تبدأ مع بداية معالجة النص داخل حجرة الدراسة مع التلاميذ، وتمتد إلى عملية التقويم الشهري، والفصلي، وتقويم نهاية العام الدراسي.

وسوف نعرض هنا ـــ بالتفصيل ـــ للمرحلتين: الأولى والثانية، أي لطريقة تحضير النص القرآني، ولخطوات السير فيه داخل حجرة الدراسة.

تحضير النص القرآنى فى كراسة التحضير:

سأفترض هنا أن النص التالي من النصوص المقررة على الطلاب، فكيف يعده المدرس، وكيف يحضره في كراسة التحضير؟

النص:

استخلاف الله للإنسان فى الأرض

قال الله تعالى:

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم مالا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك، لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم: إني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس، أبى وأستكبر، وكان من الكافرين. وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعًا، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا، أولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون ». (البقرة: ٣٠ ـــ ٣٩).

الخطوة الأولى فى تحضير الدرس، تتمثل في قراءة المدرس له. وتزويد معلوماته عن النص بالرجوع إلى مصادره. ففى النص السابق، لابد من

عودة المدرس إلى كتب التفسير، وانتقاء واحد منها، وقراءة تفسير النص فيه، وبذلك يستطيع أن يناقش طلابه ويرد على تساؤلاتهم من خلفية واسعة وعميقة، ومؤكدة في نفس الوقت. مع الإيمان ـ في نفس الوقت ـ بأن القرآن هو أساس المنهج الإلهي، ولأنه وحي من الخالق الأعظم والأعلم، فسوف يظل متجددًا ما دامت السماوات والأرض. وسوف لا يكون هناك تفسير نهائي له، فالحياة المتجددة ومظاهرها المتنوعة سوف تساعدنا في كل جيل، وفي كل زمن على ترقية فهمنا وتفسيرنا لآيات القرآن. وسوف يظل القرآن دائمًا وأبدًا كالمحيط الذي يتسع لكل سابح، وصائد، غائص.

الخطوة الثانية التي تعقب الإطلاع على النص، والرجوع إلى مصادره، هي تحضير الدرس في كراسة التحضير. ويكون ذلك على النحو التالي:

التاريخ: .... الفرقة والصف: ....

المادة: نص قرآني: تلاوة أو تفسير.

الموضوع: البقرة: ٣٠ــ٣٩ من قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة.. إلى قوله تعالى: هم فيها خالدون».

أولاً ــ أهداف الدرس:

يهدف هذا الدرس إلى تحقيق الغايات التالية لدى الطلاب:

١ ــ أن يفهم الطلاب قصة آدم: قصة البشرية الأولى.

٢ ــ أن يدرك الطلاب مفهوم الخلافة في الأرض، ومقتضيات ذلك من المسلم.

٣ ــ أن يفهم الطلاب الحكمة من تعليم الله لآدم الأسماء كلها.

٤ ــ أن يدرك الطلاب الحكمة من أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، والمعنى من عدم سجود إبليس له.

٥ ــ أن يدرك الطلاب المغزى من قصة الشجرة المحرمة في الجنة.

٦ ــ أن يدرك الطلاب جوهر العلاقة بين الإنسان وربه.

ثانيًا ــ الأفكار الرئيسية :

ــ قصة آدم : قصة البشرية الأولى .
ــ مفهوم الخلافة في الأرض ومقتضياتها .
ــ تعليم الله لآدم الأسماء كلها .
ــ الحكمة من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، ومغزى عدم سجود إبليس له .
ــ المغزى من قصة الشجرة المحرمة .
ــ جوهر العلاقة بين الإنسان وربه .

ثالثًا ــ طريقة التدريس :

١ ــ التمهيد للدرس بإلقاء بعض الأسئلة التي توضح الهدف منه .
٢ ــ قراءة النص قراءة جهرية مضبوطة مجودة ، وتدريب التلاميذ علي هذه القراءة .
٣ ــ مناقشة الفكرة العامة والأفكار الرئيسية للنص(٢) ومناقشة المفردات الصعبة فيه .
٤ ــ القراءة الصامتة للنص بواسطة التلاميذ ، يعقبها تحليل النص وتفسيره ، وربط الجزئيات بالكليات فيه . إدراك علاقته بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الشخصية والجماعية ، استنباط القيم والمعايير والأحكام العامة منه .
٥ ــ التقويم : وهو عملية مستمرة خلال الدرس كله .

رابعًا ــ التقويم :

الإجابة عن الأسئلة التالية بواسطة الطلاب لمعرفة مدى تحقق الأهداف المنشودة من الدرس :

١ ــ ما معني الخلافة في الأرض ؟

(٢) ينتهي التحضير عند هذه النقطة إذا كان النص للتلاوة فقط . وأما إذا كان للتفسير ، فإنه يستمر إلى النقاط التالية بعد ذلك .

٢ــ ما علاقة «طلب العلم» ــ وهو عمل التلميذ ــ بمقتضيات الخلافة في الأرض ؟

٣ــ هل الإنسان، أي إنسان مستخلف من الله في الأرض، كل الأرض، أم في بقعة صغيرة منها ؟

٤ــ ما علاقة الخلافة في الأرض بقول الله تعالى: «**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا**» (النساء: ٩٧).

٥ــ ما علاقة كل ذلك بمفهوم «**دار الإسلام**» ومفهوم «**دار الكفر**» وما علاقة هذا بقوله تعالى: «**والأرض وضعها للأنام**».

٦ــ اكتب موضوعًا بأسلوبك عن «علاقة الخلافة في الأرض بطلب العلم».

٧ــ حفظ التلاميذ للنص واختبارهم في ذلك.

طريقة السير فى دروس النصوص القرآنية:

سوف أسير في تدريس النص السابق وفقًا للخطوات التالية:

أولاً: سوف أمهد لدراسة النص بتوضيح أهداف دراسته. ويفضل هنا أن يكون التمهيد عن طريق مجموعة من الأسئلة المتصلة بأهداف الدرس مباشرة، وبأهم الأفكار فيه. كأن أقول مثلاً: معنا اليوم نص قرآني. هذا النص يساعدنا في الإجابة عن الأسئلة التالية:

ــ ماقصة آدم، ولماذا اعتبرت قصة البشرية الأولى؟

ــ وما معنى الخلافة في الأرض، ومامقتضيات الخلافة، وماذا تعني لكل إنسان منا؟ وللحياة في مجتمعنا؟

ــ **كيف أعد الله الإنسان للخلافة، وبأي أسلوب أعده، ولماذا** اختار الله الانسان دون سائر خلقه للقيام بهذا الدور؟

ــ وما معني ارتباط الخلافة بالأرض، وما المقصود «بالأرض»

هنا ؟ إن هذه الأسئلة ، وغيرها ، هي ما سنحاول الإجابة عنه من خلال مناقشاتنا ومعالجاتنا لأفكار هذا النص القرآني المبين .

ثانياً ــ القراءة الجهرية :

١ ــ سوف أقول بعد ذلك : ولكن قبل أن نتناول النص بالمناقشة والشرح والفهم لابد لنا من أن نصل إلى القدرة على قراءته قراءة جهرية سليمة بصوت واضح خاشع ، فيه سلامة للنطق وتجسيم للمعاني دون تكلف . وسأقرأ أنا النص أولاً ، بينما تتابعون أنتم بآذانكم وأعينكم . (هنا أقوم بقراءة النص وفقاً للوصف السابق) .

٢ ــ ثم أقوم بعد ذلك بتكليف الطلاب بقراءة النص واحدًا بعد الآخر . في النص الذي معنا وأمثاله ، يكفي أن يقرأ كل طالب ثلاث آيات ، ولا بأس من قراءة التلاميذ للنص بطريقة جماعية في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية .

وقد يقسم المدرس التلاميذ إلى جماعات ، تقرأ كل جماعة مرة بينما ينصت الآخرون حتى تستقيم قراءة التلاميذ للنص . وتحبذ القراءة الفردية في الصفوف المتأخرة .

ويتم كل ذلك مع متابعة المدرس للقراءة وتصحيحها أولاً بأول . وإذا وجد المدرس أن الطلاب غير قادرين على القراءة الصحيحة وأن أخطاءهم كثيرة ، فإنه يجب أن يقرأ النص بنفسه مرة ثانية قراءة جهرية واضحة . ثم يعاود تدريب التلاميذ أو الطلاب على القراءة ، حتي يتأكد من حسن قراءتهم له .

ثالثا : مناقشة الفكرة العامة والأفكار الرئيسية للنص :

هنا أقوم بمناقشة الطلاب في الفكرة العامة للنص ، والأفكار الرئيسية فيه وتكون مناقشتي على شكل أسئلة وإجابات ، وذلك على النحو التالى :

س ــ ما قصة آدم ، ولماذا اعتبرت قصة البشرية الأولى ؟ وهنا يثور نقاش ، أقوم أنا بتنظيمه ، حتى نصل إلى الإجابة التالية : قصة آدم فى هذا

النص، هي قصة تكليف الله له بالخلافة في الأرض. وتعتبر هذه القصة هي قصة البشرية الأولى، لأن آدم أبو البشر جميعا، وتكليف الله له يتعبر تكليفا للبشر جميعا، أفراد وجماعات.

س.- مامعنى الخلافة في الأرض؟ ومامقتضياتها؟ معنى الخلافة في الأرض، أن يقوم الإنسان على تنفيذ منهج الله في الأرض. ومقتضى ذلك أن يكد الإنسان ويكدح دائمًا في سبيل عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

س- لماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟ ولماذا رفض إبليس؟ المناقشة لابد أن تصل إلى الإجابة التالية: أمر الله الملائكة بالسجود لآدم تحية واحترامًا وتكريمًا، وإبرازاً لمنزلته العظيمة في نظام الكون، فهو المخلوق الوحيد الذي يعبد الله بإرادته، ولذلك كان هو المخلوق الوحيد الذي حمل أمانة تنفيذ منهج الله، وعمارة الأرض عن طريق استخدام طاقاته العظيمة الظاهرة والباطنة التي وهبها الله له لكشف كنوز الأرض وخاماتها، وطاقاتها، وتسخير هذا كله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

إن سجود الملائكة هو «التكريم في أعلى صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة. لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة.. إن هذا كله بعض أسرار تكريمه» (٣).

ولقد رفض إبليس السجود إباء، واستكبارًا وكفرًا. ولقد كان هذا أيضًا جزء من إعداد الله للإنسان لحمل أمانة تنفيذ منهج الله. لقد أراد الله أن يعلم الإنسان أنه إذا كان في موقف التكريم مع الملائكة، فإنه في معركة دائمة مع إبليس. المعركة بين خليقة الشر في إبليس، وخليفة الله في الأرض. أراد الله أن يعلّم الإنسان أن هذه المعركة ستبقى معركة خالدة

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ١، ص٥٧.

في ضميره، وأنه سينتصر فيها بمقدار ما يستعصم بإرادته وعهده مع ربه، وأن الشر سينتصر فيها بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهواته، و يبتعد عن ربه(٤).

س- ماذا تعني قصة الشجرة المحرمة؟ في قوله تعالى: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدًا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه».

«لقد أبيحت لآدم وزوجه كل ثمار الجنة.. إلا شجرة واحدة، ربما كانت ترمز للمحظور الذي لابد منه في حياة الأرض. فبغير محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد، والتقيد بالشرط. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمية، ولو بدوا في شكل الآدميين!

«فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه»..

و يا للتعبير المصور: «أزلهما».. إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها، وإنك لتكاد تلمح الشيطان، وهو يزحزحهما عن الجنة، و يدفع بأقدامهما فتزل وتهوي!

عندئذ تمت التجربة: نسي آدم عهده، وضعف أمام الغواية..

«عندئذ حقت كلمة الله، وصرح قضاؤه:

«وقلنا اهبطوا.. بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر، ومتاع إلى حين».. وكان هذا إيذانًا بانطلاق المعركة في مجالها المقدر لها، بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان.

ونهض آدم من عثرته، بما ركب في فطرته، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائمًا عندما يتوب إليها، و يلوذ بها.

«فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم».

وتمت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته، عهد الاستخلاف في الأرض، و بشرط الفلاح فيها أو البوار.

---

(٤) المرجع السابق، ص ٥٨.

«قلنا اهبطوا منها جميعًا. فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

«وانتقلت المعركة الخالدة، إلى ميدانها الأصيل، إلى الأرض، وانطلقت من عقالها، ما تهدأ لحظة وما تفتر. وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار..»(٥).

يقول الأستاذ سيد قطب: «لعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة، وإعدادًا له، كانت إيقاظًا للقوى المذخورة في كيانه، كانت تدريبًا له على تلقي الغواية، وتذوق العاقبة، وتجرع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين.

«إن قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة، إنها هي تجربة البشرية المتجددة والمكرورة!

«لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزودًا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً، استعدادًا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرًا!»(٦).

رابعًا ــ القراءة الصامتة للنص، ثم التفسير والاستنباط:

هنا أترك فرصة للتلاميذ كي يقرأوا النص قراءة صامتة متأنية. ثم أناقش معاني الآيات بالتفصيل على النحو السابق مراعيًا في نفس الوقت ربط المعاني بحياة التلاميذ وبالحياة الاجتماعية من حولهم.

يتم التوقف عند حد المعاني العامة في دروس التلاوة. وأيضًا إذا كان النص مقررًا على تلاميذ الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية. لكن

---

(٥) المرجع السابق، ص ٥٨.
(٦) المرجع السابق، ص ٥٩.

الوصول إلى الأفكار والتوجيهات والدروس المستفادة ضروري في كل الأحوال. على أن يراعي المدرس أنه كلما استنبط حكمًا أو توجيهًا مفيدًا سجله على السبورة.

س ــ هل تعني الخلافة في الأرض أن هذه ليست خاصة لأحد دون أحد، وأن الذى يضيق به مكان عليه أن يذهب إلى مكان آخر؟

نعم .. وهذا متضمن في قوله تعالى: «**ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟!**» (النساء: ٨٧).

س ــ هل يعني هذا أن تحديد المكان، وضع القيود على الانتقال من مكان إلى آخر إلا بتأشيرة وبحدود، يناقض قضية الخلافة في الأرض؟

الإجابة: نعم .. هذا يناقض الخلافة في الأرض، لأن اختيار الإنسان للخلافة في الأرض، لا يعني أن يكون إنسان ما خليفة في مكان ما، بينما يكون آخر خليفة في مكان آخر.. فالصحيح أن كل إنسان خليفة في الأرض.. كل الأرض. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: «**والأرض وضعها للأنام**» أي أنه عز وجل قد جعل الأرض مسخرة مذللة للإنسان.. كل إنسان، في الأرض.. كل الأرض.

يقول الشيخ محمد الشعراوي: إن أحد أهم عوامل الفساد الذي نحن فيه اليوم، أنه يوجد في كون الله سبحانه وتعالى أرض بلا بشر، وبشر بلا أرض. ولو أن الذي يضيق به مكان يستطيع الانتقال إلى غيره، لما حدثت مثل هذه الأزمات التي نعانيها اليوم، حيث توجد أراضي تئن بمن عليها، في الوقت الذي توجد فيه أراضي لا تجد أحدًا، والأمثلة كثيرة لمن أراد أن يتأمل خريطة العالم اليوم(٧).

س ــ ما الفرق بين دار الكفر ودار الإسلام على وجه الأرض؟

الإجابة: «**دار الإسلام**» هي المكان الذي تعيش عليه جماعة تطبق منهج الله في حياتها كلها. «**ودار الكفر**» هي المكان الذي تعيش فيه جماعة

(٧) الشيخ محمد متولي الشعراوى: المفسدون في الأرض، المسلمون، العدد ٢٣٥، في ١٤١٠/١/٣هـ، ١٩٨٩/٨/٤م.

تنظم حياتها وفقاً لمناهج الجاهلية المختلفة من نظريات وفلسفات من وضع الإنسان نفسه.

س ــ هل يجوز للمسلم أن يهاجر من دار الإسلام إلى دار الكفر؟

الإجابة: إذا هاجر المسلم من دار الإسلام إلى دار الكفر بقصد المساهمة في تغيير الحياة فيها إلى الإسلام، فإن هذا يعتبر جهادًا في سبيل الله، وهجرة إلى الله ورسوله.

خامساً ــ التقويم:

١ ــ تنبيه الطلاب إلى حل الأسئلة التالية في كراسة الواجب:
(أطرح عليهم الأسئلة الموجودة في كراسة التحضير تحت بند التقويم).

٢ ــ أحدد لهم موعد الاختبار في حفظ النص. ثم أنفذ ذلك في موعده.

ملحوظة هامة:

إن مقررات طرائق التدريس عموماً، وطرائق تدريس مواد العقيدة والشريعة على وجه الخصوص، ليست مجرد مقررات نظرية، تعطي للطلاب في صورة معلومات ذهنية ميتة. ولكي لا تكون كذلك لابد أن يقوم أستاذ المادة بتدريب طلابه على مواقف التدريس داخل قاعة المحاضرات.

فكل طالب يجب أن يُعد درساً من دروس المنهج الذي سيقوم بتدريسه بالفعل في المرحلتين المتوسطة أو الثانوية. ويقوم بتحضيره تحت إشراف أستاذه، ثم يقوم بإلقاء الدرس بالفعل في حجرة المحاضرة. ويقوم زملاؤه بتمثيل دور التلاميذ في حجرة الدراسة.

ويفضل في مثل هذه الحالة أن يكون أستاذ المادة، قد قدم أمام طلابه نماذج للتحضير والتدريس، حيث يقوم هو بدور المدرس، ويقوم طلابه بدور التلاميذ، ويعالجون درساً من دروس المنهج المدرسي بالفعل.

ويفضل في كل الحالات ضرورة القيام بعملية تقويم للأستاذ أو للطالب بعد الانتهاء من إلقاء درسه، لبيان نقاط القوة والضعف في أدائه بغية تطوير الأداء وتحسنه.

تحضير نص آخر بشكل مختصر

النـــص:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم:

«شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو ــ والملائكة وأولو العلم ــ قائمًا بالقسط لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم» (آل عمران: ١٨).

أولاً ــ الأهداف:

١ ــ أن يفهم الطلاب الحقيقة الأولى التي يقوم عليها التصور الاعتقادي في الإسلام.

٢ ــ أن يفهموا الفرق في «حقيقة التوحيد» بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

٣ ــ أن يدركوا لماذا اعتبر الإسلام أهل الكتاب ــ كما اعتبر العرب في الجاهلية ــ مشركين مع أنهم كانوا يؤمنون بالله؟

٤ ــ أن يفهموا معني شهادة الله ــ سبحانه ــ وشهادة الملائكة وأولو العلم بأنه لا إلٰه إلا هو.

٥ ــ أن يفهموا حكم الله في المؤمنين، الذين يشركون معه غيره في الألوهية وذلك بتحكيم شريعة غيره.

٦ ــ أن يدركوا العلاقة بين تحكيم منهج الله في حياة الناس وبين استقامة أمور الكون.

٧ ــ أن يدركوا الحكمة من تأكيد حقيقة الألوهية مصحوبة بصفات العزة والقدرة والحكمة.

ثانيًا ــ المحتوى:

الأفكار الرئيسية:

١ ــ الحقيقة الكبرى في التصور الاعتقادي الإسلامي، حقيقة التوحيد، توحيد الألوهية.

٢ــ شهادة الحق ــ سبحانه ــ بأنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط وكذلك شهادة الملائكة وأولو العلم.

٣ــ مشكلة كثيرين من المؤمنين في كل زمان أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية:

ــ حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره.

ــ وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه.

ــ وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره.

ــ وحين يستعينون بالذين كفروا ويتخذونهم أولياء ونصراء.

هذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله، ولا تستقيم مع شهادة لا إله إلا الله.

٤ــ العلاقة بين تحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة الناس، وبين استقامة أمور الكون.

٥ــ حقيقة وحدة الألوهية مصحوبة بصفتي العزة والحكمة.

ثالثاً ــ طريقة التدريس:

١ــ قراءة النص قراءة جهرية سليمة وتدريب الطلاب على القراءة الصحيحة المجودة.

٢ــ مناقشة الأفكار الرئيسية التي وردت بالنص مناقشة عامة.

٣ــ قراءة الدرس قراءة صامتة بواسطة الطلاب.

٤ــ مناقشة الأفكار الجزئية في كل فكرة رئيسية مع ربط الأفكار وتطبيقها على واقع الحياة، لمعرفة موقع الحياة منها إيجاباً وسلباً ونتائج ذلك في الواقع.

رابعاً ــ التقويم:

يجيب الطلاب عن الأسئلة التالية، وكذلك عن أي أسئلة يراها المدرس مهمة. وتكون الإجابة عن بعض هذه الأسئلة في الفصل أثناء الحصة، وعن بعضها الآخر في كراسة الواجب:

ـ ما الحقيقة الأولى والكبرى في التصور الاعتقادي الإسلامي ؟
ـ ما الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ؟
ـ لماذا اعتبر الإسلام العرب في الجاهلية وكذلك أهل الكتاب مشركين، مع أنهم كانوا يؤمنون بالله ؟
ـ ما معنى شهادة الملائكة وشهادة الراسخون في العلم بأنه لا إلٰه إلا هو قائماً بالقسط ؟
ـ ما حكم من يؤمنون بالله ويحكمون شريعة غيره ؟
ـ لماذا لا يستقيم أمر الكون، ولا تستقيم أمور الحياة والناس إلا بتحكيم منهج الله ؟
ـ لماذا قرن الحق ـ سبحانه ـ التأكيد على حقيقة الألوهية الواحدة بصفتي العزة والحكمة ؟

طريقة الملاحظة والتجربة :

لا حرج على معلمي العلوم الشرعية في استخدام أية طريقة يرونها نافعة في تربية الناشئة تربية صحيحة، وفي تحقيق الأهداف التي لابد من تحقيقها في هؤلاء الناشئة .

لكن كلما بعد المعلمون عن الوعظ المباشر والخطابة والحفظ والتسميع دون فهم، كلما كان ذلك أفضل خاصة مع الصغار والمراهقين . ومن أهم الطرق الفعالة في تدريس العلوم الشرعية، طريقة القدوة، وطريقة القصة، **وطريقة المناقشة، وطريقة حل المشكلات، وطريقة التجربة المباشرة .**

طريقة التجربة المباشرة(٨) :

سأعرض هنا لنصوص من القرآن الكريم فيها يرينا الحق ـ سبحانه ـ كيف كان يعد بعض عباده الصالحين للمهام المنوطة بهم، وكيف كان ـ سبحانه ـ يجيب على تساؤلاتهم، ويجعلهم مستريحين مطمئنين إلى جنب الله .

---

(٨) انظر إلى الطرائق الأخرى في كتاب : «منهج التربية في التصور الإسلامي» للمؤلف .

تجربة إبراهيم مع ربه:

«وإذ قال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى. قال أولم تؤمن؟ قال: بلى! ولكن ليطمئن قلبي. قال: فخذ أربعة من الطير، فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعوهن يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم» (البقرة: ٢٦٠).

إبراهيم المؤمن التقي الأواه الحليم، متشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلٰهية. وهو بذلك يكشف لنا عما يختلج أحياناً في نفوس البشر من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٰهية حتى في قلوب أقرب المقربين إلى الله!

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان.. إنما هو أمر الشوق الروحي، إلى ملابسة السر الإلٰهي، في أثناء وقوعه العملي. ولا شك أن مذاق هذه التجربة في الكيان البشري، مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب.. لقد أراد إبراهيم أن يرى القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في وجودها، ويعيش معها، وهي أمر غير الإيمان، فقد كان الحق ــ سبحانه ــ يعلم إيمان عبده وخليله.

ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة:

«قال: فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعوهن يأتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم».

لقد أمره أن يختار أربعة من الطير، فيقربهن منه ويتفحصهن عن قرب حتى يتأكد من خصائصهن ومميزاتهن التي لا يخطئ معها معرفتهن، وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة، ثم يدعوهن، فتجتمع أجزاؤهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات.. وقد كان هذا ما حدث!

لقد رأى إبراهيم السر الإلهي يقع بين يديه. وهو السر الذي يقع في كل لحظة من لحظات الحياة أمامنا. ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه. إنه سر هبة الحياة، الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن، والتي تنشأ مرات لا حصر لها في كل لحظة.. في كل حي جديد.

لقد رأى إبراهيم أثر هذا السر يقع بين يديه: طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مزقها في أماكن متباعدة، تدب فيها الحياة مرة أخرى، وتعود إليه سعياً!

كيف؟ هذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشرى إدراكه، إنه من أمر الله. والناس لا يحيطون بشيء من علم الله إلا بما شاء، والله لم يشأ أن يحيط الناس بهذا الطرف من علمه، لأنه أكبر منهم، وطبيعته غير طبيعتهم، ولا حاجة لهم به في خلافتهم (٩).

تجربة أخرى:

يحكيها القرآن في سياق الحديث عن سر الموت والحياة: «**أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أني يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، ثم بعثه. قال: كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام. فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ــ ولنجعلك آية للناس ــ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً. فلما تبين له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير**» (البقرة: ٢٥٩).

تبدأ التجربة ــ إذن ــ برجل «مر على قرية وهي خاوية على عروشها» محطمة على قواعدها لا يرى فيها إلا أثر الموت والبلى والخواء. ويرتسم مشهد القرية من خلال مشاعر الرجل الذي ينضح بها تعبير: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»؟ كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟ كيف تدب الحياة في هذا الموات؟

---

(٩) لقد استعنت في تفسير التجربة بما ورد في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب.

قد رأى الحق —سبحانه— أن مشاعر هذا الرجل لا تعالج بالبرهان العقلي، ولا بالمنطق الوجداني، إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلئ بها الحس، ويطمئن بها القلب دون كلام!

«قال: كم لبثت؟ قال لبثت يومًا أو بعض يوم!» لقد كان الرجل —في الواقع— لا يدري كم لبث، لأن الإحساس بالزمن لا يكون إلا مع الحياة والوعي.

«قال: بل لبثت مائة عام».

«وتبعًا لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسية واقعية، نتصور أنه لابد كانت هناك آثار محسوسة تصور فعل مائة عام.. هذه الآثار المحسوسة لم تكن في طعام الرجل ولا شرابه، فلم يكونا آسنين متعفنين: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه».

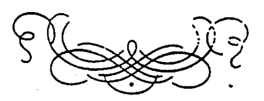
وإذاً لابد أن تكون هذه الآثار المحسوسة متمثلة في شخص حماره: «وانظر إلى حمارك —ولنجعلك آية للناس— وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمًا».. كان الحمار قد تعرت عظامه وتفسخت وتناثرت. ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض، وكسوتها باللحم، وردها إلى الحياة، على مرآى من صاحبه الذي لم يمسه البلى، ولم يصب طعامه وشرابه التعفن. ليكون هذا التباين في المصائر، والجميع في مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء، والتي تتصرف مطلقة من كل قيد، وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها!

إنه لا شيء يفسر كيف نال البلى شيئًا ويترك شيئًا في مكان واحد وفي ظروف واحدة، سوى طلاقة المشيئة الإلهية. «طلاقتها من القيد بما نحسبه نحن قانونًا كليًا، لازمًا ملزمًا، لا سبيل إلى مخالفته أو الاستثناء منه! وحسباننا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة: خطأ منشأه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنا العقلية أو «العملية»! على الله سبحانه! وهو خطأ يتمثل في أخطاء كثيرة:

فأولاً: ما لنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه؟ قانون مستمد من تجاربنا المحدودة الوسائل، ومن تفسيرنا لهذه التجارب، ونحن محدودو الإدراك؟

وثانياً: فهبه قانوناً من قوانين الكون أدركناه، فمن الذي قال لنا: إنه قانون نهائي مطلق وأن ليس وراءه قانون سواه؟

وثالثاً: هبه كان قانوناً نهائياً مطلقاً، فالمشيئة الطليقة تنشئ القانون، ولكنها ليست مقيدة به.. إنما هو الاختيار في كل حال(١٠).



(١٠) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٢٩٩ــ٣٠٢.

الفصل السادس

دراسة الحديث الشريف

الحديث الشريف

يقصد بالحديث الشريف والسنة النبوية ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية. فالسنة تشمل أقوال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأفعاله وصفاته، وجميع أنماط السلوك التي قام بها غيره فأقرها أو أنكرها. وهي مصدر تؤخذ غنه العقائد والشرائع متي ثبت إسنادها، وصحت نسبتها، وصح متنها.

ويعتبر حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، كما تعتبر سنته عموماً، المصدر الثاني للإسلام عقيدة وشريعة. فالتصور الاعتقادي الإسلامي، والتصور الاجتماعي الإسلامي إنما يصدران من القرآن الكريم أولاً، ثم من سنة الرسول صلي الله عليه وسلم ثانياً. ولذلك تعتبر السنة بمثابة التفسير والإيضاح لما أجمل أو أشكل على المسلمين فهمه من مقاصد القرآن وتوجيهاته.

كما يعتبر الحديث الشريف توجيهاً للحياة الإسلامية وللقيم الإسلامية التي تحكم حياة الجماعة الإسلامية منذ واجهها المسلمون في عهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومايزالون يواجهونها حتى اليوم. فالسنة النبوية قيادة للحياة بكل تفصيلاتها الدقيقة التي لم يتعرض لها القرآن الكريم بالشرح والتفصيل.

والحديث الشريف قد يكون «نبوياً» أي من كلام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بينما المعاني تكون من جملة الوحي المنزل عليه ــ عليه الصلاة والسلام. وقد يكون الحديث «قدسياً»، فيكون من كلام الله عز وجل، المنزل على رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بلفظه ومعناه، أو بمعناه دون لفظة.

وربما كانت أهم الفوارق بين القرآن والحديث هي ــ بالإضافة إلى أن القرآن هو المصدر الأول للإسلام، والحديث هو المصدر الثاني ــ أن القرآن لا تجوز روايته بالمعنى، فلا يقال مثلاً: يقول الحق سبحانه ما معناه كذا وكذا، بينما يجوز ذلك بالنسبة للحديث. وأن القرآن قد تعهده الله بالحفظ والعصمة من الخلط واللبس في قوله تعالى: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**»، بينما الحديث قد دخله الكثير من الأحاديث الموضوعة التي تتنافى مع أصول الإسلام أو مع روحه. وقد كثرت الأحاديث الموضوعة وشاعت خاصة في قرون الضعف والتخلف. وقد روجها أعداء الإسلام لطعن الدين الإسلامي بها، وتشويه صورته لدى أهله، ولدى الآخرين. والهدف النهائي هو إضعاف المسلمين عن طريق إبعادهم عن دينهم.

في المرحلة الجامعية يجب أن يدرس تفسير القرآن على مستوى التفاسير الموجودة حالياً كتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وفي ظلال القرآن لسيد قطب. ويجب أن تخصص «أقسام» لدراسة القرآن والسنة، وأن تحل محل أقسام الفلسفة في كليات العلوم النظرية كالآداب والتربية وغيرهما من كليات إعداد المعلمين على وجه الخصوص.

تمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة:

وواجب مناهج علوم العقيدة والشريعة أن تبصر الأجيال الصاعدة بالأساليب والطرائق التي بها يستطيعون الحكم على دقة الحديث وصحته عن طريق التأكد من متنه وسنده، وعن طريق الاحتكام إلى النصوص الصريحة في موضوعه من القرآن والسنة، فإن لم يوجد فبالاحتكام إلى روح الإسلام واتجاهه العام. وهناك بعض الكتب التي ألفت بقصد توجيه المسلم في هذا الموضوع، من أهمها: «اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للسيوطي، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني، و«الأحاديث الموضوعة وأثرها السيىء» لمحمد ناصر الدين الألباني.

ويمكن مساعدة الطلاب على تمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة بعدة أساليب من أهمها:

١ ــ الإكثار من دراسة الأحاديث الصحيحة التي توضح حقيقة التصور

الإسلامي للألوهية والكون، والإنسان، والحياة. كما توضح مركز الإنسان في الكون، وطبيعة وظيفته في الحياة. فمن شأن ذلك أن يجعل التلميذ يحس بالأحاديث التي لا تتناسب مع طبيعة التصور.

٢ــ وضع معاجم سهلة للكشف عن الأحاديث الصحيحة، وتدريب الطلاب على الكشف فيها عن الأحاديث الصحيحة. فمن المؤسف أن معاجم ألفاظ الحديث، قليلة، وبعضها وضع بواسطة هيئات أجنبية، واستعمالها لا يتيسر إلا للمختصين!

٣ــ عرض نماذج من الأحاديث الموضوعة لبيان انحرافها عن التصور الإسلامي، وعن سنن الله في الكون. فالقول الذي شاع من قبل على أنه حديث وهو: «إذا غضب الله على قوم أمطرهم صيفاً»، هو ــ مثلاً ــ قول متناقض مع سنن الله وقوانينه لتنظيم الكون، التي منها قوانين دوران الأرض حول محورها الذي ينتج عنه الليل والنهار، ودورانها حول الشمس الذي ينتج عنه الفصول الأربعة، وقوانين الرياح والبخار والأمطار.. الخ[1]. كما أن هذا يتنافى مع سنة الله في الماء التي تتمثل في قول الحق: «وجعلنا من الماء كل شيء حي» (الأنبياء: ٣٠) وقوله سبحانه: «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج» (الحج: ٥).

أهداف تدريس الحديث وكيفية اختيار محتواه:

ذكرنا فيما سبق مجموعة من الأهداف العامة التي يجب على جميع مناهج التربية عامة، ومنهج علوم العقيدة والشريعة خاصة، العمل على تحقيقها من خلال تربية الأجيال المسلمة القادرة على ذلك. وهذه الأهداف ــ مرة أخرى ــ باختصار هي:

١ــ إدراك مفهوم حقيقة الألوهية في التصور الإسلامي، في علاقاتها بالكون، والإنسان، والحياة.

---

(١) انظر: ابراهيم محمد الشافعي: التربية الإسلامية وطرق تدريسها، الكويت، مكتبة الفلاح، ط ٢، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ص ١٩٨.

٢ــ إدراك الفروق الدقيقة والعظيمة في نفس الوقت بين حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية.

٣ــ تعميق شعور الإيمان بالله، والأخوة في الله، والاعتصام بحبل الله المتين. فبدون الإيمان بالله لا توجد الأمة الإسلامية، وبدون الأخوة «في الله» لا تستمر هذه الأمة، ولا يبقي لها مكان في الأرض ــ فضلاً عن مكانة ــ ولا ذكر في السماء.

٤ــ إدراك حقيقة وسطية هذه الأمة وشهادتها على الناس. والعمل الدائم الجاد لتحقيق هذه الوسطية، والحفاظ عليها.

٥ــ إدراك حقيقة تميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم. فهذه الأمة متميزة بعقيدتها الربانية، ومنهجها العالمي الثابت الشامل.

٦ــ تعميق مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عقول وقلوب الأجيال المسلمة. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو «صفة» هذه الأمة، وهو «وظيفة» هذه الأمة. وبدون تحقيق هذه «الصفة» وهذه «الوظيفة» في الأمة، أي في أبنائها، فلن يكون هناك إيمان بالله، ولا أخوة في الله، ولا اعتصام بحبل الله، ولا وسطية للأمة، ولا تميز.

٧ــ تعميق الإيمان بأهمية وحدة المسلمين، والمساهمة بإيجابية وفاعلية في تحقيق هذه الوحدة والحفاظ عليها. فبدون هذه الوحدة يكون التنازع، والتفرق، والضياع: «ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحكم».

٨ــ المساهمة في تحقيق ذات الإنسان ــ الفرد ذكرًا كان أم أنثي ــ وفق فطرة الله فيه. فتحقيق الذات إنما يكون عن طريق تربية الإنسان وإعداده، لإيصاله إلى درجة كماله وفق فطرة الله فيه(٢).

إن الأهداف السابقة علامات مميزة، ومعايير مرشدة في عملية انتقاء النصوص المناسبة من القرآن والسنة، ومن التوحيد، والفقه، والسيرة، لكل مرحلة عمرية، ولكل مجموعة من متطلبات النمو، ولكل هدف من الأهداف سواء.

٩ــ إن الأهداف السابقة كلها تتحقق من خلال الاقتداء بشخصية الرسول

(٢) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى الفصل الخاص بالأهداف.

عليه الصلاة والسلام ، و بأقواله وأفعاله . فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد وصفه ربه بقوله : « **وإنك لعلى خلق عظيم** » (القلم : ٤) ، ثم إنه ــ سبحانه ــ جعله الأسوة الحسنة لنا : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا** » (الأحزاب : ٢١) وجعل إيماننا موقوفًا على تحكيم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في كل شؤوننا : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ، ويسلموا تسليما** » (آل عمران : ٦٥) .

ولا شك أنه يمكن البدء بتدريس بعض الأحاديث القصيرة الواضحة في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية ، وذلك من أجل تقريب شخصية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الطفل . و يفضل أن يكون ذلك عن طريق الحكاية والقصة . وعدم الإصرار على الحفظ قبل الفهم .

والقاعدة التي ينبغي إتباعها في التعامل مع نصوص العقيدة والشريعة كلها ، هي عدم مطالبة الأطفال بحفظ النصوص قبل فهمها ، حتي لو كان الفهم مبسّطًا للعموميات . فالأطفال يجدون صعوبة كبيرة في حفظ النصوص قبل فهمها . ثم إن الحفظ دون فهم سرعان ما ينسى دون أن يترك أثرًا حسنًا في نفوس الأطفال ، بل العكس هو الذي يحدث غالبًا .

أما طلاب المرحلتين ، الإعدادية والثانوية ، فهم في أمس الحاجة إلى شخصية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ للاقتداء بها في حياتهم . فطلاب هذه المرحلة يبحثون عن الشخصية التي يتمثلونها في حياتهم ، لذلك هم يبحثون دائمًا عن شخصيات الزعماء ، والأبطال والفرسان ، فيما يقرأون ، ويشاهدون ، ويستمعون . وهنا يأتي دور منهج الحديث في انتقاء واختيار الأحاديث المناسبة التي ترسم معالم شخصية الرسول القوية في غير استبداد ، الحاسمة في غير ظلم ، الرحيمة من غير ضعف ، الشجاعة من غير تعد ولا عدوان إلا على الظالمين .

إن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بالإضافة إلى التأسي بسماته الشخصية السابقة ــ يضفي على نفس الشباب لمسة إنسانية ، ونفحة

روحية ، تجعل مقصدهم في الحياة أسمى من مجرد الحياة المادية . فالرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ عندما يقول « داووا مرضاكم بالصدقة » ، قد لا يجد أحد علاقة سببية ـــ من وجهة نظر العلم المادي ـــ بين الصدقة وشفاء الأمراض ، لكنها قد توجد في النفحات الروحية والعلاقات الإنسانية التي تفيض بها السنة المطهرة .

١٠- أن يتدرب الطلاب على الاتصال المباشر بالأصول ، بالنبع الصافي الذي لم يتعكر ماؤه ، ولم يختلط و يتلبس بالإسرائيليات ، والفلسفات ، والأساطير ، والخرافات .. ليأخذ منه تصوره عن الألوهية والكون ، والإنسان ، والحياة ، و يستنتج منه القواعد والأحكام والتشريعات التي تكون « تصوره الاعتقادي » و « تصوره الاجتماعي » ، وتوجه سلوكه في العمل في عمارة الأرض ، وترقية الحياة على وجهها وفق منهج الله .

١١- الوقوف على جوانب الإعجاز البلاغية والجمالية في كلام الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ وتنمية الثروة اللغوية لفظية ومعنوية ، من خلال القراءة والفهم والاستماع إلى قمة البلاغة والبيان العربي ، ومحاولة النسج على نفس المنوال كلاماً ، وكتابة .

١٢- واقترح أن يكون كتاب « رياض الصالحين » للإمام النووي ملازماً للطلاب في جميع مراحل التعليم العام ـــ فقد جمع الأحاديث المتفق عليها ـــ كما تلازمهم نسخة موحدة من القرآن الكريم ، بها تفسير موجز .

عملية تدريس الحديث

تتم عملية تدريس الحديث الشريف على مرحلتين : مرحلة إعداد الدرس وتحضيره في كراسة التحضير ، ومرحلة تنفيذ الدرس وفق خطوات محددة داخل حجرة الدراسة .

تحضير الدرس في كراسة التحضير :

كما سبق أن قلنا بالنسبة لتدريس نصوص القرآن الكريم ، نقول هنا أيضاً ، إنه لابد أن يعد المدرس نفسه للدرس قبل أن يقف في حجرة الدراسة . وهنا أنبه إلى نقطة هامة ، قد نبهني إليها أحد الطلاب في قاعة

المحاضرات ، عندما اعترض قائلاً : هل من الضروري أن أعد الدرس ، وأن أحضره في كراسة التحضير؟ أليس هذا «روتينا» لا داعي له ؟!

وهنا تنبهت إلى أن بعض إخواننا من مدرسي العلوم الشرعية يظنون أن معلوماتهم غزيرة إلى الحد الذي يجعلهم لا يحضرون الدروس ولا يفكرون فيها ، ولا يرسمون لها الخطط قبل الدخول إلى حجرة الدراسة !

وأقل ما يمكن أن يصيب هؤلاء نتيجة لذلك هو:

١ ــ إصابة المدرس بلون من ألوان «القدم المعنوي» في مادته ، وفي طرائق وأساليب تعليمها وتعلمها .

٢ ــ عدم تحقيق أهداف الدرس الرئيسية ، والانصراف إلى مسائل ثانوية وأمور لا قيمة حقيقية لها .

٣ ــ انصراف التلاميذ عن المدرس بالنوم أو اللعب والمشاغبة ، وهبوط قدره في نظرهم .

٤ ــ عدم القدرة على ربط النصوص بحياة التلاميذ ، وبالقضايا التي تشغلهم في مجتمعهم وبذلك يترسب في أعماقهم رويدا رويدا أن الإسلام لا علاقة له بالمجتمع والحياة !

٥ ــ تنافي هذا السلوك وتناقضه مع قيم الإسلام في العمل ، التي تتطلب من العامل أن يحسن العمل ، وإحسان العمل في التصور الإسلامي يتطلب أمرين : الأمر الأول هو إتقان العمل ، والوصول إلى أقصى درجة ممكنة من المهارة فيه . والأمر الثاني هو الاتجاه بالعمل كله إلى الله طمعا في رضاه ، وخشية من عقابه ، وبذلك لا تسخر نتيجة العلم والعمل إلا في الخير لوجه الله ، وبذلك فقط تنمو الحياة وترقي وفق منهج الله .

وبناء على ما سبق ، فإن على المعلم أن يقرأ درسه جيدًا ، وأن يعود إلى مصادره ، وأن يستوثق من دقة النصوص المكتوبة ، ومن دقة تفسيرها وشمول شرحها . والمدرس الراشد هو الذي ينجح في أن يجعل طلابه يعرضون النصوص على حياتهم ، ليعرفوا أين يقفون منها ، ويقوّموا سلوكهم تبعا لذلك .

والآن سأعرض صورة مقترحة لتحضير نص من نصوص الحديث الشريف.

نص الحديث:

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: «لو أنى فعلت كذا كان كذا»، ولكن قل: «قدر الله، وما شاء فعل»، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**» (رواه مسلم في باب القدر، وابن ماجه في باب الزهد).

والآن يمكن تحضير هذا الحديث في كراسة التحضير على النحو التالي:

الفرقة ....

التاريخ: ١٥ محرم ١٤١٠هـ

المادة: حديث شريف — الموضوع: الإسلام دين القوة والحياة

أولاً ــ أهداف الدرس:

لابد من تحقيق الأهداف التالية في التلاميذ من خلال هذا الدرس:

١ ــ أن يدرك التلاميذ الحكمة من كون المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

٢ ــ أن يفهموا المظاهر التي تتجلى فيها قوة المؤمن مثل الحرص على كل نافع، والاستعانة بقوة الله، وعدم التثاقل والكسل.. الخ.

٣ ــ أن يدركوا كل معاني «القوة» ومقتضياتها كما وردت في الحديث الشريف.

٤ ــ أن يفهموا العلاقة بين قدرة الله، ومشيئته المطلقة في خلقه، وبين إرادة الإنسان، وحريته في العمل والاختيار.

٥ ــ أن يدرك الطلاب نتيجة الصبر عند المصائب، ونتيجة عدم الاسترسال فى الأوهام، والعكس بالعكس.

ثانيًا ــ الأفكار الأساسية :

تحقيق الأهداف السابقة يتم من خلال معالجة كل ما ورد فى الحديث عمومـًا ،.. ولكن مع التركيز علي الأفكار الرئيسية التالية :

١ ــ مفهوم المؤمن القوي في الحديث .
٢ ــ الحكمة من كون المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .
٣ ــ مظاهر القوة التي عرضها الحديث ومقتضياتها في الحياة الحاضرة .
٤ ــ العلاقة بين قدرة الله وإرادته ، وبين قدرة الإنسان ، وحريته ، واختياره .
٥ ــ الصبر عند وقوع المصائب ، والمثابرة على الكفاح دون استسلام أو كسل .

ثالثًا ــ طريقة السير فى الدرس :

١ ــ التمهيد للدرس عن طريق إلقاء مجموعة من الأسئلة متصلة بأهم أفكار الدرس وأهم أهدافه .
٢ ــ قراءة المدرس للحديث قراءة جهرية متقنة ، ثم تدريب التلاميذ علي قراءته قراءة جهرية سليمة . وبذلك يسلم نطقهم لنص الحديث من البداية ، وبذلك لا تترك للتلاميذ فرصة للنطق الخاطئ ، والثبات عليه .

وبعد القراءة الجهرية تتم مناقشة التلاميذ حول القضايا التالية :
أ ــ الفكرة العامة للنص .
ب ــ الأفكار الرئيسية .
جـ ــ المفردات والتعابير غير المفهومة .

٣ ــ الخطوة الثالثة هي أن تترك الفرصة للطلاب كي يقرأوا نص الحديث وشرحه (إن وجد) قراءة صامتة . وعقب القراءة الصامتة

يدور نقاش يتناول فقرات النص فقرة فقرة، وجزءاً جزءاً، مع ربط الجزئيات بالكليات، وربط كل المعاني بالحياة اليومية في مجتمع التلاميذ.

٤ ـ مساعدة الطلاب علي استنتاج المبادىء والأحكام والتشريعات، والوقوف علي مظاهر الإعجاز في كلام سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

٥ ـ تكليف التلاميذ بحفظ الحديث الحديث إذا كان مقررًا للحفظ.

رابعًا ـ التقويم:

قبل نهاية الحصة يجيب الطلاب عن بعض الأسئلة التالية في الفصل، وعن بعضها الآخر في كراسة الواجب المنزلي:

ـ ما معني «القوة» في قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي»؟

ـ لماذا كان المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وما علاقة ذلك بالخلافة في الأرض.

ـ ما مظاهر القوة التي ذكرها الحديث؟ وهل لديك مظاهر أخرى؟

ـ ما العلاقة بين إرادة الله المطلقة فى الكون، وبين فعل الإنسان وحريته واختياره؟

هذه هي الصورة المقترحة لتحضير نص الحديث في كراسة التحضير. وهي كما ترون مرآة صادقة لما ينبغي أن يقوم به المدرس مع التلاميذ في حجرة الدراسة. ولا شك أنه يمكن اختصار هذا التحضير، لكن الاختصار يعني دائمًا الاستغناء عن التفاصيل الجزئيات مع الحفاظ على الكليات التي تمثل الهيكل العام. وهذا يعني هنا أنه لابد من إثبات الخطوات الأربع الرئيسية في التحضير، وهي: تحديد الأهداف، وتحديد الأفكار الرئيسية، وتحديد طريقة السير في الدرس، ثم التقويم.

والآن نتناول خطوات السير في درس الحديث خطوة خطوة بالتفصيل، لبيان أهمية كل خطوة، وكيفية تنفيذها:

خطوات السير فى درس الحديث:

على نحو ما رأينا في كراسة التحضير، فإن درس الحديث الشريف يسير وفقاً للخطوات التالية:

أولاً ـ التمهيد:

الهدف من التمهيد للدرس هو جذب اهتمام الطلاب وتشويقهم لمناقشة القضايا التي يتناولها نص الحديث. ومن الأهداف الرئيسية للتمهيد لفت انتباه الطلاب لأهم أهداف الدرس، التي سيتم التركيز عليها، كما سيتم تقويم تعلمهم وفقاً لها. وهنا يحسن أن يقوم المدرس بالتمهيد للدرس عن طريق إلقاء بعض الأسئلة المتصلة بأهداف الدرس، كأن يقول مثلاً:

«بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام علي رسول الله. معنا اليوم حديث نبوي شريف سيساعدنا على الإجابة عن الأسئلة التالية:

ـ ما معني القوة الحقيقية في التصور الإسلامي؟ ولماذا كان المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؟

ـ وما مظاهر قوة المؤمن؟ وما علاقة قوة الإنسان بكونه خليفة لله في الأرض؟ ولماذا يحرص المؤمن على الاستعانة بقوة الله؟ ولماذا كان الصبر عند وقوع المصائب، والمثابرة على الكفاح دون استسلام أو كسل من علائم قوة الإنسان المؤمن؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما سنجيب عنها في درس اليوم إن شاء الله. وهنا قد يبرز المدرس سبورة إضافية كتبت عليها هذه الأسئلة، ويجوز أن يكون قد أعدها في لوحة منفصلة تعلق أمام التلاميذ.. ويجوز أن يستعمل أية وسيلة أخرى.

ثانياً ــ القراءة الجهرية للحديث:

يتفق معظم المربين على أن القراءة الجهرية للنص القرآني ولحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ــ هي الخطوة التي تعقب التمهيد الذي قام به المدرس. فتكون بذلك أول اتصال للطلاب بالنص من خلال قراءة المدرس للنص قراءة متكاملة. ويجوز هنا أن يكون النص مسجلاً لأحد القراء المجيدين. وبعد قراءة المدرس للنص، يأتي دور تدريب الطلاب على قراءته قراءة صحيحة فيها محاكاة للقراءة التي استمعوا إليها. وبذلك نكون قد عصمنا الطلاب من مغبة القراءة الخاطئة والثبات عليها حتى نهاية الدرس، مما قد لا يجدي التصويب آنذاك. ونصوص الحديث في ذلك كنصوص القرآن.. فالواقع يشهد أن هناك أحاديث كثيرة يصعب على المدرسين قراءتها. فما بالنا بالطلاب!

وبما أن القراءة الجهرية تركز على التدريب على النطق السليم للنص، فإن المناقشة التي يعقبها يجب ألا يتعدى حدود العموميات من أفكار ومفردات وتعابير، كأن يسأل المدرس عقب انتهاء القراءة الجهرية ــ قائلاً:
«والآن من يجيب عن السؤال التالي:
ــ ما الفكرة العامة لهذا النص؟ ويظل يتلقى إجابات إلى أن يحصل على الإجابة الصحيحة وهي: «أن الإسلام دين القوة، لأنه منهج الله للحياة».. وهنا يقوم بتسجيل الفكرة العامة للدرس في أعلى منتصف السبورة. ثم يسأل:
ــ ما الأفكار الرئيسية في هذا الحديث؟ ويتلقى الإجابات وكلما تلقى فكرة رئيسية صحيحة سجلها على السبورة حسب ورودها في النص، إلى أن ينتهي من الوصول إلى الأفكار الرئيسية كلها وتسجيلها على الجانب الأيمن للسبورة.

ثم بعد ذلك يسأل عمن لديه ألفاظ أو تعابير غير مفهومة، ولا بأس من أن يجيب تلميذ على آخر، حتي يتم الوصول إلى الإجابات الصحيحة. والقاعدة الأمثل هنا ألا يتدخل المدرس إلا عندما يعجز الطلاب، بذلك

يشعرون أنهم قوة إيجابية فاعلة في تنمية عملية التعليم والتعلم، و يستخدمون طاقاتهم في العمل والتساؤل والتفكير والإجابة .. إلخ.

ثالثاً ــ القراءة الصامتة للحديث:

من المعروف علمياً أن القراءة الصامتة هي أعون ألوان القراءة على الفهم والسرعة في القراءة. لذلك أقترح أن تكون هي الخطوة الثالثة في التعامل مع النص داخل حجرة الدراسة. فيسأل المدرس تلاميذه أن يقرؤوا الحديث، وراو يه، وشرحه، ومايستفاد منه قراءة صامتة فيما لا يتجاوز خمس دقائق مثلاً. و بعد انتهاء التلاميذ من القراءة الصامتة، يبدأ الدرس بالتساؤل عن راوي الدرس واسهاماته ثم يتناول كل جزئية من جزئيات الحديث بالتساؤل وتلقي الإجابات، والتدخل بالإجابة عند الضرورة، وترك الحر ية المضبوطة للتلاميذ كي يسألوا ويجيبوا على بعضهم البعض، .. وهكذا يتم تناول أفكار النص، وجزئياته، مع ربط الأجزاء بالكل، أي بالفكرة العامة. ومع دراسة أوجه الجمال والبلاغة فيه.

والمعلم المؤثر هو الذي يجعل طلابه يعرضون نص الحديث وأفكاره على أنفسهم وعلى حياتهم وسلوكهم، ليتعرفوا على مواقعهم من المعايير والقيم التي يحملها الحديث.

رابعاً ــ الاستنباط والاستنتاج:

بعد الانتهاء من تناول النص كله: جملة وتفصيلاً، شكلاً ومضموناً، يأتي دور استنباط القيم والمعايير والأحكام والتشر يعات. فحين يسأل المدرس التلاميذ ــ في هذه المرحلة ــ ماذا يمكن أن نستفيد من الأحكام والأفكار من خلال هذا الحديث؟ فالإجابة يمكن أن تأتي على النحو التالي:

ــ إن مفهوم «القوة» في التصور الإسلامي شامل لقوة العقيدة، وقوة العقل، وقوة الجسم وقوة العمل والإرادة، وقوة الصبر على المكاره، والقوة في عدم الإستسلام والخضوع لوساوس الشيطان ... الخ.

ـ هناك علاقة وثيقة بين مفهوم «القوة» في التصور الإسلامي، وبين وظيفة الإنسان كخليفة لله في الأرض. فالخلافة في الأرض تتطلب القوة بمفهومها السابق، لأن مقتضى الخلافة أن يقوم الإنسان على عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله. وهذا يتطلب جميع ألوان القوة التي سبق ذكرها.

ـ حرص المؤمن القوي على عمل كل ما هو نافع ومفيد له وللآخرين، فالعمل النافع هو الذي يساهم في تحقيق عمارة الأرض.

ـ المؤمن القوي هو الذي يؤمن بأن قوته مستمدة من قوة الله، وهو الذي يستعين بهدي الله وقوته في كل الأمور.

ـ المؤمن القوي هو الصابر على البلاء، الحاسم في الأداء من غير ظلم.

ـ المؤمن القوي هو الذي يفهم أن الكون كله يسير بقدرة الله وإرادته، ويفهم ـ في نفس الوقت ـ أن هذا لا يتعارض مع إرادته الحرة، واختياره الواعي، فالله لا يغير ما بالإنسان إلا وفق ما صارت إليه نفس الإنسان وإرادته، وعمله: **«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»** (الرعد: ١١). **«ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»** (الأنفال: ٥٣).

ـ إن كل ما سبق يعني بالنسبة لنا ـ كأمة ـ أننا إذا أردنا أن ينصرنا الله، وأن يمكن لنا في الأرض، وأن يكون لنا ذكر في السماء.. فلابد أن نكون أقوياء.

خامسًا ـ التقويم:

طبعًا عملية التقويم هنا عملية مستمرة منذ بداية الدرس. لأن المدرس بدأ بأسئلة، والتفاعل داخل حجرة الدراسة تم من خلال الحوار والمناقشة، وطرح الأسئلة، والتفكير فيها والإجابة عنها، وبالتالي فإن عملية التقويم البنائي أو التكويني عملية مستمرة طوال الدرس. لأن هذه طريقة للتدريس تقوم على الحوار والمناقشة، ولا تقوم على الخطابة والمحاضرة.

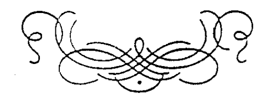
ومع ذلك فإنه من الضروري ـ قبل نهاية الدرس ـ أن يلقي المدرس مجموعة من الأسئلة التي تكشف عن مدى تحقق أهداف الدرس في طلابه،

و يتلقي عليها الإجابات لمعرفة أوجه القوة، وأوجه القصور و يعالجها، وربما في وقت لاحق، وربما من خلال الواجبات المنزلية التي يكلف بها الطلاب.

فقد يكلف الأستاذ التلاميذ بالإجابة عن التساؤلان التالية في كراسة الواجب:

ــ ما مفهوم القوة في التصور الإسلامي، وما علاقة هذا المفهوم بمفهوم الخلافة في الأرض؟

ــ ما علاقة مفهوم «القوة» في التصور الإسلامي بمظاهر التخلف التي نراها فى مختلف أقطار الأمة الإسلامية هذه الأيام؟.. وهكذا.



الفصل السابع

منهج دراسة التوحيد

التوحيـــد

جوهر العقيدة:

عقيـدة الإسلام تشمل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وكل ركن من هذه الأركان وثيق الصلة بسائر الأركان، فهي تكون كلاً واحدًا متكاملاً، لكن سائر الأركان مرتبط بالركن الأول ارتباط صدور، وارتباط غاية. فكل شيء صادر من الله.. وكل شيء عائد إليه.

فالله.. هو الحقيقة الكبرى، والحقيقة الأولى.. والحقيقة الأخيرة، والحقيقة الأزلية. وهذا الإسم «الله» علم على الذات المقدسة، التي نؤمن بها ونعمل لها، ونعرف أن منها حياتنا، وإليها مصيرنا.

والإيمان بوجود الله، ذاتـًا وصفاتـًا هو لب العقيدة، وجوهر التوحيد.. ووجود الله تعالى من البداهات التي يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته. وليس من قضايا العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير الصعبة.

والعقيدة الإسلامية منهج عمل متكامل للدنيا والآخرة، فهي تربط ملكوت الأرض بملكوت السماء في كل حركة، وكل شعور، وكل عمل، وكل تفكير. فالعمل للدنيا هو في ذات الوقت عمل للآخرة، والعمل للآخرة هو في ذات الوقت عمل لإعمار الدنيا على عهد الله وشرطه. ونشاط الإنسان المسلم كله عبادة لله، طالما توجه به الإنسان إلى الله: **«قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لاشريك له»** (الأنعام: ١٦٢–١٦٣).

والتوحيد هو جوهر دين الله للبشر من آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام: «**وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**» (الأنبياء: ٢٥).

والتوحيد ثلاثة أنواع: **توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الذات والصفات**. أما توحيد الربوبية، أو ما يسمى بتوحيد الله بأفعاله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة.. والإيمان بوجوده ذاتًا وصفاتًا. وهذا الإيمان فطرة مستكنة في خلق الله للإنسان، وعهد مقطوع على بني البشر منذ خلقهم الله، وهم بعد في ظهر الغيب: «**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**» (الأعراف: ١٧٢).

أما توحيد الألوهية، فيسمى توحيد الله بأفعال العباد. وهذه الوحدانية هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي كله، وينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها، بنظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية. فعن هذا التصور ينشأ الإتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة، فلا يكون إنسان عبدًا إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا الله، ولا يلتزم إلا بطاعة الله.. وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده. فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، بحيث تجيء التشريعات البشرية من شريعة الله.. وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم الخلقية، والعلمية والمعرفية كلها من ميزان الله.. وبذلك فلا شرعية لنظام أو لقانون أو لتغير سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو تربوي يخالف منهج الله: «**الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض. من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤده حفظهما. وهو العلي العظيم**» (البقرة: ٢٥٥).

وبناء على ذلك فلا طاعة إلا لله ولمن يعمل بأمر الله وشرعه.. والسلطان لا سلطان له إلا من تنفيذه لمنهج الله. والله هو صاحب السلطان والسيادة وحده.. فلا سلطان ولا سيادة على ضمائر البشر وسلوكهم إلا لله.

فالتشريعات وقواعد الأخلاق، ونظم الحياة كلها لا تتلقى إلا من صاحب السيادة الأوحد وهو الله.. هذا هو معنى الإيمان بالله.. ثم ينطلق الإنسان حرًا بعد ذلك إلا من الحدود التي شرعها الله.. عزيزًا على كل أحد إلا بسلطان من الله: **«الٓمٓ. الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل. من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذوانتقام. إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولافي السماء. هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لاإلٰه إلاهو العزيز الحكيم. هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ومايعلم تأويله إلاالله، والراسخون في العلم يقولون: آمنا به، كل من عند ربنا، ومايذكر إلا أولوا الألباب»** (آل عمران: ١ــ٧).

الشهادة على الناس:

« شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط. لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم» (آل عمران: ١٨).

«وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا» (البقرة: ١٤٣).

إن حقيقة التوحيد، توحيد الألوهية، توحيد القوامة.. القوامة بالقسط، هي الحقيقة الأولي التي يقوم عليها التصور الإسلامي، كما سبق أن قلنا.. لكن شهادة الحق ــ سبحانه ــ بأنه لا إله إلا هو، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها، وهو أنه لا يقبل من العباد إلا العبودية الخالصة، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام اعتقادًا وشعورًا وعملاً.

أما شهادة الملائكة وشهادة أولو العلم، فهي متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها، والتلقي عن الله وحده، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بلا شك ولا جدال.. فالملائكة «يفعلون ما يؤمرون» والراسخون في العلم يقولون: «آمنا به، كل من عند ربنا».

وأمة الإسلام أمة وسط وشاهدة على الناس بإقامة حكم الله في حياتها هي أولاً، وفي حياة الناس ثانياً بالدعوة إلى الله، وبالجهاد في سبيل الله.

وعلى هذا فالذين يقولون: إنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لايتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره.. هذه الأمور كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله، ولا تستقيم مع شهادة الله ــ سبحانه ــ بأنه لا إله إلا هو، ولا تستقيم مع صفة أمة الإسلام ووظيفتها وهي أنها أمة «وسطاً» شاهدة على الناس.

إن الإيمان بالملائكة جزء من الإيمان بالغيب.. لا يكتمل الإيمان إلا به. فهم عباد الله المكرمون، الذين يسبحون بحمد الله ويقدسون له ويفعلون ما يؤمرون.. وهم يحيطون بنا، ونحن نتعامل معهم في حياتنا اليومية رغم أننا لا نراهم.. فالإيمان بوجودهم جزء من الإيمان.

كتاب الله واحد:

والإيمان بكتب الله المنزلة على رسله جزء من الإيمان بعقيدة التوحيد: **«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون»** (آل عمران: ٢٣).

إن كتاب الله هو كل ما نزل على رسله، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته فهو كتاب واحد في حقيقته، أوتي اليهود نصيباً منه وهو التوراة، وأوتي النصارى نصيباً منه وهو الإنجيل، وأوتي المسلمون الكتاب كله وهو القرآن، باعتبار القرآن جامعاً لأصول الدين كله، ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب:

«ما فرطنا في الكتاب من شيء» (الأنعام: ٣٨).

«إن هو إلا ذكر للعالمين» (ص: ٨٧).

لقد خلق الله البشر. وهو أعلم باحتياجاتهم، فتكفل برزقهم **«هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها»** (هود: ٦١).

وتكفل بتعليمهم وتربيتهم فأودع فيهم قوى الإدراك الظاهرة والباطنة: **« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »** (النحل: ٧٨).

وتكفل بهدايتهم، فأرسل إليهم الأنبياء والرسل لإقامتهم على أمر الله: **« ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »** (النحل: ٣٦).

« وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (الأنبياء: ٢٥).

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو صاحب الرسالة الخاتمة التي بها تمام الدين وتمام النعمة: **« اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا »** (المائدة: ٣).

و يقول ــصلى الله عليه وسلمــ: **« مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به و يعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين »** (رواه مسلم).

الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر جزء لا يكتمل الإيمان إلا به، وهو إيمان بالغيب الذي لم يشهده أحد فسبيله الصحيح هو النقل مما جاء في الكتاب والسنة.

والإيمان بالغيب هو أحد أهم صفات المتقين: **« آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون »** (البقرة: ١ــ٣).

والإيمان بالغيب هو أحد أهم عوامل استقامة الحياة على منهج الله، لذلك فإن الذين لا يؤمنون باليوم الآخر يضلون في الدنيا والآخرة:

« والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم » (الأعراف: ١٤٧).

« والذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » (المؤمنون: ٧٤).

«فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون» (النحل: ٢٢).

والإيمان باليوم الآخر يشتمل على مجموعة من الحقائق يلزم الإيمان بها أيضاً وهي: فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والساعة وأماراتها، والبعث، والحساب وما يتبعه من ثواب وعقاب، والصراط، والجنة، والنار.

الإيمان بالقدر خيره وشره:

لا يصح إيمان الإنسان إلا إذا آمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله من عند الله، وأنه لا يكون شيء في الكون إلا ما قدره الله. والإيمان بالقدر يدفع المؤمن إلى العمل الصالح بعزم وثبات على الحق: **«قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون»** (التوبة: ٥١).

والإيمان بالقدر عصمة من الوهن والجزع عند المصائب والأمور التي تصيب الناس باليأس وتفتت عزائمهم: **«ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، والله بكل شيء عليم»** (التغابن: ١١).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»** (رواه مسلم).

العقيدة والمنهج والحرية والإرادة:

إن منهج التربية في التصور الإسلامي يركز في أذهان الناشئة أن حريتهم إنما تكون في عبادة الله وحده. وأن الحرية الإنسانية إنما تقوم على قاعدتين أساسيتين:

القاعدة الأولى هي إفراد الله بالعبودية.

القاعدة الثانية هي إصطفاء الله للإنسان بحرية الاختيار، وحرية الإرادة، والمسؤولية في تطبيق منهجه في الأرض.

إن المؤمن الذي يشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، اعتقادًا في الضمير، وسلوكًا في الواقع هو الذي يفرد الله بالعبودية، ومن ثم يفرده بالحاكمية. إن هذا المؤمن هو الشخص الوحيد الحر، لأنه لا يعبد طواغيت الأرض، ولا يرجو منها شيئًا، ولا يخافها. وكلما استغرق الإنسان في عبوديته لله وحده، كلما كان أكثر حرية، وأكثر أمنًا واطمئنانًا: **«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لايشركون بي شيئًا»** (النور: ٥٥).

والإنسان في عبوديته لله على ثلاث مراتب: المرتبة الأولى هي مرتبة عبودية الإنسان لله خضوعًا لقانون الفطرة، وانصياعًا لعهد الله وميثاقه الذي أخذه على بني آدم وهم بعد في ظهر الغيب السحيق حين سألهم: ألست بربكم؟ فاعترفوا له بالربوبية، وأقروا بالوحدانية.

إن المشهد الفريد لتلك الحقيقة الهائلة العميقة، المتسكنة في أعماق الفطرة الإنسانية، وفي أعماق الوجود، تصوره الآية الكريمة:

«وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» (الأعراف: ١٧٢).

إن هذه الرتبة من العبودية قد لا يختلف فيها الإنسان عن الحيوان الذي لا يعقل، والشجر الذي لا يتحرك، والملائكة الذين يفعلون ما يؤمرون. والإنسان على هذه الدرجة من العبودية لله لا يمتاز عن غيره من المخلوقات. وهذه هي درجة العبودية غير الإرادية لله أو عبودية الفطرة.

المرتبة الثانية من عبودية الإنسان لله، هي تلك التي يستخدم الإنسان فيها ما منحه الله من قوى الإدراك الظاهرة والباطنة في معرفة الله وعبادته. فالإنسان حين يستخدم عقله وقلبه وسمعه وبصره وعلمه في تدبر آيات الله ومنهجه المنزل في كتابه وفي سنة رسوله، وفي كتاب الكون المفتوح، وحين يصل من كل ذلك إلى معنى العبودية الحقة لله، فإنه يكون قد تحول من

عبودية الفطرة غير الإرادية لله إلى العبودية الإرادية المقصودة، القائمة على العلم، وحرية الإرادة والاختيار التي خص الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات.

«إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم» (الإسراء: ٩).

«وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم. أفلا تبصرون؟» (الذاريات: ٢٠-٢١).

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (فصلت: ٥٣).

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (النحل: ٧٨).

المرتبة الثالثة، وهي تلك التي يستخدم فيها الإنسان قواه المدركة الواعية، وعلمه وحريته في الاختيار، وكل قواه ومواهبه في عبادة غير الله! فالإنسان في هذه الدرجة لا يفقد فقط شرف التفوق على سائر المخلوقات، بل ويصبح أحط مكانة وأسوأ شأنًا من الأنعام:

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون» (الأعراف: ١٧٩).

«قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا؟ قال: وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى» (طه: ١٢٣- ١٢٦).

نعم، هؤلاء أحط من الدرجة الحيوانية. لأن الحيوان لم يكن ضالاً، في حين أن هؤلاء ضلوا وغووا، ولم يكن الحيوان منكرًا جاحدًا، بينما هؤلاء

أنكروا وجحدوا، ولم يكن الحيوان كافرًا ومشركًا في حين أن هؤلاء كفروا وأشركوا.

ومن هذا نصل إلى أن الدرجة الثانية هي أسمى وأعمق درجات العبودية لله. لأنها عبودية قائمة على العلم والمعرفة بالله. وعلى الاختيار الحر والإرادة الواعية. إن حرية الاختيار والتصرف، والإرادة الطليقة هما أسمى ما منحه الله الإنسان. وحين تقوم عبادة الإنسان لله على أساس من حرية الاختيار والإرادة الواعية، فإن هذه هي أسمى وأعمق درجات إفراد الله بالعبودية. كما أنها أسمى وأعمق درجات الحرية والإنسانية.

هنا نصل إلى القاعدة الثانية التي تقوم عليها حرية الإنسان المسلم وهي: المسئولية فالإنسان الذي اصطفاه ربه ـ دون سائر مخلوقاته ـ بالحرية، والإرادة الطليقة والقدرة على الاختيار ذلك الإنسان هو المخلوق الوحيد الخليق بأن تناط به مسؤولية فهم منهج الله وتنفيذه في واقع الأرض. فالحر هو الوحيد الذي يمكن أن يكون مسؤولاً، والحرية والمسؤولية وجهان لعملة واحدة. واصطفاء الله للإنسان كي تناط به مسؤولية حمل أمانة فهم وتنفيذ منهجه في الأرض، هو منتهى التكريم للإنسان:

«إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا» (الأحزاب: ٧٢).

إن السماوات والأرض والجبال وما بينها من خلائق، تعرف ربها بلا محاولة، وتهتدي إلى سنته وناموسه الذي يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها، وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولا واسطة، وتؤدي وظيفتها غير شاعرة ولا مختارة. فالشمس تدور في فلكها بطريقة لا تختل جزءاً من ثانية. وتؤدي وظيفتها ودورها الكوني ـ كما قدر لها ـ أداء كاملاً. والأرض تدور دورتها، وتخرج زرعها وتتفجر ينابيعها، وتجري المياه في بحارها وأنهارها وفق سنة الله بلا إرادة منها. وكذلك القمر والنجوم والكواكب والجبال والوهاد.. كلها تمضي لشأنها بإذن ربها، وتعرف بارئها، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة.

لقد أشفقت هذه الخلائق كما يقول الأستاذ سيد قطب من أمانة التبعة، أمانة الإرادة، أمانة المعرفة الذاتية والمحاولة الخاصة. و يقول الشيخ محمد متولي الشعراوى: إن المقصود بالأمانة هنا هي فهم منهج الله وتنفيذه في واقع الأرض. ولا أرى تعارضنا بين التفسيرين، حيث إن معرفة الإنسان لربه بإدراكه وشعوره، والاهتداء إلى ناموسه وسنته بالتدبر والتبصر.. كل هذا يقتضي العمل وفق هذا الناموس في عمارة الأرض. أي أن المعرفة الإنسانية، والتربية والتعليم، والتعلم من تصميم وتنفيذ المناهج المختلفة، كل هذا يهدف إلى الوصول إلى غاية كبرى، هي فهم منهج الله، وتنفيذ مقتضياته في واقع الأرض.

لقد ظلم الإنسان نفسه حين حمل الأمانة وهو على ما هو عليه من الضعف، وضغط الشهوات والميول والنزعات، وقصور العلم، وقصر العمر، وحواجز الزمان والمكان.

لكن الإنسان الذي يصل إلى معرفة الله بإدراكه وشعوره، ويهتدي إلى منهجه بتدبيره وتفكيره، و يعمل وفق هذا المنهج بفكره وجهده، و يقاوم انحرافاته ونزعاته، ويجاهد أهواءه وشهواته.. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة وهو مدرك واع مر يد، فإنه يصل حقـًا إلى مقام كريم، ومكان بين خلق الله فر يد[1].

إنها إذن ــ الإرادة الحرة، والإدراك الواعي، والاختيار الطليق، والمحاولة المستمرة لفهم منهج الله، وتطبيق مقتضياته في واقع الأرض، وحمل تبعه كل هذا ومسؤوليته.. هذه ــ إذن ــ هي ميزة الإنسان الفر يدة، على سائر خلق الله، فهي سر التكريم، ومناط التكليف: **«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»** (الإسراء: ٧٠).

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الرعد: ١١).

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٢٨٨٤ــ٢٨٨٥.

«ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الأنفال: ٥٣).

إن منهج التربية الذي يفوته تعميق هذه القضية في نفوس المتعلمين، قد فاته خير كثير.. بل فاته كل الخير.

أهداف تدريس منهج التوحيد:

لامراء أن منهج تدريس التوحيد لابد أن يشارك مشاركة فعالة في تحقيق الأهداف العامة لمنهج تدريس العلوم الشرعية. فهو لابد أن يسهم في تعميق فهم حقيقة الألوهية لدى الطلاب، والفرق بينها وبين حقيقة العبودية.

ولابد أن يعمل على تعميق شعور الإيمان بالله والأخوة في الله. فبدون الإيمان بالله لايوجد إسلام في الواقع وبدون الأخوة في الله لاتوجد الأمة المسلمة.

ولابد أن يربي منهج دراسة التوحيد الناشئة على أساس أن العقيدة هي آصرة التجمع الرئيسية في المجتمع المسلم، وليس الوطن أو القوم، أو المال أو الإنتاج، أو الأرض، وكل مايتصل باللحم والدم والطين؛ لأن العقيدة تتصل بأشرف عناصر إنسانية الإنسان، وهو حرية الإرادة والاختيار. فالإنسان حر في اختيار عقيدته ومنهج حياته، لكنه لا رأي له في اختيار قومه وأرضه.

إن عملية دراسة وتدريس التوحيد للأجيال الحالية لابد وأن تركز على إفهامهم أن سر تخلف المجتمعات الإسلامية الحالية هو عدم حفاظ هذه المجتمعات على تميزها بعقيدتها ومنهجها الرباني: فإذا كان المجتمع الإنساني عبارة عن: أفراد، وصلات اجتماعية، ونظم لتنسيق وتعميق الصلات الاجتماعية، وعقيدة.. فإن العنصر الأخير وهو العقيدة هو الذي يقيم النظم الاجتماعية ويوجهها، ويقيم مثلها، ويهديها إلى رشدها.. لذلك فإن المجتمع بلاعقيدة عاملة فاعلة هو مجتمع بلا هوية.. لابد أن يفهموا إذن أن هجر

العقيدة الربانية الفاعلة إلي تقليد الأخرين في إقامة نظم الحياة وأوضاعها هو أقصر الطرق للضياع والتخلف.

لابد تعميق الشعور بأن عقيدة التوحيد هي أساس وحدة الأمة الإسلامية. وأن هذه الأمة بدون الوحدة لن يكن لها مكان في الأرض ــ فضلاً عن مكانة ــ ولن يكون لها ذكر في السماء. وأنها بغير هذه الوحدة القائمة على العقيدة الربانية، ضائعة في الغمار، مبهمة الملامح، مجهولة السمات، مهما اتخذت لنفسها من فلسفات ونظريات ودعوات وأعلام: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» (الأنبياء: ٩٢).

«وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا، إن الله مع الصابرين» (الأنفال: ٤٦).

إن الإسهام في تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس هدف من أهم أهداف منهج التربية في التصور الإسلامي. وهو هدف لا يتحقق إلا من خلال تعميق الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره في شعور أجيال الأمة. فهذا الإيمان هو الذي يدفع الأمة إلى إقامة حياتها على منهج الله، كما يدفعها إلى الجهاد في سبيل نشر دين الله في أرض الله.. وهذا هو جوهر شهادتها على الناس.

إن الإنسان المسلم المؤمن المحسن ــ ذكرًا كان أم أنثى ــ هو خير من يستطيع تحقيق ذاته وفق فطرة الله فيه. فهو مؤمن أنه خلق للعبادة. وأن مقتضى العبادة أن يقوم بحق الخلافة في الأرض عن طريق إعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله. وهو مؤمن أن تحقيقه لذاته متوقف على إحسانه في العمل وفق فطرة الله فيه. وهو مؤمن بقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (رواه البخارى ومسلم عن على رضي الله عنه). فالرجل ميسر لما خلق له، والمرأة ميسرة لما خلقت له.. ومنهج تدريس العلوم الشرعية بصفة عامة، ومنهج التوحيد بصفة خاصة ــ وبالتعاون والتكامل مع مناهج العلوم الأخرى ــ لابد أن يسهم في إعداد الإنسان إعدادًا جيدًا، وشحذ كل استعدادته وقواه المدركة الظاهرة والباطنة

إلى أقصى حد هيأها الله له . وبتحقيق فطرة الله في الإنسان تتحقق الذات الإنسانية .

لابد من تغيير الرؤية التي تسربت إلى سلوكيات المسلمين نحو القرآن بأنه شعار.. مجرد شعار خير وبركة .. يتلى أو يستمع إلى تلاوته بصوت جميل .. لاعمل له أبعد من ذلك !

إن تدريس التوحيد لابد أن يعمق مفهوم الإيمان « بالكتاب » بمعنى أن كتاب الله الكامل هو القرآن ، وأنه أصل منهج الله الذي أنزله الله ليحكم الحياة ولتقام النظم والمجتمعات والمؤسسات على هدي منه .

وبالتالي فإن الأسلوب الذي نتعامل به مع القرآن في حياتنا العامة ، وفي حياتنا التربوية هو أسلوب مزر لا يليق بالقرآن ! إن القرآن هو كتاب يجب أن يدرس في مدارس ومعاهد العلم عندنا .. ولكنه في واقع هذه المدارس والمعاهد أكثر الكتب إهمالاً وإبعادًا في منهجه ؛ وفي الوقت الذي يخصص له ؛ والقدر الذي يخصص منه للدراسة ، والطريقة التي يدرس بها .. هذا إذا كان يدرس أصلاً !

إننا إن لم ننته عن هذا ليستبدلن الله قومًا غيرنا ثم لا يكونوا أمثالنا .. **« وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »** (محمد : ٣٨) .

لابد من تعميق الفهم الدال على **أهمية الرسالة والرسل**، والرسالة الخاتمة لسيد المرسلين عليه الصلاة والسلام . فإذا كان توحيد الربوبية **فطرة في** النفس البشرية ، فإن هذه النفس لديها استعدادات متساوية قابلة للخير والشر سواء . **« فكل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »** كما قال عليه الصلاة والسلام .. لقد اقتضت حكمة الخالق أن **يحفظ خلقه على الفطرة، وأن يرد من شاء منهم إلى الفطرة فجاءت الرسل** والرسالات متسقة مع طبيعة الفطرة التي فطر الله الناس عليها : **« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »** (الحديد: ٢٥) . «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» (الإسراء: ١٥) . **« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا »** (الأحزاب: ٢١) .

إن من أهم أهداف تدريس التوحيد ــ بالإضافة إلى ما سبق ــ فهم أولى العزم من الرسل من حيث طبيعة الرسالات التي جاءوا بها، وأهم خصائصها، مع التركيز على الرسالة الخاتمة لسيد المرسلين عليه الصلاة والسلام. لابد من إدراك الناشئة للعلاقة بين الإيمان باليوم الآخر وحقائقه وبين الإستقامة في الدنيا على منهج الله، لأن الإستقامة في الدنيا مرهونة بالإيمان بالآخرة والعودة إلى الله للثواب والعقاب، للجنة أو النار: **«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لاترجعون»** (المؤمنون: ١١٥).

لابد من تحقيق فهم الطلاب للإيمان بالقدر خيره وشره على الوجه الصحيح، وإدراك أثر هذا الإيمان في حياة المؤمن وسلوكه النفسي والعقلي والواقعي.

وأخيرًا فإنه لابد من تحقيق الترابط في فهم مفردات التوحيد، ابتداء بالمصدر والأساس الذي هو الإيمان بالله وبحقيقة الألوهية والتفريق بينها وبين حقيقة العبودية.. إلي الإيمان بالكتب والرسل والملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره.. فهذه سلسلة من الحقائق والمفاهيم العقائدية التي لاتستقيم حياة الفرد أو الجماعة دون فهمها والعمل بمقتضاها.

محتوى منهج التوحيد:

الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره هو جوهر محتوى منهج الله، وحوله تدور خبراته ومناقشاته.

ومن أهم مشكلات هذا المحتوى هو الأسلوب الذي يعرض به على الطلاب. إنه يعرض ــ في معظم الأحيان ــ في صورة حقائق تقرأ وتحفظ، دون أن تترك أثرها الضروري في النفس وهذا الأسلوب أقل مايفعله أنه يبعد العقيدة عن حياة الطلاب، وهذا هو أسوأ مايمكن أن يحدث.

لابد ــ إذن ــ من بيان الأثر النفسي والاجتماعي الذي يحدثه الإيمان بالله أو عدم الإيمان بالله في حياة الفرد والجماعة.. ولابد من تقويم حياة الجماعة الحاضرة في ضوء الإيمان الحقيقي بالله، ومعرفة النتائج التي ترتبت على ذلك داخل إطار المجتمعات الإسلامية وخارج هذا الإطار.

لابد من المقارنة بين إيمان الملائكة وإيمان الإنسان لمعرفة مركز كل منهما في الكون ووظيفته في الحياة، وعلاقة كل منهما بالآخر.. وعلاقة كل منهما بالله.. لابد من ربط محتوى التوحيد بالتصور الإسلامي لحقائق الألوهية والكون والإنسان والحياة.

إن العرض المقارن لكتب الله المنزلة على رسله وآخرها وأتمها القرآن الكريم أمر ضروري وهل للكتب السابقة على القرآن وجود الآن؟ وهل هذه الكتب التي يدعونها الآن بالتوراة والإنجيل هي حقاً التوراة والإنجيل المنزلة من عند الله، أم أنها مسخ مشوه للكتب السماوية؟

وهل مضمون هذه الكتب واحد أم أن مضامينها مختلفة، ولماذا كان القرآن هو آخر الكتب للرسالة الخاتمة؟

ما العلاقة بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله؟ وهل هناك رسالات بدون كتب؟ ولماذا كان القرآن معجزة الإسلام الخالدة.. وكيف نتناول القرآن في حياتنا، وكيف نتعامل معه في مدارسنا ومعاهدنا ومناهجنا ونظم التربية عندنا؟

من هم أنبياء الله ورسله بصفة عامة، ومن هم أولو العزم من الرسل، وما الأثر الذي أحدثوه في حياة البشرية، وكيف ندرس حياة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف نتأسى بها في حياتنا الفردية والاجتماعية؟

ما مدى قرب حياتنا أو بعدها عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما النتائج التي ترتبت على ذلك؟ وما موقع السيرة النبوية في المناهج الدراسية؟ وما أثر ذلك في حياة الجماعة الإسلامية؟

الحياة دنيا وآخرة.. فلماذا الإيمان باليوم الآخر؟ وما أهميته في حياة البشر؟ وما الأثر الذي ترتب على نسيان بعض الخلق أنهم راجعون إلى الله؟ وما العلاقة بين هذا الإيمان وبين استقامة الحياة على منهج الله؟

ما العلاقة بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر و بين النظم الإنسانية والاجتماعية سياسية واقتصادية وتربوية وثقافية ؟ لابد من إيضاح هذه العلاقة سلباً وإيجاباً .

ما العلاقة بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر و بين الإيمان بالقدر خيره وشره ؟ وما العلاقة بين الإيمان بالقدر خيره وشره و بين قدرة الإنسان وإرادته وحرية اختياره ؟ وماعلاقة كل هذا بخلافة الإنسان في الأرض لإعمارها على عهد الله وشرطه ؟

طرائق وأساليب التدريس والتقويم :

لاشك أن موضوعات التوحيد يمكن تدريسها بالطريقة التقليدية المتبعة حالياً ، وهي طريقة قراءة الموضوع : « الإيمان » مثلاً أو « الملائكة » أو « الكتب » .. إلخ . ومناقشة الموضوع للفهم والتحليل والتفسير و بيان واقع الحال من ذلك .. وهكذا .

لكن تجسيد موضوعات التوحيد من خلال القصص القرآني ، والمواقف التي عرضها في سياقات معينة لإحداث الأثر المطلوب منها ، ومن خلال المواقف التاريخية لأئمة المسلمين وعلمائهم ، وجنودهم وقوادهم .. إن تدريس موضوعات التوحيد من خلال هذه المواقف الحركية الحياتية مقرونة بالنصوص والآيات يكون أكثر فاعلية ، وأبقى أثرًا ، وأجدى في توجيه الفكر والسلوك .

انظر إلى التشوف إلى ملابسة الصنعة الإلهية في هذه القصة لإبراهيم عليه السلام :

« **وإذ قال إبراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل** على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعوهن يأتينك سعياً ، وأعلم أن الله عزيز حكيم » (البقرة : ٢٦٠) .

وانظر في سياق الحديث عن سر الموت والحياة إلي هذه القصة :

«أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، ثم بعثه. قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مئة عام. فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ــ ولنجعلك آية للناس ــ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً. فلما تبين له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير» (البقرة: ٢٥٩) فالآيات ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠ من سورة البقرة، تتناول موضوعاً واحداً عن سر الحياة والموت، وهي تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي :

«ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، أن آتاه الله الملك؟ إذ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت. قال: أنا أحيي وأميت! قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. فبهت الذي كفر. والله لا يهدي القوم الظالمين» (البقرة: ٢٥٨).

وهذه قصة آدم .. قصة البشرية الأولى .. قصة استخلاف الله للإنسان في الأرض ليعمرها على عهد الله وشرطه :

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا: اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعاً. فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم

ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (البقرة: ٣٠ــ ٣٩).

وهذه قصة الإيمان الراسخ.. حتي لو أدى إلى الهلاك في الدنيا.. قصة إبراهيم:

«ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟! قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدون. قال: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا: أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟ قال: بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين. وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين. فجعلهم جذاذاً إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا: سمعنا فتي يذكرهم يقال له إبراهيم. قالوا: فأتوا به علي أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون! فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم؟! أف لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون؟! قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم. وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين» (الأنبياء: ٥١ــ ٧٠).

إن العقيدة هي آصرة التجمع الرئيسية في المجتمع المسلم، وليست القرابة أو العشيرة أو القوم أو الأرض أو أي شيء يتصل باللحم والدم والطين: انظر إلى ذلك في قصة نوح عليه السلام: «ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إني لكم نذير مبين. ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرًا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين. قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون. ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قومًا تجهلون ويا قوم من

ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون. ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرًا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذًا لمن الظالمين. قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين. ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون. أم يقولون افتراه، قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون. وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون. ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم. حتي إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل. وقال: اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إن ربي لغفور رحيم. وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل: يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء. قال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين. ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح. فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين. قال: رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين. قيل نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلي أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم. تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين» (هود: ٢٥ــ٤٩).

تحضير درس التوحيد فى كراسة التحضير:

الموضوع: إعجاز القرآن الكريم

أولاً ـ الأهداف:

ـ أن يفهم الطلاب مركز القرآن الكريم في العقيدة الإسلامية.
ـ أن يدركوا معنى أن القرآن معجزة عقلية ومعنوية جامعة وليس معجزة حسية خارقة للسنن الكونية.
ـ أن يدركوا أهم جوانب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.
ـ أن يفهموا أهم جوانب الإعجاز الموضوعي في القرآن الكريم.
ـ أن يدركوا أهم جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.
ـ أن يدركوا مركز القرآن الكريم في حياة المجتمعات الإسلامية الحالية بصفة عامة، وحظه من العناية في نظم التربية ومناهجها، وأثر ذلك في أوضاع هذه المجتمعات حالياً.

ثانياً ـ المحتوى:

١ ـ القرآن هو المصدر الأول للتصور الإسلامي لحقائق الألوهية والكون والإنسان والحياة.
٢ ـ القرآن معجزة عقلية ومعنوية وليس معجزة كونية.
٣ ـ الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن.
٤ ـ الإعجاز الموضوعي.
٥ ـ الإعجاز العلمي.
٦ ـ وضع القرآن في المجتمعات الإسلامية الموجودة حالياً، وفي مناهج التربية فيها خاصة وأثر ذلك في حياة هذه المجتمعات.

ثالثاً ـ طريقة التدريس:

١ ـ التمهيد للدرس عن طريق إلقاء بعض الأسئلة المتصلة بأهدافه.

٢ ـ قراءة الدرس فقرة فقرة بواسطة التلاميذ ومناقشة مضمونها بقصد الفهم والتحليل والتفسير والوصول إلى القواعد والمبادئ العامة.
٣ ـ ربط أفكار الدرس وقواعده بالحياة البشرية عمومًا وبحياة الأمة الإسلامية على وجه الخصوص.
٤ ـ بيان الآثار الإيجابية أو السلبية في الحياة الإسلامية وفق موقفها من القرآن الكريم في حياتها وفي مناهج تربية ناشئتها.

رابعًا ـ التقويم:

يجاب عن الأسئلة التالية داخل حجرة الدراسة أو خارجها في كراسة الواجب:

ـ ما مركز القرآن الكريم في الإسلام عقيدة وشريعة؟
ـ ما معنى أن القرآن معجزة عقلية وليس معجزة حسية أو كونية؟
ـ أذكر بعض الأفكار التي حولها القرآن الكريم إلى مواقف ومشاهد متحركة مستشهدًا بالنصوص القرآنية.
ـ ما معنى الإعجاز العلمي للقرآن الكريم مستشهدًا بالنصوص القرآنية؟
ـ ما مركز القرآن الكريم في حياة المسلمين حاليًا، وما أثر ذلك على حياتهم؟

طريقة السير فى الدرس:

يتبع المدرس الطريقة السالفة الذكر في كراسة التحضير. على أنه يجب مراعاة المبادىء التالية:

١ ـ الابتعاد تمامًا عن الطريقة الميتة في تدريس موضوعات التوحيد المتمثلة في: قم، اقرأ، اجلس.. وهكذا.
٢ ـ تبني طريقة الحوار والمناقشة والتحليل والتفسير، وربط المواقف بالحياة ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية.. الخ.
٣ ـ تبني أسلوب القصة في المواقف التي يكون وقع القصة فيها أكثر فعالية وتأثيرًا مثل قصة آدم أبوالبشرية وخلافة الإنسان في الأرض، وقصة نوح، وقصة إبراهيم وقصة أصحاب الكهف.. الخ.

٤ ـ إبراز المشاهد والمواقف الحية المتحركة التي تعمق مشاعر الإيمان وتحفز على الجهاد في سبيل العقيدة مثل موقف ربعي ابن عامر من رستم قائد جيوش الفرس قبيل موقعة القادسية وموقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين، وموقف سيف الدين قطز.. الخ.

٥ ـ رسم الصور المتحركة والمشاهد الحية للساعة، والحساب، والجنة، والنار.. الخ.

٦ ـ اتخاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة والمثل الأعلى في التدليل على المواقف والسلوكيات وتوجيهها.

٧ ـ الابتعاد عن التكلف والخطابة والوعظ المباشر في تدريس الحقائق التي يشملها الإيمان باليوم الآخر مثل: الساعة، والبعث، والحشر، والحساب، والجنة، والنار، يقوم المعلم بتجميع النصوص من السنة ومن القرآن حول كل حقيقة من هذه الحقائق، ثم يقرأها على الطلاب ويقرئها لهم بطريقة تجسم الموقف وتصوره كما رسمته النصوص: إن الحياة الدنيا والآخرة قصة تحكي وتصور، ومواقف تمثل وتجسم، ابتداء من الحياة الدنيا، ومرورًا بالموت والقبر، والساعة، والبعث، والحشر، والحساب، والصراط، والجنة، والنار.

الساعة:

يقرأ المعلم النصوص التالية ويناقش معانيها مع الطلاب مستخدمًا التصوير والتجسيم والتخييل حتي ترتسم الصورة في نفوسهم فلا تفارقها، وبذلك تحدث الأثر المطلوب:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» (الحج: ١ـ٢).

«يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة. يقولون: أإنا لمردودون فى الحافرة؟» (النازعات: ٦ـ١٠).

«إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت. وإذا العشار عطلت. وإذا الوحوش حشرت. وإذا البحار سجرت. وإذا النفوس زوجت. وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت» (التكوير: ١—١٤).

«إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت. وإذا البحار فجرت. وإذا القبور بعثرت. علمت نفس ما قدمت وأخرت» (الانفطار: ١—٥).

«كلا إذا دكت الأرض دكًا دكًا. وجاء ربك والملك صفًا صفًا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول: ياليتني قدمت لحياتي. فيومئذ لا يعذب عذابه أحد» (الفجر: ٢١—٢٥).

«فكيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعل الولدان شيبًا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا» (المزمل: ١٧—١٨).

إنه الهول الذي يشمل السماوات والأرض، و يغير صورة الكون كله فتنشق السماء وتنتثر الكواكب، وتزلزل الأرض، وتسجر البحار فتشتعل نارًا والمألوف فيها أنها هي التي تطفئ النار! وتنسف الجبال نسفًا.

«و يسئلونك عن الجبال فقل: ينسفها ربى نسفًا. فيذرها قاعًا صفصفًا. لاترى فيها عوجًا ولاأمتًا. يومئذ يتبعون الداعي لاعوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا» (طه: ١٠٥—١٠٨).

فإذا بدأت أحداث الساعة نفخ في الصور نفخة أولي ثم نفخة ثانية.

«ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله. ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» (الزمر: ٦٨).

فالنفخة الأولى يصعق فيها كل من بقي حيًا في السموات والأرض إلا من شاء الله فيخرون موتى. والنفخة الثانية يقوم فيها الناس من أجداثهم ليوم الحشر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما بين النفختين أربعون (سنة) ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما

ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلاعظمًا واحدًا هو عَجْبُ الذّنب، ومنه يُرَكَّبُ الخلق يوم القيامة] (متفق عليه).

البعـث:

لقد شك الكافرون في قيام الساعة وفي البعث ابتداء من مشركي مكة قديمًا إلى جميع المشركين في الأرض الآن. يصور المعلم موقف المشركين قديمًا وحديثًا من خلال النصوص، ويصور ويجسم الرد عليهم من خلال منطق النصوص البسيط العجيب:

«وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبًا أم به جنة بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد» (سبأ: ٧ــ٨).

«وقالوا أإذا كنا عظامًا ورفاتًا أإنا لمبعوثون خلقًا جديدًا» (الإسراء: ٤٩).

«وكانوا يقولون: أإذا متنا وكنا ترابًا وعظمًا أإنا لمبعوثون. أو آباؤنا الأولون» (الواقعة: ٤٧ــ٤٨).

كان الحق سبحانه يرد عليهم بما يرونه أمامهم من الإعجاز في صنعة الخالق الحكيم فالذي صنع هذا لا يعجز عن إعادة صنعه وخلقه من جديد:

«يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور» (الحج: ٥ــ٧).

«وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (الروم: ٢٧).

«أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى. بلى إنه على كل شيء قدير» (الأحقاف: ٣٣).

«ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون: هذا شيء عجيب. أإذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد. قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ. بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج. أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصره وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج. كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد. أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد» (ق: ١ــ١٥).

«أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال: من يحيي العظام وهي رميم. قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن. فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» (يس: ٧٧ــ٨٣).

وما زال تحدي القرآن ماثلاً أمامهم:

«أم خُلِقُوا من غير شيء أم هم الخالقون» (الطور: ٣٥).

ومازال وعيده لهم قائمًا: **«فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون. يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئًا ولا هم ينصرون»** (الطور: ٤٥ــ٤٦).

ذلك أنهم علماء مزيفون: **«يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»** (الروم: ٧).

أما العلماء الحقيقيون فهم أولى الناس بالإيمان بالله والإيمان بالبعث: «**إنما يخشى الله من عباده العلماء**» (فاطر: ٢٨).

يوم الحشـــر:

يبعث الله الموتى ثم يحشرهم ليقفوا بين يدي الحق للحساب. يصور المعلم هول يوم الحشر من خلال معالجة النصوص التالية ــ وغيرها ــ ذلك الهول الذي يفرق بين الأحبة والأصدقاء، والوالد وولده.. فالناس في ذلك الموقف العصيب أحوالهم مختلفة باختلاف أعمالهم في الدنيا، كل إنسان مشغول بنفسه، وبعمله الذي كان، وبمصيره العادل المحتوم:

«**يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع**» (القمر: ٨٧).

«**وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة**» (القيامة: ٢٣ــ٢٥).

«**وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة. أولئك هم الكفرة الفجرة**» (عبس: ٣٨ــ٤٢).

«**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة**» (الزمر: ٦٠).

«**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة، ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**» (يونس: ٢٦ــ٢٧).

«**يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**» (عبس: ٣٤ــ٣٧).

ويصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم الحشر فيقول ــ من حديث عائشة رضي الله عنها ــ: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا. قلت**

يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال يا عائشة: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» (متفق عليه).

«يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا. ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا» (مريم: ٨٥ـ٨٦).

«يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرًا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما» (طه: ١٠٢ـ١٠٤).

«ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً» (الإسراء: ٩٧).

وعن المقداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): **«تُدْنَىٰ الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً»** (رواه مسلم).

الحساب:

بعد البعث والحشر يبدأ العرض والحساب: إذا كان الناس يرهبون **وقوفهم أمام مسؤول أو حاكم. هو ــ مهما عظم أمره ــ بشر مثلهم، فماذا يكون موقفهم أمام قيوم السماوات والأرض. يجسم المعلم الموقف من خلال النصوص:**

«تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبرا جميلا. إنهم يرونه بعيدًا. ونراه قريباً. يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن. ولا يسأل حميم حميماً» (المعارج: ٤ـ١٠).

«وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا» (الكهف: ٤٨).

« وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً. يومئذ لا تنفع الشفعة إلا من أذن له ورضى له قولاً. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما. وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما » (طه: ١٠٨ــ ١١١).

« فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون » (الحجر: ٩٢ــ٩٣).

« يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » (النور: ٢٤ــ٢٥).

« اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (يس: ٦٥).

« ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعلمون. وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يَسْتَعْتِبُوا فما هم من المعتبين » (فصلت: ١٩ــ٢٤).

« يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا: شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (الأنعام: ١٣٠).

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (الأنبياء: ٤٧).

« إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » (لقمان: ١٦).

« ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » (المؤمنون: ٦٢).

« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون: يا ويلتنا، مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟! ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا » (الكهف: ٤٩).

«يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمد بعيدًا» (آل عمران : ٣٠) .

«وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا» (الإسراء : ١٣ــ١٤) .

«فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابية . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا وأشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابية . ولم أدر ما حسابية . يا ليتها كانت القاضية . ما أغني عني مالية . هلك عني سلطانية . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلّوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون» (سورة الحاقة : ١٩ــ٣٧) .

«فأما من أوتي كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا . وينقلب إلى أهله مسرورا . وأما من أوتي كتابه وراء ظهره . فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا» (الانشقاق : ٧ــ١٢) .

الصراط :

فإذا انتهى العرض والسؤال ، ووزنت الأعمال ، وتقرر المصير ، فالمؤمنون يؤخذون إلى مصيرهم والكافرون يؤخذون إلى مصيرهم .

وهم يمرون في طريقهم على الصراط . فأما من كان مصيره إلى النار **فهو يهوي من الصراط إلى جهنم حيث يتسلمه العذاب على التو. وأما من** كان مصيره إلى الجنة فهو يرى النار رؤية من بعيد ، ليعرف فقط مصير الكفار ، وليعرف أي عذاب أنجاه الله منه ، ثم يستمر في طريقه إلى حيث يرحب به الملائكة الأبرار .

«وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضيًا . ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا» (مريم : ٧١ــ٧٢) .

الجنة وأهلها:

هنا نصل إلى نهاية الرحلة التي بدأها الخلق في الحياة.. فبالمرور على الصراط يصل المؤمنون إلى الجنة و يسقط الكافرون في الهاوية.. النار.

إنها قصة حقيقة ــ أي تمثل حقيقة من حقائق التصور الإسلامي ــ تبدأ **بالحياة، فالموت، فالقبر وما فيه، فالساعة، فالبعث، فالحشر، فالحساب،** فالصراط إلى الجنة أم إلى النار. قصة يجسدها المعلم بالتصوير والتخيل والتجسيم، يجسدها كلها ككل متكامل، ويجسد كل مرحلة وكل موقف علي حدة مع ربطه بالكل.

والآن إلى الجنة وأهلها من خلال أسلوب القرآن المصور العجيب:

١ ــ **«ولمن خاف مقام ربه جنتان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. ذواتا أفنان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان تجريان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. فيهما من كل فاكهة زوجان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهم إنس قبلهم ولا جان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. كأنهن الياقوت والمرجان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»** (الرحمن: ٤٦ــ٦٠).

٢ــ **«إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء، كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسًا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا: إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم»** (الطور: ١٧ــ٢٨).

٣ــ **«وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف**

عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلا . عينًا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكًا كبيرًا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا» (الإنسان: ١٢ـ٢٢) .

٤ـ «**ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين**» (الحجر: ٤٧ـ٤٨) .

النار وأهلها :

١ـ «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارًا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب» (النساء: ٥٦) .

٢ـ «**وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب . قالوا: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى . قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**» (غافر: ٤٩ـ٥٠) .

٣ـ «وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم: أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون . فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون: تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين» (الشعراء: ٩١ـ١٠٢) .

٤ـ «هذا وإن للطاغين لشر مآب . جنهم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه **حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج . هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار . قالوا: بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا: ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا في النار وقالوا:** ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار . إن ذلك لحق تخاصم أهل النار» (ص: ٥٥ـ٦٤) .

٥ــ «إنا اعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقًا» (الكهف: ٢٩).

٦ــ «ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لآكلون من شجر من زقوم. فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم. هذا نزلهم يوم الدين» (الواقعة: ٥١ــ٥٦).



الفصل الثامن

منهج دراسة الفقه

العلاقة بين القرآن والسنة وبين الفقه:

الإسلام عقيدة وشريعة. فالمسلمون يستمدون تصورهم الاعتقادي وتصورهم الاجتماعي من الإسلام. وإذا كان «القرآن» و«السنة» هما مصدرا التصور، فإن «الفقه» هو التصور نفسه. وإذا كان المصدر ــ القرآن والسنة ــ ثابت لا يتغير، فإن التصور ــ الفقه ــ يتغير تغيرًا نسبيًا وفقًا للزمان والمكان وحاجات الناس ومطالبهم. لكنه ــ أي التصور أو الفقه ــ يدور في تغيره حول المحور الثابت، أي القرآن والسنة. ولأن التصور ــ الفقه ــ يدور حول محور ثابت، إلٰهي، فهو يتغير و يتطور و يرقي، لكنه لا يتناقض أبدًا.

و يترتب علي ما سبق أن «مصدرا» التصور، أي القرآن والسنة، ملزمان إلزامًا مطلقًا، بينما «التصور» أي الفقه، ليس ملزمًا إلزامًا مطلقًا لكل الأجيال في كل العصور، وعليه يجب الاستمرار في الاجتهاد تلبية لحاجات الناس، وحلاً لمشكلاتهم وفق منهج الله، مع الاسترشاد والاستئناس بكل ما يبقي صالحًا فيه.

والفقه تراث. فهو صناعة إنسانية تاريخية، نامية، ومتطورة. وهو أعظم تراث في تاريخ البشرية حتي اليوم. أما الإسلام ــ قرآنًا وسنة فهو ليس من التراث. لأن الإسلام ليس صناعة إنسانية، وإنما هو وحي ثابت من الله. وهو لأنه صناعة ربانية، وليس صناعة إنسانية، فهو ليس أثرًا متحفيًا أو تاريخيًا يمكن أن نتعامل معه كوثيقة متحفية يستشهد بها في المواسم

والمناسبات كما يريد المستشرقون. فهؤلاء ومن هم علي شاكلتهم يريدون أن يصبغوا الإسلام بهذه الصبغة ليتم زحزحة الحياة رويدا رويدا بعيدًا عنه.. **وبذلك يمكن تحنيطه، وتحويله إلى تراث متحفي!**

والخلاصة أن مناهج التربية في علوم العقيدة والشريعة أمامها مستويان للدراسة والفهم:

المستوى الأول، هو مستوى الأصول الإسلامية غير التراثية، المتمثلة في القرآن والسنة. وهذا هو المستوى الرباني العالمي الثابت الشامل. ووظيفة مناهج التربية هي الاجتهاد في تنمية فهم الدارسين له، وتجديد وتنمية هذا الفهم دائمًا وأبدًا.

المستوى الثاني، هو مستوى التراث الإسلامي عامة، والفقه علي وجه الخصوص. وواجب مناهج التربية حيال هذا الجانب هو أن تتناوله بالدراسة والتقويم في ضوء القيم والمعايير الأصولية المستمدة من القرآن والسنة، وفي ضوء المعطيات المتجددة للعلوم الحديثة التي لا تتناقض مع الإسلام.

وفي عملية تقويم ومراجعة الدراسات الفقهية يجب مراعاة ما يلي:

١ــ أن هناك منها ما هو ثابت وهذا مفصل. وهو ما يتصل بالتصور الإعتقادي، كالعقائد والشعائر، أو ما يسمي في التصنيف الفقهي «بالعبادات». وهذا وحي من الله لنبيه صلي الله عليه وسلم، ومهمة الرسول لا تتجاوز دائرة التبليغ والإيضاح: «وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى» (النجم: ٣ــ٤).

٢ــ وهناك ما هو متغير وهذا مجمل. وهو التشريع المتعلق بالتصور الإجتماعي، وكل ما يتصل بالأمور والنظم الدنيوية من قضائية وسياسية واقتصادية وتربوية.. إلخ. وهذه الأمور كلها منبثقة عن التصور الإعتقادي ونابعة منه، ولازمة له.

وقد أمر الرسول صلي الله عليه وسلم ــ بالمشاورة فيها ــ وكان يرى الرأي فيرجع عنه لرأي أصحابه، كما وقع في غزوتي بدر وأحد. وكان الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ

يسألونه عما لم يعلموه، و يستفسرونه فيما خفي عليهم من معاني النصوص، و يعرضون عليه ما فهموه منها، فكان أحياناً يقرهم على فهمهم، وأحياناً يبين لهم موضع الخطأ فيما ذهبوا إليه.

٣ــ والخلاصة ــ كما يقول الأستاذ سيد سابق ــ: «أن ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان كالعقائد والعبادات، جاء مفصلاً تفصيلاً كاملاً، وموضحاً بالنصوص المحيطة به، فليس لأحد أن يزيد فيه أو ينقص منه. وما يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالمصالح المدنية والأمور السياسية والحربية، جاء مجملاً، ليتفق مع مصالح الناس في جميع العصور، ويهتدي به أولو الأمر في إقامة الحق والعدل»(١).

٤ــ إن العلم هو معرفة الحق بدليله. أي المعرفة الحاصلة عن الدليل. أما المعرفة بدون دليل، فهي تقليد. والعلم مهنة العلماء والخبراء وواجب عليهم أن يجتهدوا في ضوء الدليل من القرآن والسنة. وعلى الأمراء أن ينفذوا ما توصل إليه العلماء. والتحقيق ــ كما يقول ابن القيم ــ: «أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم. فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع إطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس كلهم لهم تبعاً، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما، كما قال عبدالله بن المبارك وغيره من السلف: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل من هم؟ قال: الملوك والعلماء:

رأيت الذنوب تميت القلوب	وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك	وأحبار سوء ورهبانها(٢)

---

(١) سيد سابق، فقه السنة، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الشرعية السابعة ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

(٢) ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، جـ١، ص ١٠.

فواجب الأمراء، أو من يقوم مقامهم أن ينظموا حياة الأمة وفقاً لشريعة الله.

٥ـ البعد عن الاختلاف والتفرقة في الدين. يقول الحق سبحانه:
«وإن هذه أمتكم أمة واحدة» (المؤمنون: ٥٢).
«واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا» (آل عمران: ١٠٣).
«ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» (الأنفال: ٤٦).
«إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء» (الأنعام: ١٥٩).
«ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم» (آل عمران: ١٠٥).

٦ـ رد المسائل الفقهية المتنازع فيها إلى الكتاب والسنة، عملاً بقوله تعالى: **«فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول»** (النساء: ٥٩).
«وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله» (الشورى: ١٠).
وذلك لأن الدين قد بينه الله في القرآن:
«ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء» (النحل: ٨٩).
«ما فرطنا في الكتاب من شيء» (الأنعام: ٣٨).
وبينته السنة القولية والعملية:
«وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» (النحل: ٤٤).
«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله» (النساء: ١٠٥).
وبذلك تم أمره، ووضحت معالمه:
«اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» (المائدة: ٣).
وما دامت المسائل الدينية قد بينت على هذا النحو، وما دام الأصل الذي يرجع إليه عند التحاكم معلوماً، فلا معنى للاختلاف، ولا مجال له:
«إن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد» (البقرة: ١٧٦).

«فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت، ويسلموا تسليما» (النساء: ٦٦).

أهداف تدريس الفقه:

لتدريس الفقه أهداف كثيرة، ولعل أهم هذه الأهداف مايلي:

١ــ **التفقه في الدين ونشر الدعوة إلى الله**، عن طريق التزود بالحقائق والمعايير والقيم والأحكام التي تفيد المتعلم في حياته وتصحيح سلوكه ومعاملاته وعباداته وأخلاقه في مواقف الحياة المختلفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، وإنما العلم بالتعلم، وإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (رواه البخارى والترمذى وأحمد بن حنبل).
ومن أعظم القربات إلى الله نشر الدعوة الإسلامية، وبث الأحكام الدينية، وبخاصة مايتصل منها بالنواحي الفقهية، حتي يكون الناس على بينة من أمرهم في عباداتهم وأقوالهم وأفعالهم ونشاطهم كله:
«وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» (التوبة: ١٢٢).

٢ــ **تحقيق مقاصد الإسلام الخمسة وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس،** وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال. وبديهي أن هذا يناسب الفطر، ويساير العقول، ويجاري التطور الراقي، ويصلح لكل زمان ومكان.
«قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون» (الأعراف: ٣٢ــ٣٣).

« ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأم الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » (الأعراف : ١٥٦ــ١٥٧) .

٣ــ **تزكية الأنفس وتطهيرها ، عن طريق المعرفة بالله ، والمعرفة بمنهج الله ،** ونظمه للحياة ، كنظام الأسرة ، ونظام المال والاقتصاد ، ونظام السياسة والحكم ، ونظام التربية .. إلخ . وهذا يتطلب ــ بالطبع ــ عدم تقديم الموضوعات الفقهية كموضوعات منفصلة لا يجمع شتاتها جامع ، بل تقدم من خلال نظمها الكلية الأوسع . وسنعود إلي هذه النقطة فيما بعد عند الكلام عن محتوى منهج الفقه .

٤ــ **القضاء على الاختلاف ، والتقليد دون تفكير ، والتعصب للمذاهب .** لقد سار الصحابة ومن بعدهم من القرون المشهود لها بالخير على أساس قول الحق سبحانه : **« وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد »** .

وقوله سبحانه : **« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما »** (النساء : ٦٦) . **ولم يقع بينهم اختلاف ، إلا في مسائل معدودة ، كان مرجعه التفاوت في فهم النصوص .**

« فلما جاء أئمة المذاهب الأربعة تبعوا سنن من قبلهم ، إلا أن بعضهم كان أقرب إلي السنة ، كالحجازيين الذين كثر فيهم حملة السنة ، ورواة الآثار ، والبعض الآخر كان أقرب إلى الرأى كالعراقيين الذين قل فيهم حفظة الحديث ، لتنائي ديارهم عن منزل الوحي » .

« **بذل هؤلاء الأئمة أقصى ما في وسعهم في تعريف النس بهذا الدين ،** وهدايتهم به ، وكانوا ينهون عن تقليدهم ، ويقولون : لا يجوز لأحد أن

يقول قولنا من غير أن يعرف دليلنا . وصرحوا أن مذهبهم هو الحديث الصحيح ، لأنهم لم يكونوا يقصدون أن يقلدوا كالمعصوم صلى الله عليه وسلم ، بل كان كل قصدهم أن يعينوا الناس على فهم أحكام الله »(٣) . إلا أن الناس من بعدهم قد فترت همتهم ، وضعفت عزائمهم ، وتحركت فيهم غريزة المحاكاة والتقليد ، فاكتفى كل جماعة منهم بمذهب معين ينظر فيه و يتعصب له . ووضعت مناهج الفقه لكل مذهب علي حدة ، وشاعت هذه المناهج في مدارس الإسلام وجامعاته العريقة ، وتعلمت الأجيال عن طريق هذه المناهج التي تقوم على اختلاف المذاهب ، وتركيز التعصب في عقول الأجيال للمذاهب المختلفة . وقد بلغ الغلو في التعصب للمذاهب حدًا كبيرًا . وربما كان خير مثال لهذا ماقاله الكرخي : «كل آية أو حديث يخالف ماعليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ » !

وعليه ، فإن من أهم أهداف تدريس الفقه . هو القضاء على الاختلافات المذهبية ومايتبعها من تعصب في غير فائدة ولا منفعة للناس .

٥ ــ **فتح باب الاجتهاد وإعداد القادرين على القيام به ، المالكين لأدواته** وعدته . فبالتقليد والتعصب للمذاهب ، «فقدت الأمة الهداية بالكتاب والسنة ، وحدث القول بانسداد باب الاجتهاد . وصارت الشريعة هي **أقوال الفقهاء ، وأقوال الفقهاء هي الشريعة ، واعتبر كل من يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعًا لا يوثق بأقواله ، ولا يعتد بفتاويه » !(٤) ..**

«وبالعكوف على التقليد ، وفقدان الهداية بالكتاب والسنة ، والقول بانسداد باب الاجتهاد ، وقعت الأمة في شر وبلاء ودخلت في جحر الضب الذي حذرها رسول الله صلي الله عليه وسلم منه »(٥) .

وكان من أثر ذلك اختلاف الأمة شيعًا وأحزابًا ، وانتشار البدع ، واختفاء معالم السنن ، وخمود الحركة العقلية ، ووقف النشاط الفكري ،

---

(٣) سيد سابق ، مرجع سابق ، ص ١٢ــ١٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٣ .
(٥) المرجع السابق ، ص ١٤ .

وضياع الاستقلال العلمي، الأمر الذي أدى إلى ضياع شخصية الأمة، وأفقدها الحياة المنتجة، وقعد بها عن السير والنهوض، ووجد الدخلاء بذلك ثغرات ينفذون منها إلى صميم حياة المسلمين! وجاء الاستعمار بكل ألوانه ليمحو الشخصية الإسلامية، والمجتمع المسلم، فاستبد وأفسد وصاغ شخصيات اتباعه على هواه، وختم على عقولهم وقلوبهم بخاتمة، فصاحوا: إن شريعة الإسلام لا تجاري التطور، ولا تتمشي مع الزمن!

ثم كانت النتيجة الحتمية، وهي هيمنة التشريع الأجنبي الدخيل على الحياة الإسلامية، وهيمنة الثقافة الغربية على البيوت والشوارع والمنتديات والمدارس والمعاهد وكاد المسلمون ينسون دينهم، ويقطعون الصلة بين ماضيهم وحاضرهم، إلا أن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، فهب دعاة الإصلاح يحذرون المسلمون من عاقبة الطريق الذي يسيرون فيه، ويبصرونهم مما عليه الغربيون من فساد الأخلاق الذي لابد وأن ينتهي بهم إلى بسوء العاقبة، وأنهم ما لم يصلحوا فطرهم بالإيمان الصحيح، ويعدلوا طباعهم وفقاً لفطرة الله فيهم، فسوف تنقلب علومهم إلى أدوات تخريب وتدمير، وتتحول مدينتهم إلى نار تلتهمهم وتقضي عليهم القضاء الأخير:

«ألم ترى كيف فعل ربك بعاد؟ إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك صوت عذاب، إن ربك لبالمرصاد» (الفجر: ٦ـ١٤). لقد صاح المصلحون بالعلماء الجامدين الذين وقفوا حياتهم على استظهار المتون، ومعرفة الحواشي ومافيها من ايرادات واعتراضات وألغاز، وما كتب عليها من تقريرات ـ صاحوا بهم: «دونكم النبع الصافي، والهدي الكريم: نبع الكتاب وهدي السنة، خذوا منها دينكم، وبشروا بها غيركم، عند ذلك تهتدي بكم الدنيا الحائرة، وتسعد بكم هذه الإنسانية المعذبة: **«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا»** (الأحزاب: ٢١).

يقول الأستاذ سيد سابق: «وكان من فضل الله أن استجاب لهذه الدعوة رجال وتلقتها قلوب مخلصة، واعتنقها شباب وهبها أعز ما يملك من الأموال والأنفس».

«فهل أذن الله لنوره أن يشرق علي الأرض من جديد؟ وهل أراد للإنسان أن يحيا حياة طيبة، يسودها الإيمان والحب، والإحسان والعدل؟ هذا ما تشهد به الآيات:

«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا» (الفتح: ٢٨).. **«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟»** (فصلت: ٥٣).

٦ــ لا شك أن معظم الأهداف السابقة يمكن تحقيقها من خلال تدريب الطلاب على التفكر والتدبر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتدريبهم على استنتاج الأحكام والمعايير والقيم من القرآن والسنة، وعلى إدراك أهداف التشريع الإسلامي من أجل مصلحة الفرد والجماعة، ومقارنة ذلك بالأحكام والتشريعات الوضعية التي تقوم على الولاء لغير الله، والاحتكام لغير شريعة الله.

محتوى منهج الفقه:

يشتمل محتوى منهج الفقه على جميع المناشط التعبدية، ابتداء من الشعائر من طهارة، وصلاة، وزكاة، وصيام، وحج، إلى جميع ألوان الشرائع والتنظيمات الحياتية الفردية والاجتماعية، الداخلية والخارجية. فالفقه يشمل الأحكام والتشريعات المتصلة بكل جوانب الحياة. والفقه الإسلامي هو أعظم وأضخم تراث صنعه الإنسان في التاريخ البشري.

لذلك فإن تخطيط مناهج الفقه في مراحل التعليم المختلفة لابد وأن يخضع لعملية اختيار وانتقاء وفقاً للمعايير التالية:

أولاً:

أن يتم دراسة موضوعات الفقه بالتكامل والترابط مع أدلتها مع القرآن

والسنة ، مع تدريب الطلاب علي التدبر والفهم للأدلة ، واستنباط الأحكام والتشريعات منها .

ثانيًا :

أن تتم دراسة موضوعات الفقه داخل نظم مترابطة ، وأطر أوسع ، وليس كموضوعات منفصلة لا يجمع شتاتها جامع . وذلك لدراسة الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج تحت عنوان : « شعائر العبادة » وأن يتم دراسة النكاح ، والمواريث ، والطلاق ، والنفقة والعدة .. إلخ تحت عنوان : نظام الأسرة في الإسلام . وأن يتم دراسة البيوع ، والرهن ، والتجارة ، والقرض ، والمزارعة ، والربا ، والزكاة ، والإجارة ، والحوالة ، والشفقة .. إلخ تحت عنوان : نظام المال والاقتصاد في الإسلام ، وأن تتم دراسة الشورى والقضاء ، والدعاوى والبينات ، والإقرار ، والشهادة ، والوقف ، والولاية على الصغير والسفيه .. إلخ تحت عنوان : نظام الحكم في الإسلام .. الخ .

ثالثًا :

تجنب القضايا الفقهية التي تعالج قضايا لا تتصل بحياتنا الحاضرة ، والتركيز على القضايا المتصلة بالحياة المعاصرة ، حتي لا يشعر الطلاب بعقم الدراسات الفقهية ، لعدم معالجتها لقضاياهم ومشكلاتهم التي يعانون منها . كما يجب عرض القضايا الفقهية بلغة مفهومه ، و بالأساليب المناسبة لكل مرحلة (٦) .

رابعًا :

عدم البدء بالتعريفات وتركها حتي يمكن استنباطها في نهاية كل قضية ، من خلال دراسة جزئيات الموضوع المدروس ، وعدم استخدام المصطلحات والمسميات القديمة التي لم تعد تدل على المسمى في زماننا . وذلك لأن التعريف مفهوم تجريدي يدل على خصائص المعرف ، ويمنع

---

(٦) انظر : إبراهيم محمد الشافعي ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .

خصائص غيره من الدخول فيه . وهذه التعريفات يصعب على طلاب المراحل الأولى فهمها في بداية الموضوع قبل فهم الموضوع المعرف .

وكذلك الحال بالنسبة لحكمة التشريع ، وذلك لأن حكمة التشريع تعني بالسر الكامن وراء شرعية الموضوع ، وهو أمر أعمق من مجرد دراسة الموضوع ذاته . وهذا يقتضي أن يدرس الطلاب الموضوع أولاً بجوانبه المختلفة ، والحالات التي تندرج تحته ، ثم بعد ذلك يستنبطون حكمة مشروعيته . ولا شك أن الأمر مختلف بالنسبة لكل من الصغار والكبار .

تدريس الفقه

التدريس علم وفن . هو علم ، لذلك فإن المعلمين يعدون لهذه المهنة إعدادًا تخصصيًا وثقافيًا . وهو فن ، لذلك فالمعلمون يعدون لأداء عملهم إعدادًا مهنيًا وفنيًا .

والمدرس الراشد هو الذي يحدد أهداف منهجه ، وأهداف كل درس من دروسه بطريقة دقيقة واضحة ، ويستخدم كل ماتيسر له من الطرائق والأساليب والوسائل في تحقيق أهداف منهجه ودروسه . والمدرس الراشد هو الذي لا يعتبر نفسه الخازن الوحيد للمعرفة ، والمؤتمن الوحيد علي أسرارها . وإنما يعتبر العلم والمعرفة فضل ومنة من الله ، يؤتيها من يشاء من عباده ، ممن أخذوا بأسبابها ، وجدوا واجتهدوا في سبيل ذلك : «يؤت الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا» (البقرة : ٢٦٩) . «علمكم مالم تكونوا تعلمون» (البقرة : ٢٣٩) .

لذلك فإن مدرس الفقه الرشيد هو الذي يحدد أهداف درسه ، كما يحدد أنواع الحقائق والمعايير والقيم والخبرات والوسائل التي سيستعين بها في تحقيق أهداف الدرس مع تلاميذه وهو يعرض على التلاميذ أهداف كل درس أثناء التمهيد له ، ثم يناقشهم ويحاورهم بالتي هي أحسن أثناء الدرس ، ويستعين بالوسائل ، ويضرب الأمثلة من واقع الحياة ، لتيسير عملية الفهم ، ويستعين في عملية الوقوف على مدى تحقق الأهداف بعملية التقويم المستمر .

ويستشهد بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية للربط بين الموضوع الفقهي وبين أدلته من القرآن والسنة، ويشترك الطلاب في عملية التفكير والنقاش، واستنباط الأحكام، والتعاريف والمفاهيم والقيم والمعايير.

مراحل عملية التدريس:

وتمر عملية التدريس بعدة مراحل:

أولاً — مرحلة الإعداد للدرس.

ثانياً — مرحلة تحضير الدرس في دفتر التحضير.

ثالثاً — مرحلة تنفيذ الدرس داخل حجرة الدراسة.

وسنتكلم بإيجاز عن كل مرحلة من هذه المراحل فيما يلي:

إعداد الدرس:

لنفترض أن المدرس عليه أن يعالج موضوعاً يندرج تحت عنوان «النظام الاقتصادي في الإسلام»، وهو موضوع «الملكية»، فإن عليه — بادئ ذي بدء — أن يقرأ الكتاب المدرسي، ويفهم حدود الموضوع التي يراد مناقشته مع الطلاب. والمدرس الواعي هو الذي يوسع دائرة معرفته عن الموضوع بالقراءة عنه في المراجع الأصلية، فقد يعود إلي ابن قدامة وكتابه «المغني» وهو أعظم كتاب للفقه من الكتب القديمة. وقد يرجع إلي الأستاذ سيد سابق وكتابه «فقه السنة» وهو أعظم كتاب ألف في الفقه في هذا القرن.

والقصد من كل هذا أن يستمر المعلم في القراءة وتجديد معارفه ومهاراته في ميدان تخصصه، وفي مهنته، وإلا أصيب «بالقدم المعنوي والمادي» الذي يفقده أهليته في التدريس وقدرته علي العطاء.

تحضير الدرس في كراسة التحضير:

هذه الصيغة مقترحة لتحضير درس «الملكية» في كراسة التحضير. وهي على النحو التالي:

التاريخ: الفرقة: الثانية الثانوية
المـادة: الموضوع: الملكية

أولاً ـ أهداف الدرس:

١ ـ أن يفهم الطلاب التصور الإسلامي للملكية وشروطها، وأدلتها من القرآن والسنة.
٢ ـ أن يفهموا معني الملكية الفردية، وشروطها وعلاقتها بالملكية الجماعية.
٣ ـ أن يدرك الطلاب معنى الملكية الجماعية، وماتجب فيها، ومهمتها في المجتمع، وأدلتها من القرآن والسنة.
٤ ـ أن يدرك الطلاب مصادر الملكية في الإسلام.
٥ ـ أن يفهموا العلاقة الوطيدة بين الملكية وبين العمل والتكسب.

ثانياً ـ الأفكار الرئيسية:

يتم التركيز في مناقشة هذا الموضوع مع الطلاب على الأفكار الرئيسية التالية:

١ ـ العلاقة بين الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وبين حرية التملك.
٢ ـ دليل الملكية من القرآن والسنة.
٣ ـ شروط الملكية، مع التركيز على قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار».
٤ ـ الملكية الفردية، مفهومها، أدلتها من القرآن والسنة، ضوابطها مع التركيز على: الزكاة، والربا، والاحتكار.. وأثر كل منها على الفرد وعلى اقتصاد الأمة.
٥ ـ الملكية الجماعية، مفهومها، مصادرها، مجالات إنفاقها.
٦ ـ والعلاقة بين الملكية الفردية، والملكية الجماعية.

ثالثًا ــ خطوات السير في درس الفقه:

١ ــ **التمهيد للدرس:** وقد يكون ذلك عن طريق استعراض أهم الأسئلة التي يجب الإجابة عنها خلال الدرس والمناقشة.

٢ ــ **قراءة الطلاب للدرس قراءة صامتة.** يعقبها مناقشة الطلاب مناقشة تؤدي إلى:

أ ــ استنباط الفكرة العامة للدرس.

ب ــ استخلاص الأفكار الرئيسية كتلك المكتوبة أعلاه تحت ثانيًا.

جـ ــ إيضاح المفاهيم، والمصطلحات الفقهية.

٣ ــ قراءة الطلاب للدرس قراءة جهرية فقرة بعد فقرة، ومناقشة كل فقرة وما تحمله من الأفكار الرئيسية والجزئية، مع ربط كل فكرة بسابقتها واستخلاص الأحكام والتعريفات والتشريعات.. الخ. وهكذا حتى ينتهي الدرس كله.

٤ ــ استنباط الأحكام والتشريعات كلها وتسجيلها على السبورة بالترتيب.

رابعًا ــ التقويم:

أ ــ الإجابة عن الأسئلة التالية في الفصل:

(١) ما العلاقة بين الفطرة السليمة وبين حرية التملك؟

(٢) ما دليل حرية التملك من القرآن والسنة؟

(٣) مامعنى الملكية الفردية، وماعلاقة الملكية الفردية بحرية التصرف؟ وما معنى الحجر على السفيه؟ وما أسباب ذلك؟

(٤) ما معنى الملكية الجماعية؟ وما مصادرها وما مصارف إنفاقها؟

ب ــ الإجابة عن الأسئلة التالية في دفتر الواجب:

(١) وضح مع التمثيل قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «لا ضرر ولا ضرار»؟

(٢) ناقش ضوابط الملكية الفردية مع التركيز على الزكاة، والربا والاحتكار، مع بيان أثرها على الفرد والمجتمع؟

(٣) وضح العلاقة بين الملكية الفردية والملكية الجماعية؟

جـ ــ في اللقاء الذي يعقب هذا اللقاء يجمع المدرس دفتر الواجب و يقوم بتصحيح إجابات الطلاب على الأسئلة الثلاثة السابقة وقد يعود المدرس إلى بعض نقاط هذا الدرس إذا وجد أن هناك خطأ شائعًا بين التلاميذ فيما يتصل بهذه النقاط .

خطوات السير في درس الفقه:

خطوات السير في درس الفقه في حجرة الدراسة ، هي التطبيق العملي لنفس الخطوات التي كتبت في كراسة التحضير. لذلك فأنا أتوقع أن يسير المدرس على النحو التالي :

أولاً:

يمهد المدرس للدرس كأن يقول : بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد : درسنا في الفقه اليوم عن : «الملكية في التصور الإسلامي» . والملكية هي أساس النظام الاقتصادي في الإسلام ، ونتوقع إن شاء الله . أن نستطيع الإجابة عن الأسئلة التالية من خلال معالجتنا لهذا الدرس :

ــ ما العلاقة بين الفطرة السليمة و بين حرية التملك ؟

ــ ما دليل الملكية من القرآن والسنة ؟

ــ وما علاقة الملكية بالنظام الاقتصادي في الإسلام ؟

ــ وما الملكية الفردية ، وما ضوابطها ؟

ــ وما الملكية الجماعية ، وما مصادرها ومصارفها ؟

ــ وما العلاقة بين الملكية و بين الزكاة ، و بينها و بين الربا والاحتكار ؟

هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عنها خلال مناقشتنا اليوم لدرس الملكية إن شاء الله .

ثانياً :

أرجو أن تقرأوا الدرس قراءة صامتة ، وأن تحاولوا الإجابة عن التساؤلات التي طرحت عليكم الآن .

ثم يترك للطلاب حوالي خمسة دقائق لقراءة الدرس قراءة صامتة .. وبعدها يوجه إليهم التساؤلات التالية :

١ــ ما الفكرة العامة في هذا الدرس ؟
ويظل المدرس يتلقى إجابات الطلاب حتي يصل إلى الإجابة الصحيحة وهي : الملكية ، أو الملكية الفردية والجماعية ، أو حرية التملك في الإسلام .. وكلها إجابات صحيحة . يسجل واحدة منها في منتصف السبورة .

٢ــ ثم يسأل : ما الأفكار الرئيسية في هذا الموضوع ؟ ومن خلال متابعة الإجابات وتعديلها إذا لزم الأمر، يصل الطلاب تحت إشراف المدرس إلى الأفكار الرئيسية للدرس، ويقوم المدرس بتسجيلها على جانب السبورة الأيمن بطريقة مرتبة ، ويستمر الوضع على هذا الحال حتي تستخرج كل الأفكار الرئيسية ، ويجوز أن يستخدم المدرس سبورة إضافية ، أو عارضاً رأسياً ، أو ما يتراءى له من وسائل معينة .

٣ــ وقد يسأل المدرس هنا عن المفردات الصعبة التي وجدها الطلاب ، ثم يكتب المفردات على السبورة ، ويكتب معناها أمامها .

ثالثاً :

تأتي بعد ذلك مرحلة تناول الموضوع كله فقرة فقرة ، وفكرة فكرة عن طريق القراءة الجهرية حيث يطلب المدرس من أحد الطلاب قراءة الفقرة أو الفقرات التي تحمل الفكرة الرئيسية الأولى قراءة جهرية ، مع تصويب النطق ، خاصة ما يتصل منه بقراءة الأدلة من القرآن والسنة ، ثم تدور المناقشة حول جزئيات الفقرة ، وعلاقاتها بالأدلة ، وصلتها بالحياة والنظام الاقتصادي والاجتماعي كله .

وهنا لابد من التأكيد على المفاهيم الرئيسية التي تحكم السلوك الفردي والجماعي :

ـ فمثلاً : . التأكد على إباحة الإسلام لحرية التملك لأنها تتفق مع الفطرة الإنسانية السليمة ، لكن بشرط ، وهذا الشرط يتمثل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لا ضرر ولا ضرار» .

ـ والتأكيد على الملكية الفردية التي لا تقوم على الربا والاحتكار ، مع مراعاة إخراج الزكاة في الأموال ، والتأكيد على قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه**» (متفق عليه) .

ـ والاهتمام في فهم الحكمة من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**الناس شركاء في ثلاث ، في الماء والكلأ والنار**» .

ـ والتأكيد على إدراك العلاقة الوطيدة بين العمل والكسب الحلال ، وبين التملك ؛ وبين الإرث والوصية ، وبين التملك .. وفي هذا الشأن لابد من فهم وإدراك معني قول الحق سبحانه «**للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن**» .. «**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون**» .

ـ لابد من التأكد على أثر زكاة الأموال على حياة الفرد والجماعة ، وأثر الربا والإحتكار على حياة الفرد والجماعة .

ـ لابد من إبراز أثر الملكية الطليقة بغير ضوابط ، وعلاقتها بالطبقة الحاكمة التي تشرع وتحكم لصالح نفسها ، وما تبع ذلك من ظلم وفساد في الأرض .

ـ لابد من التركيز على علاقة الملكية الفردية بالملكية الجماعية ، ومتى تؤول ملكية الفرد للجماعة ، ومعنى السفه في التصرف في الأموال ، وما يتبع ذلك من ضرر بالجماعة .

وهكذا إلى أن يتم تناول كل أفكار الدرس بالقراءة والمناقشة ، مع التركيز على المفاهيم والمصطلحات الرئيسية .. فإذا ما إنتهى الدرس بهذا الشكل نكون قد وصلنا إلى المرحلة التالية :

رابعـًا :

استخراج الأحكام والتشريعات من الدرس وتسجيلها على السبورة على الجانب الأيسر. ويجوز أن تأتي هذه الخطوة تباعـًا ، وذلك بأن يتم استنباط كل حكم أو قانون أو تشريع عند مناقشة فقرته أو فكرته حسب ورودها في الدرس ، وتسجيل الأحكام والتشريعات أولاً بأول حتى ينتهي الدرس و بذلك تكون الاستنتاجات قد تمت أيضـًا .

ولابد من التأكيد هنا على أن الطلاب هم الذين يقومون بالتفكير والاستنتاج والاستنباط للأحكام والتشريعات . ودور المعلم هو دور المرشد ، والموزع للأدوار والقائد لعملية التعليم ، وعندما يعجز الطلاب عن استخراج الحكم أو التشريع فإنه يعينهم عن طريق إمدادهم بمزيد من المعلومات تعينهم على الاستنباط . وليتذكر المدرس دائمـًا أنه ليس خطيبـًا على منبر.

خامسًا :

التقويم . بما أن المدرس يتعامل مع الطلاب عن طريق الحوار والمناقشة وبما أن الطلاب هم الذين يسألون ، و يفكرون ، ويجيبون ، إذن ، فعملية التقويم البنائي عملية مستمرة طوال الدرس . وعملية التشخيص والعلاج عملية مستمرة طوال الدرس .

فإذا ما وصل المدرس إلى نهاية الدرس ، فإن كل ما يحتاجه هو التأكد من أن أهداف الدرس قد تحققت عن طريق طرح بعض الأسئلة المتصلة بالأهداف للإجابة عنها في الحال ، لمعرفة مدى التمكن من الفهم والإدراك ، وعرض بعضها الآخر للحل في كراسة الواجب المنزلي على نحو ما سبق ذكره في عملية التقويم كما وردت في كراسة التحضير.

الفصل التاسع

منهج دراسة السيّرة النبوية
والتاريخ الإسلامي

منهج دراسة التاريخ ـ المشكلة والحل

تعاني التربية من خلال دراسة التاريخ من مشكلة حقيقية. وتتمثل المشكلة في أننا ندرس في مدارسنا وفي جامعاتنا على وجه الخصوص تاريخاً إسلامياً مشوهاً، وتاريخاً غربياً مضخماً، لا عن مجرد خطأ غير مقصود، ولكن عن نية مبيتة من الاستعمار الغربي الذي يهمه ألا نجد في تاريخنا ما نعتز به، وأن نرى أوربا على العكس هي صاحبة الدور الأول في التاريخ الإنساني! فإذا يئسنا من ماضينا وحاضرنا، وامتلأت نفوسنا ـ مع ذلك ـ إعجاباً بأوربا وبالرجل الأبيض، سهل قيادنا على الاستعمار، وذلت رقابنا للمستعمرين.. تحت هذا التأثير كتب التاريخ الذي ندرسه في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا!(١).

إننا نتبع في دراستنا للتاريخ الإسلامي منهج المستشرقين وطريقتهم في تقسيم التاريخ الإسلامي إلى عصور ودول وممالك منسوبة إلى الحكام السياسيين من أمويين وعباسيين وعثمانيين ومماليك.. الخ حيث تدور حركة التاريخ الإسلامي الذي كتبوه حول هؤلاء الحكام وملكهم وسيرتهم الذاتية وأحلامهم ومؤمراتهم والانقلابات التي وقعت عليهم.

لقد أبعد التاريخ الحضاري والثقافي للأمة، وأبقي على التاريخ السياسي. وفي هذا الأخير تم التركيز على جوانب الضعف الإنساني، وجوانب الهبوط والانحطاط، واستبعدت كل الجوانب المشرقة.

---

(١) انظر سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج: ط٧، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، القاهرة، دار الشروق، ص٣٧ ـ ٦١.

لقد كتب هذا التاريخ بحيث لا يتذكر الناشئة من معاوية إلا خداعه لعلي بن أبي طالب، ومن عمرو بن العاص إلا دهائه ومكره، ومن هارون الرشيد إلا الإفتراءات المنسوجة حول لياليه الحمراء المملوءة بالنساء والترف والتحلل، ومن المماليك إلا أنهم جماعة من المغامرين الذين كان كل همهم الاستيلاء على السلطة وتسخير طاقات البلاد لترفهم ومجونهم، ومن العثمانيين إلا ضعفهم وظلمهم .. إلخ.

أهذا هو التاريخ الإسلامي؟ بالقطع لا .. إن هناك أسباباً كثيرة تدعونا للشك في قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية.

«إننا ننظر الآن إلى أنفسنا وإلى سوانا بعدسة صنعتها أيد أجنبية عنا، أجنبية عن عقيدتنا وتاريخنا، أجنبية عن مشاعرنا وإدراكنا، أجنبية عن فهمنا للأمور، وإحساسنا بالحياة وتقديرنا للأشياء.

«ثم هي بعد ذلك كله ــ مغرضة ــ في الغالب ــ تبغي لنا الشر لا الخير. لأن مطامعها ومصالحها الخاصة وأهدافها القومية كلها تدفع بها دفعاً لأن تبغي لنا الشر؛ لأن خيرنا لا يتفق مع أطماعها، ولأن مصالحنا تعطل مصالحها»!(٢).

أسباب الشك فى منهج الغربيين لدراسة التاريخ الإسلامى:

١ ــ التاريخ ليس هو الحوادث، وإنما هو تفسير الحوادث، وإدراك الروابط والعلاقات الظاهرة والباطنة التي تجمع شتات هذه الحوادث، ويجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، ممتدة مع الزمان والمكان امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان.

ولكي يفهم الإنسان الحادثة الإسلامية ويفسرها ويربطها بما قبلها وما بعدها لابد أن يكون لديه إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية، ولطبيعة التصور الإسلامي للألوهية والكون والإنسان والحياة، وبطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة، وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل تلك

(٢) سيد قطب، المرجع السابق، ص ٥٦ــ٥٧.

العقيدة. إن هذه الخاصية لا يمكن أن توجد عند باحث غير عربي بوجه عام، ولا عند غير مسلم على وجه الخصوص.

إن المؤرخ الأوربي لا يستطيع إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس خلال الحياة التاريخية الإسلامية، وعلاقة هذه البواعث بالحوادث والتطورات والانقلابات والثورات.

إن الفكرة الإسلامية في تفسيرها للعلاقات الكونية، والعلاقات الإنسانية، والعلاقات الاجتماعية، وفي تصويرها لنظام الحكم والنظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي عامة، تعتبر المقوم الأساسي للحياة الإسلامية، ولتاريخ هذه الحياة.

إن المؤرخ الغربي حينما يتناول الحادثة ويفسرها دون إدراك لمقومات الحياة البشرية جميعاً: معنوية ومادية، لا يستطيع فهمها وتفسيرها على الوجه الأكمل. إنه لا يستطيع إدراك الحياة الإسلامية خاصة بعد أن غلبت عليه النظريات المادية، التي أبعدت من فكره ووجدانه عنصر «الروحية الغيبية» الذي يعتبر بعداً جوهرياً في تفسير الحادثة التي تقع في الحياة الإسلامية.

«هذا النقص يعد عيباً في منهج العمل التاريخي ذاته، وليس مجرد خطأ جزئياً في تفسير حادثة أو تصوير حالة، ومن ثم فالمنهج الأوربي في البحث يسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة سواء كان ذلك ناشئاً عن الطبيعة الغربية ذاتها وملابسات حياتها البيئية والتاريخية، أو ناشئاً عن تعمد المؤرخ الأوربي تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين في الدراسة. هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية»(٣).

٢ـ إن كل مرئي يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية. وهكذا يكون الأمر عند النظر إلى الوقائع والأحداث. والأوربي بطبعه ميال إلى اعتبار أوروبا هي محور العالم ـ وقد انتقل هذا الشعور إلى الأمريكي خاصة في هذا العصر ـ فهي نقطة الرصد في نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة

(٣) سيد قطب: المرجع السابق، ص ٤١.

والناس والأحداث، وتتخذ الأمور في نظره أشكالاً معينة ليست هي أصح الأشكال في معظم الأحوال.

إضافة إلى ما سبق، فإن هناك أسباباً أخرى عميقة في الشعور، طويلة الأجل، متجددة البواعث تؤثر في نظر الغربي عموماً للإسلام، وللحياة الإسلامية، وللعالم الإسلامي من اختلاف في العقيدة، إلى كراهية لهذا الدين وأهله، إلى ذكريات تاريخية مريرة في الأندلس وفي بيت المقدس وفي سواهما، إلى صراع سياسي واقتصادي واستعماري، إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية.. إلى آخر تلك البواعث المتجددة دائماً (٤).

إن الباحثين في التاريخ يختلفون في إدراكهم وتقديرهم للعوامل الداخلية التي تحكم الحروب، والمعاهدات السياسية، والعلاقات الدولية، بسبب خضوع كل منهم للفلسفة التي تسيطر على تفكيره وتقديره للأمور، وطريقة إدراكه للحياة في عمومها.

وكذلك الباحث المسلم، فهو يستطيع أن يزن دوافع الحياة الإسلامية والحوادث الإسلامية في كل فترة تاريخية، كما يستطيع أن يزن المعايير والقيم الإنسانية الكامنة وراء أحداث النصر والهزيمة، وذلك كله على ضوء إدراكه للعقيدة الإسلامية، وطريقة استجابة المسلمين لها في كل فترة، وعلى ضوء تصوره الكلي للكون والإنسان والحياة في الإسلام.

إن كل ما سبق يجعلنا نعيد النظر في قيمة الدراسات الغربية في الحقل الإسلامي وبخاصة في التاريخ. وأن نتحرز في قبول هذه الدراسات وفي قبول المنهج الذي قامت عليه، أو في محاولة اتباعه في الدراسات الإسلامية.

وعلى هذا يجب أن يعاد كتابة التاريخ الإسلامي على أسس جديدة، وبمنهج آخر.. منهج يضع التصور الإسلامي للألوهية والكون والحياة والإنسان في الحسبان، ويدرك العقيدة الإسلامية وطريقة استجابة المسلمين لها عند تفسير الحوادث، ويزن دوافع الحياة الإسلامية والقيم الإنسانية الكامنة وراء

(٤) المرجع السابق، ص ٤١.

الحادثة أو المعركة أو النصر أو الهزيمة، وبحسب العوامل الظاهرة والباطنة، والروحية والمادية في سير الزمان وتشكيل الحياة والأحداث في كل زمان ومكان.

مراحل كتابة التاريخ الإسلامي:

وبناء على هذا المنهج، فإن كتابة التاريخ الإسلامي يمكن أن تمتد عبر أربع مراحل هي على النحو التالي:

المرحلة الأولى ــ مقدمات التاريخ الإسلامي:

وتهتم هذه المرحلة بالعوامل التي كانت واقعة عند مولد الإسلام. «لابد إذن عند كتابة التاريخ الإسلامي من الإلمام بالصورة التي انتهت إليها تجارب الإنسانية قبل مولد الإسلام والحالة التي صارت إليها المجتمعات البشرية في الأرض، وبخاصة من ناحية العقائد ومايتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات، ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية ومايتعلق بها من نظم الحكم، وسياسة المال، وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار. كي تتبين على ضوئها حقيقة دور الإسلام وطبيعته وطبيعة رسوله. ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولاً أو رفضاً، وتصور أسباب الصراع، وعوامل النصر والهزيمة كاملة، وعناصر التفاعل والتدافع والتلاقي والانعكاس على مر الأيام». «وإذا كان الإلمام بوضع العالم إذ ذاك ضرورياً فإن الإلمام بوضع الجزيرة العربية وتصور الحياة فيها من كافة نواحيها أكثر ضرورة بوصفها مهد الإسلام الأول من جهة، ومركز التجمع والانسياح من جهة أخرى»(٥).

المرحلة الثانية ــ الإسلام على عهد الرسول:

إذن في المرحلة الأولى برزت المقومات الأساسية لطبيعة الدعوة، وطبيعة الرسول، وطبيعة البيئة التي استقبلت الدعوة واستقبلت الرسول، وطبيعة

(٥) سيد قطب: المرجع السابق، ص ٤٨ــ٤٩.

المجتمع الإنساني الذي كان يعاصر مولد الدعوة، وطبيعة العقائد والأفكار التي كانت تسوده في ذاك الوقت.

بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية التي تصور خطوات الدعوة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذه الخطوات التي من شأنها أن تعرفنا «كيف اختار الرسول (ص) رجاله ومن أي طينة كان هؤلاء الرجال؟ وكيف صاغ الرسول رجاله، وكيف أعدهم للمهمة العظمى؟ وكيف بنى الرسول نظامه، وعلى أي الأسس قام هذا النظام الجديد؟ وماذا كان في طبيعتها وفي ظروفها وفي رجالها وبيوتها وعشائرها، وفي علاقاتها الاجتماعية وملابساتها الاقتصادية والجغرافية والحيوية.. من استعدادات لتلبية هذا الحدث أو معارضته، إلى آخر هذه المباحث التي تصور المرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام أو من تاريخ الإسلام، والتي تصح تسميتها باسم «الإسلام على عهد الرسول»(٦).

المرحلة الثالثة ــ مرحلة المد الإسلامي:

هذه هي المرحلة التي انساح فيها الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وفاض ذلك الفيض الانفجاري العجيب الذي لم يعرف له العالم نظيرًا في قوته وسرعته. لم يكن فيضًا عسكريًا فقط، بل كان فيضًا روحيًا وفكريًا واجتماعيًا أيضًا. لقد كان فيضًا إنسانيًا شاملاً، أحدث تحولاً كاملاً في خط سير التاريخ!

في هذه المرحلة «يمكن تتبع أعمال الهدم والبناء التي قام بها الإسلام في تلك الرقعة الفسيحة التي امتد إليها، وتفاعله مع الأفكار والعقائد التي كانت سائدة فيها، ومع النظم الاجتماعية التي كانت تظللها، ومع الظروف الاقتصادية والمخلفات التاريخية والملابسات الإنسانية، في أخصب بقاع الأرض وأكثرها حضارة في ذلك الزمان. «والمد الإسلامي لم يقف عند الحدود التي وصلت إليها فتوحاته العسكرية، فلقد امتدت الموجة الفكرية والحضارية التي كونها إلى ما وراء حدود العالم الإسلامي قطعًا.

---

(٦) المرجع السابق، ص ٥١ــ٥٢.

ولابد من دراسة آثار هذا المد فيا وراء هذه الحدود. دراستها طردًا وعكسًا في حياة العالم الإسلامي ذاته، وفي حياة العالم كله. فلقد أخذ هذا العالم من الإسلام وأعطى وقد تأثر به وأثر فيه. ودراسة هذه التفاعلات في ضوء المنهج الذي صورنا خصائصه كفيلة بأن تنشىء صورة للعالم الإنساني وخطواته الحية مختلفة قليلاً أو كثيرًا عن الصورة التي اعتاد الغربيون أن يرسموها، والتي اعتدنا نحن أن نراها»(٧).

المرحلة الرابعة ـ انحسار المد الإسلامي:

في ضوء المنهج الذى رسمناه، وعلى ضوء دراسة المراحل التاريخية السابقة، تجيء مرحلة «انحسار المد الإسلامي». وفي هذه المرحلة «يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار وعوامله الخارجية والداخلية جميعًا. كم من هذه العوامل من طبيعة العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامي؟ ثم هل كان هذا الانحسار شاملاً أم جزئيًا؟ وسطحيًا أم عميقًا؟ وما أثر هذا الانحسار في خط سير التاريخ، وفي تكييفه أحوال البشر، وفي قواعد التفكير والسلوك وفي العلاقات الدولية والإنسانية؟ وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التى استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها في الإسلام؟ وماذا كسبت البشرية وماذا خسرت من وراء انحسار المد الإسلامي»(٨). وظهور هذا المد الأوروبي (والغربي عمومًا) الذي ما تزال تخضع له كثير من نظمنا؟

ومع ذلك فإنه ينبغي أن يقال: إن دراسة من هذا الطراز لن يكون من برنامجها تناول الحوادث التاريخية بالتسلسل الحرفي والتفصيل الوافي، لأن وظيفتها الأساسية أشبه شيء بالخط البياني يشير ولا يحصي، و يرشد ولا يستقصي.. إن العبرة هنا هي إيجاد عقلية تاريخية معينة، وصورة تاريخية خاصة، تفيد الذين يتناولون الحوادث التاريخية وشخصياتها بالتحليل والتفسير. وإدراك العلاقات(٩).

---

(٧) المرجع السابق، ص ٥٣ــ٥٤.
(٨) المرجع السابق، ص ٥٤.
(٩) المرجع السابق، ص ٦٠.

تنفيذ هذا المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي:

إن المنهج الذي سبق رسم خطوطه العريضة الشهيد سيد قطب قلما نجد باحثًا يطبقه في كتابة التاريخ الإسلامي الذي ندرسه في مدارسنا وجامعاتنا اليوم!

ومع ذلك فقد خاض سماحة الشيخ أبوالحسن الندوي هذه التجربة وقدم للإسلام والمسلمين كتابه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عام ١٩٥٠. والكتاب لا يعد نموذجًا للبحث الديني والاجتماعي فحسب. بل نموذجًا كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية.

١ــ إنه يبدأ في هذا الكتاب فيرسم صورة صغيرة سريعة ــ ولكنها واضحة ــ لهذا العالم قبل أن تشرق عليه أنوار الإسلام الأولى. يرسم هذه الصورة للعالم الإنساني شرقه وغربه شماله وجنوبه. «إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية، ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس واستحالت جامدة لا حياة فيها ولا روح، وبخاصة المسيحية»(١٠).

٢ــ فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم بجاهليته تلك ــ وهي المرحلة التي تمثل المرحلة الأولى «مقدمات التاريخ الإسلامي» في المنهج الذي سبق رسمه، يبدأ المؤلف في عرض دور الإسلام في حياة البشرية. دوره في تخليص روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن الظلم والطغيان، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكهان. دوره في بناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والشورى، والمعرفة واليقين، والثقة

(١٠) أبو الحسن الندوى: ماذا خر العالم بانحطاط المسلمين، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ص١٣.

والإيمان، والعدالة والكرامة، والإتقان في العمل والإحسان فيه، من أجل عمارة الأرض وترقية الحياة.

يرسم كل ذلك من خلال المرحلتين اللتين كانت القيادة فيهما للإسلام، وكان الإسلام فيهما يعمل، وهو لا يستطيع أن يعمل إلا أن تكون له القيادة لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء، ومنهج قيادة. ونعني بالمرحلتين هنا: مرحلة الإسلام على عهد الرسول (ص) ومرحلة المد الإسلامي. ثم تجيء الفترة التي فقد الإسلام فيها الزمام ـ مرحلة الإنحسار الإسلامي ـ بسبب انحطاط المسلمين، وتخليهم عن القيادة التي يفرضها عليهم هذا الدين، والوصاية التي يكلفهم بها على البشرية.

يرسم خط الانحدار الرهيب الذي ترتكس فيه الإنسانية في ذات الوقت الذي تفتح فيه آفاق العلم الباهرة. هنا يستعرض المؤلف أسباب انحطاط المسلمين الروحية والمادية، وماحل بهم نتيجة تخليهم عن مبادئ دينهم. ومن خلال هذا الاستعراض يحس القارئ بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة البشرية ورد الإنسانية إلى الهدى الذي انبثق في المرة الأولى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى المعرفة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

إن القارئ ليشعر بالخسارة الفادحة التي حلت بالبشر جميعاً، لا بالمسلمين وحدهم في الماضي والحاضر والمستقبل، بسبب النكسة التي حاقت بالبشرية منذ أن عجز المسلمون عن القيادة، وارتدادهم إلى «الجاهلية».

ويستخدم المؤلف تعبير «الجاهلية» للدلالة على الحالة التي كانت تسيطر على العالم قبل الإسلام، وأصبحت تسيطر عليه مرة أخرى بعد أن تخلى الإسلام عن القيادة بسبب عجز المسلمين وانحرافهم عنه.

فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة، ولكنها طابع روحي وعقلي معين، طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية، كما أرادها الله، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة، والفساد

والتعفن، والظلم والاستبداد، والترف والانحلال. وهذا ما تعانيه البشرية اليوم، كما كانت تعانيه من قبل أيام الجاهلية الأولى.

شرطان ضروريان:

على أن الذى يتعرض لكتابة التاريخ الإسلامي لابد أن يتوفر فيه شرطان أساسيان:

الشرط الأول:

«أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه في جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام. وفي جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشر الواقعية. وهذه الحياة في هذا الجو ضرورية جدًا لتفتح نوافذ إدراكه جميعًا، لا لفهم تلك الحياة فحسب، بل لإدراكها ككائن حي، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع في جسم هذا الكائن الحي»(١١).

الشرط الثانى:

أن يعتمد في الكتابة على المصادر العربية القديمة، فهي غنية بالمواد الخامة، التي تسعف من يريد الدراسة، ويوهب الصبر، ويحاول الغربلة، بالمواد الأولية اللازمة في بناء هيكل التاريخ. ثم يعتمد بعد ذلك على المصادر الأوربية، خاصة أعمال المستشرقين المعتمدين بدورهم على المراجع العربية القديمة. على أن يكون واضحًا للباحث الذي يستعين بدراسات المستشرقين أنهم وإن كانت دراساتهم فيها جهد كبير في جمع النصوص وتحريرها وتنسيقها إلا أن الموازنة بين الروايات المختلفة فيها هي موازنة من ناحية السند الخارجي فقط لا من ناحية الإدراك الداخلي. لأن هذا الإدراك يحتاج إلى الحاسة الناقصة في شعور الغربيين تجاه الحياة الإسلامية، فضلاً عن الغرض والهوى في كثير من الأحيان. وهذه الحاسة الناقصة هي التي تفرق بين تاريخ وآخر، بين الموضوعية والهوى.

---

(١١) سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، مرجع سابق، ص ٤٥.

أهداف منهج دراسة التاريخ الإسلامي:

السيرة النبوية جزء من التاريخ الإسلامي.. بل هي المرحلة الأولى التي بدأت بها وعلى هديها مسيرة التاريخ الإسلامي كله. ومع ذلك فإن كتابة التاريخ الإسلامي لابد أن تبدأ باستعراض الأوضاع التي كان عليها العالم شرقه وغربه، وشماله وجنوبه عندما جاء الإسلام ــ كما سبق أن بينا ــ لذلك فإن أهداف منهج دراسة التاريخ الإسلامي لابد أن تمتد أيضاً إلى تلك المرحلة.

وعلى ذلك فإن أهم أهداف دراسة التاريخ الإسلامي ــ في تصورنا ــ هي، كما يلي (١٢):

١ ــ أن يفهم الدارسون أن التاريخ ليس هو الحوادث، وإنما هو تفسير الحوادث، وإدراك الروابط والعلاقات الظاهرة والباطنة، التي تجمع هذه الحوادث، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، ممتدة مع الزمان والمكان، امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان.

٢ ــ أن يفهموا أن إدراكهم لأحداث الحياة الإسلامية والتاريخ الإسلامي **إدراكاً كاملاً يتوقف على فهمهم للتصور الإسلامي العام للكون والإنسان والحياة.**

٣ ــ أن يعرفوا أن كل مرئي يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية. لذلك فليس من المعقول علمياً وموضوعياً أن يكتب التاريخ الإسلامي ــ السياسي والحضاري ــ بأيد غير مسلمة.. بل لابد أن يكون كاتبه **مسلماً، يستلهم روح الإسلام وطبيعة التصور الإسلامي وراء الأحداث.**

٤ ــ أن يدرك الدارسون الصورة التي انتهت إليها تجارب الإنسانية، والحالة التي صارت إليها المجتمعات البشرية في الأرض قبل مولد الإسلام.

٥ ــ أن يدركوا وضع الجزيرة العربية ووضع الحياة فيها من جميع نواحيها عند مولد الإسلام.

---

(١٢) هذه مجموعة من الأهداف العامة التي يمكن أن يتحول كل منها إلى مجموعة كبيرة من الأهداف الإجرائية البسيطة التي يمكن أن تعلم من خلال مجموعة كبيرة من المواقف المتنوعة والدروس المختلفة.

٦ــ أن يدرك الطلاب حقيقة الإسلام، وطبيعة دوره في حياة البشرية، وطبيعة التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة.

٧ــ أن يعرفوا طبيعة رسول الإسلام من حيث نشأته، ونسبه، وصفاته، وطبيعة دوره في هذه الرسالة.

٨ــ أن يفهم الطلاب معنى النبوة الخاتمة، وأن يدركوا أن حاجة البشرية إلى الرسالة الخاتمة لا تقل عن حاجتهم إلى الرسالات والرسل في البداية.

٩ــ أن يفهم الطلاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يقتدوا بسنته القولية والعملية والتقريرية.

١٠- أن يعرف الطلاب كيف اختار الرسول (ص) رجاله، وكيف صاغهم وأعدهم للمهمة العظيمة وكيف بني نظامه، وعلى أي الأسس قام هذا النظام، وما الاعتراضات التي قامت ضده، وما المعارك التي خاضها من أجل تدعيم هذا النظام.

١١- أن يفهم الطلاب سر القوة والسرعة التي فاض بها الإسلام في العالم ذلك الفيض الإنفجاري العجيب، وأن يعرفوا لماذا لم يكن هذا الفيض عسكريًا فقط، وإنما كان فيضًا روحيًا، وفكريًا واجتماعيًا أيضًا.

١٢- أن يفهم الطلاب أسرار المعارك التي خاضها الإسلام في الرقعة الفسيحة التي امتد إليها وعواملها التاريخية وملابساتها الإنسانية.

١٣- أن يدركوا أعمال الهدم والبناء التي قام بها الإسلام في تلك الرقعة الفسيحة التي امتد إليها وتفاعله مع الأفكار والعقائد والنظم التي كانت سائدة فيها.

١٤- أن يدركوا أسباب انحسار المد الإسلامي، وعوامله الخارجية والداخلية، وهل كان الانحسار شاملاً أو جزئيًا، وسطحيًا أم عميقًا، وهل كان راجعًا إلى طبيعة العقيدة الإسلامية والنظام النابع منها، أم كان راجعًا إلي هجر هذه العقيدة ونظامها إلى عقائد ونظم أخرى.

١٥- أن يدركوا أثر هذا الانحسار في خط سير التاريخ، وفي تغيير أوضاع

البشر، وفي قواعد التفكير والسلوك، وفي العلاقات الدولية والإنسانية عامة.

١٦- أن يدرك الطلاب ماذا خسر العالم من وراء انحسار المد الإسلامي وظهور المد الغربي وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التي استحدثها الإنسان بالقياس إلى نظائرها في الإسلام.

١٧- أن يدركوا أثر انحسار الإسلام على وضع المسلمين في العصر الحاضر من النواحي الثقافية والحضارية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

١٨- أن يدركوا ماذا على الأمة أن تفعل من أجل النهوض مرة أخرى.

طرائق التدريس

فى الصفحات المتبقية من هذا الفصل سنعرض بعض نماذج لطريقة تحضير دروس السيرة النبوية الشريفة، والتاريخ الإسلامي الذي هو امتداد لهذه السيرة.

وقبل أن نعرض لهذه النماذج نود أن ننبه على أن تدريس السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي يحتاج إلى مدرس يحب السيرة وصاحبها، ويعتز بانتمائه للإسلام، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ويشعر باستعلاء الإيمان، ويقاوم ويكافح في سبيل تحقيق هذا الاستعلاء في نفوس الناشئة؛ فهو يعلمهم عدم الخضوع للظالمين المستبدين، أيًا كانت قوتهم المادية، لأن القوة المادية وحدها لا تخيف المؤمنين بالله، جبار السماوات والأرض، القاهرة فوق عباده أجمعين.

معلم يستخدم كل الطرائق والوسائل المشروعة في سبيل الفهم والإيمان والاقتداء:

ـ فهو يستخدم القصة في الوقت المناسب.

ـ وهو يستخدم الأحداث في التربية.

ـ وهو يستخدم الرحلات إلى الأماكن ذات الصلات التاريخية.

ـ وهو يستخدم الخرائط والرسوم والآثار الباقية، والمراجع المناسبة.

ـ وهو يسهم في ترتيب المحاضرات العامة والمناظرات والندوات في الموضوعات ذات الصلة.

ـ وهو يستخدم المناقشة المضبوطة ، والحوار البناء الذي يسهم في استنباط المبادئ والقيم وإدراك العلاقات بين الحوادث .
ـ وهو يعتمد على الدلائل والأسانيد والاستشهاد بآيات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .
ـ وهو معلم قدوة لطلابه ، وقدوة الجميع هو رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٣) .

وفيا يلي عرض نموذج لتحضير الدروس وتنفيذها في السيرة والتاريخ .

تحضير درس في السيرة

الموضوع : بدء بعثة النبي (ص)

أولاً ـ أهداف الدرس:

١ ـ أن يفهم التلاميذ كيف كانت حياة الرسول بين قومه قبل البعثة .
٢ ـ أن يدركوا موقفه من عباداتهم وعاداتهم .
٣ ـ أن يعرفوا كيف كان (ص) يتعبد ، وعلى أية ملة .
٤ ـ أن يفهموا متي نزل عليه جبريل ، وأين كان في ذلك الوقت ، وماذا قال له جبريل ، وما الآيات التي نزلت ، وماذا كان وقع المفاجأة على الرسول (ص) .
٥ ـ أن يدركوا بعد الدور الذي قامت به زوجه خديجة .
٦ ـ أن يفهموا من هو ورقة بن نوفل ، وماذا قال لخديجة بشأن ما حدث للرسول في تلك الليلة ؟
٧ ـ أن يعرفوا ماذا كان موقف خديجة من الوحي الذي نزل علي محمد (ص) .

---

(١٣) انظر بعض نماذج تحضير دروس السيرة النبوية في كتاب الدكتور سر الختم عثمان علي : تدريس السيرة النبوية في مناهج التاريخ المدرسية ، الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، ص٣٨ ـ ٤٣ .

ثانيًا ــ الأفكار الرئيسية :

١ ــ محمد بين قومه قبل البعثة .
٢ ــ موقف محمد من عادات قومه وعباداتهم .
٣ ــ أين كان يتعبد محمد ، ومتى ، وعلى أية ملة .
٤ ــ نزول الوحي ، تاريخ نزول الوحي ، أول آيات القرآن الكريم .
٥ ــ حالة الرسول بعد نزول الوحي ، موقف خديجة من ذلك .
٦ ــ ورقة بن نوفل ، من هو ، ماذا قال عن الحادثة .
٧ ــ موقف خديجة من الوحي ومن نبوة محمد (ص) .

ثالثًا ــ طريقة التدريس :

الخطوة الأولى :

يمهد المدرس للدرس بإلقاء بعض الأسئلة المتصلة بأهداف الدرس ، كأن يقول للتلاميذ : نريد أن نعرف من هذا الدرس كيف كانت حياة محمد في قومه ؟ وماذا كان موقفه من عباداتهم وعاداتهم ؟ وأين كان يتعبد ؟ وما الذي حدث له في الغار الذي كان يتعبد فيه ؟ .. الخ .

الخطوة الثانية :

يسرد عليهم الدرس في صورة قصة متصلة الحلقات بأسلوب بسيط ، ليس باردًا ، بل مفعم بالمشاعر المناسبة للموقف .

وبعد انتهاء السرد ، يسأل بعض الأسئلة العامة مثل : ماذا كان محمد يعمل قبل البعثة ؟ وماذا كان وضعه في قومه ؟ وأين كان يتعبد ؟ وما الذي حدث له ؟ .. وهنا أيضًا لابد أن يستقبل المعلم أسئلة التلاميذ ويجيب عليها .

الخطوة الثالثة :

يعطي المعلم التلاميذ بعض الوقت كي يقرؤوا الدرس في كتبهم قراءة

صامتة .. يكون هو أثناءها قد أعد خريطة أو بعض الرسوم على السبورة أو ما تيسر له من وسائل تعين التلاميذ على رسم صورة الزمان والمكان والبيئة .

بعد القراءة الصامتة تبدأ المناقشة الدقيقة لكل عموميات الدرس وجزئياته في هذه المرحلة المتصلة بحياة الإنسان المسلم : والصفات التي كان قد اشتهر بها الرسول في قومه قبل البعثة ؟

ــ هل كان يتعاون معهم في كل شيء أم في بعض الأشياء ؟ وما هي ؟
ــ ماذا فعلت خديجة عندما عاد الرسول (ص) من الغار؟
ــ ما موقف الزوجة المسلمة تجاه زوجها ؟
ــ من هو ورقة بن نوفل ؟ وما الملة التي كان يتعبد بها ؟
ــ ماذا قال جبريل عليه السلام لمحمد (ص) عندما ضمه إلى صدره ثلاث مرات ؟ وماذا تفهم من معنى نزول هذه الآيات بعينها كأول ما نزل من القرآن ؟ وما موقف المجتمع المسلم من القراءة والعلم ؟ ..
ــ هل الأمة الإسلامية تسير الآن وفق ما جاءت به هذه الآيات ؟

رابعاً ــ التقويم :

١ ــ يسأل المدرس مجموعة من الأسئلة خلال الدرس كله ، ومن خلال المناقشة لابد أن يتضح له مدى تحقيق التلاميذ للأهداف المقصودة من الدرس .
٢ ــ يعطي التلاميذ سؤالاً أو سؤالين للإجابة عنها في كراسة الواجب .
٣ ــ يقوم المدرس بعد ذلك بتصويب هذه الإجابات وإعطاء كل تلميذ الدرجة التي يستحقها عن إجاباته . مع إرشاد كل تلميذ إلى الأخطاء التي وقع فيها لتصويبها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

رقم الإيداع	٩٨ /١٤٧٥٠
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1108 - 7